معرفة الله والنفس

أوسم وصفي
ماهر صموئيل

معرفة الله والنفس

معرفة الله والنفس

د. أوسم وصفي د. ماهر صموئيل

أوفير
ophir

Knowing God & Self

Arabic Edition Copyright © 2013 by **Ophir Printers & Publishers.**

All rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.

معرفة الله والنفس

الطبعة العربية الأولى ٢٠١٣م

حقوق الطبع محفوظة

أوفير للطباعة والنشر

ص.ب. ٣٠٦٢، عمان ١١١٨١، الأردن

هاتف: ٧٦٨ ٥٦٦٥ ٦ ٩٦٢+ ، فاكس: ٧٦٨ ٥٦٣٩ ٦ ٩٦٢+

Email: info@ophir.com.jo

www.ophir.com.jo

رقم الإيداع: ٢٠١٣/١٠/٣٦٢٩

ISBN 978-90-5950-193-5

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقلها، أو استنساخه بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

المحتويات

التقديم ٧

المقدِّمة ١١

الجزء الأوَّل: معرفة الله

الفصل ١: يوجَدُ إله... وهو ليس أنت! ٢١

الفصل ٢: الله محبَّة ٣٣

الفصل ٣: محبَّةُ الله ٤٧

الفصل ٤: القوَّةُ والمحبَّةُ والنُّصح ٥٧

الفصل ٥: صداقةُ الله ٦٩

الجزء الثاني: معرفةُ النفس

الفصل ٦: الإنسانُ الحقيقيّ ٨١

الفصل ٧: الذاتُ الحقيقيَّة ٩١

الفصل ٨: الذاتُ المزيَّفة ١٠٥

الفصل ٩: رؤيةُ الله والنفس ١١٧

الجزء الثالث: رؤيةُ الله والنفس في وجه السيِّد المسيح

الفصل ١٠: عطشى عند بئر الماء ١٣١

الفصل ١١: قلبٌ منقسم ١٤٥

الفصل ١٢: اليومَ حصلَ خلاص ١٥٣

الفصل ١٣: يَنبوعٌ يتَوقَّف وآخرُ ينفَجِر ١٦١

الجزء الرابع: النموُّ الروحيّ (النموُّ في معرفة الله والنفس)

الفصل ١٤: الإيمانُ بالسيِّد المسيح ١٧٥

الفصل ١٥: الولادةُ الجديدة ١٩١

الفصل ١٦: التَّلمذة ٢٠١

الفصل ١٧: التَّلمذةُ حتميَّةٌ للنُّموِّ الرُّوحيّ ٢١١

الفصل ١٨: الوُجودُ الحقيقيُّ والزائف ٢٤١

الخاتمة ٢٦١

التقديم

هذا الكتابُ الجريءُ هو طاقةُ نُورٍ واسعةٌ تنفتحُ أمام القارئ، فتُضيءُ له جوانبَ عدَّة من حياتِه، وتُعينُه على اكتشاف نفسِه وفَهْمِها بحقّ، كما تُنيرُ له الطريقَ لمعرفة الإله الحقِّ، والدُّخول معه في علاقةِ حبٍّ وعبادةٍ مُحرِّرة.

إنَّ روعةَ هذا الكتابِ تَكمُنُ في المزيج الجميل الذي يُقدِّمُه الكاتِبان بِجُرْعاتٍ محسوبةٍ من الفَهْمِ الصحيح للإيمان، والدراسةِ العَميقةِ للعُلوم الإنسانيَّة. وتَزدادُ متعةُ القارئ وفائدتُه بسبب الخبرة الواسعة والممارسة العمليَّة الناضجة للكاتبَين، الأمر الذي يمكنُ تَلمُّسُه عبر العديد من الأمثلة التوضيحيَّة التي يسوقانها، والتي تشعرُ معها بأنَّها تُجسِّدُ حياتَك، وتعكسُ احتياجَك، وأنَّك وَحدَك المعنيُّ بهذا الكتابِ الجميل.

تهنئةٌ خاصَّة للصَّديقَين العزيزَين د. أوسم وصفي، ود. ماهر صموئيل، وتهنئة للمكتبة العربيَّة والقارئ العربيّ.

د.ق. عاطف مهني
عميد كلِّيَّة اللَّاهوت الإنجيليَّة

"إنَّ أغلبَ الحِكمةِ التي لَدَينا،
وأَقصِدُ الحكمةَ الصَّادقة والحقيقيَّة، تَتَكَوَّنُ
من قسمَين: مَعرفةُ الله ومَعرفةُ أنفُسِنا... وتحديدُ
أيٌّ منهما يَسبِقُ الآخرَ هو أمرٌ لَيسَ سهلًا".

جون كالڤن (John Calvin)
"أساسيَّات الإيمان المسيحيّ" (١. ١. ١)

"لَمَّا كُنتُ طِفْلًا كَطِفْلٍ كُنْتُ أَتَكلَّمُ،
وكَطِفْلٍ كُنتُ أَفطَنُ، وَكَطِفْلٍ كُنتُ أَفْتَكِر.
ولكِنْ لَمَّا صِرتُ رَجُلًا أَبطَلْتُ ما لِلطِّفل. فإنَّنا نَنظُرُ الآنَ في مِرآة،
في لُغْز، لكِنْ حِينئذٍ وَجْهًا لِوَجْه. الآنَ أَعرِفُ بَعضَ المعرفة،
لكِنْ حينَئذٍ سَأعرِفُ كما عُرِفتُ".

رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ١٣: ١١-١٢

المقدِّمة

هل نحتاجُ إلى معرفة أنفسنا لكي نعرف الله؟ وهل تؤثِّرُ معرفةُ أنفُسِنا أو عدم معرفَتها في عُمقِ علاقتِنا بالله ومدى حقيقيَّة هذه العلاقة وأصالتها؟ وهل تَصلُحُ معرفةُ أنفُسِنا لأن تكونَ "نقطةَ بدايةٍ" للوُصول إلى معرفة الله؟ أم أنَّ العكسَ هو الصحيح، أي أنَّ معرفةَ الله الحقيقيِّ هي التي ستُؤدِّي بالضَّرورة لأن نعرفَ ذواتنا الحقيقيَّة؟

للتَّبسيط فلْنَطرَحِ السؤالَين التاليَين:

- هل يمكنُ أن يحاولَ الإنسانُ بكلِّ صِدقٍ وأمانةٍ أن يعرفَ نفسَه، ولا تُقودُه هذه المعرفة إلى معرفة الله، وإنَّما إلى الكِبْرياء والتَّصلُّف والانحصار في النفس؟
- وهل يمكنُ أن يحاولَ الإنسانُ بكلِّ أمانةٍ أن يعرفَ الله ويُبحِرَ في دراسةِ الكتاب المقدَّس وربَّما اللَّاهوت، ولا يؤدِّي ذلك إلى معرفةِ نفسِه معرفةً حقيقيَّةً مُغيِّرة، بل يؤدِّي به إلى تديُّنٍ خالٍ من النموِّ الروحيِّ الحقيقيِّ الذي يَظهَرُ في التَّغيير الواضح في السلوك والأولَوِيَّات؟

للإجابة عن هذين السؤالَين، نقولُ نعم.

يمكنُ أن يحاولَ الإنسانُ أن يعرفَ نفسَه، دون أن يقودَه ذلك إلى معرفةِ الله. فإذا لم تَكُنْ جُهودُ معرفةِ النَّفس مَقرونةً برغبةٍ حقيقيَّةٍ في مَعرفة الله، فبالرُّغم من الوَعي والبصيرة، فلن تَؤولَ الأمورُ إلى معرفة النَّفس الحقيقيَّة،

بل ستَصلُ بالمرء إلى ذاتٍ مزيَّفةٍ فيها الكثيرُ من ملامحه، ربَّما تكونُ أفضلَ ممَّا كان عليه قبل أن يبدأ مسيرةَ معرفةِ النفس، لكنَّها في النهاية، ليستْ نفسَه الأصيلة. ويُعلِّمنا العهدُ الجديدُ أنَّ نفوسَنا الأصيلة مؤسَّسةٌ عند الله في السيِّد المسيح حتَّى قبلَ أن نولَد. ويقولُ العهدُ الجديد إنَّ فيه [أي في السيِّد المسيح] قد خُلِقَ الكُلّ، ما يُرى وما لا يُرى.[1] والسيِّدُ المسيح هنا ليسَ مُجرَّدَ رَجُلٍ أو حتَّى نبيٍّ عظيم عاشَ منذ قرون، بل هو "النموذج الكامل" للإنسانيَّة في صورتها المكتَمِلة والأبديَّة.

لذا، فأنْ يعرِفَ الإنسانُ نفسَه بصورةٍ حقيقيَّة، فذلك يعني أن يعرفَ نفسَه كما "عُرِفَ"، أي كما يَعرِفُه الله. وهذا بالتَّأكيد لن يَحدُثَ إلَّا من خلال معرفة الله، وإقامة علاقةٍ شخصيَّةٍ به تبدأ هنا وتكتمل في الأبديَّة.[2]

وعلى الجانب الآخر، يمكنُ أن يحاولَ الإنسانُ أن يعرف الله، بل أن يبذلَ الكثيرَ من الجَهدِ لإرضائه لكنْ إذا لم تكُنْ هذه الرغبةُ القلبيَّة والمحاوَلات المضنِية مقرونةً برغبةِ الإنسان في معرفة نفسه بأمانة، ومواجَهة كلِّ ما فيها من صفاتٍ وسماتٍ ونقاط ضعفٍ، فلن تقودَه محاوَلاتُه إلى معرفة الله الحقيقيّ، بل سيَؤدِّي هروبُه من نفسه إلى تَشويه صورةِ الله و"صناعة" إلهٍ يُسقِطُ عليه ما يُريد، فيَخلقُ لنَفسِه وثنًا، ويصنعُ لنفسه دِينًا.

إنَّ نفوسَنا الحقيقيَّة هي المكانُ الوحيدُ الذي فيه نقابِلُ الله، وهي أيضًا المكان الذي لن نستَطيعَ أن نجدَه دون الله. يَصِفُ ديڤيد بَنِر (David Benner) الرُّوحانيَّة

---

١) كولوسّي ١: ١٥-١٧.

٢) ١كورنثوس ١٣: ١٢.

الخالية من معرفة النفس في الفقرة التالية:

> "إنَّها روحانيَّةٌ ليسَتْ مستَقرَّةً ولا مُتَكامِلة بشكلٍ حَيَويٍّ مع النسيج الكامل للشخصيَّة. وهي تفشَلُ ليسَ فقط في تغييرنا في أعماقِ وُجودنا، بل هي تقودُ أيضًا إلى كلِّ ألوانِ الخطر الناتج عن الازدواجيَّة وغياب الأمانة... أمَّا فَهْمُ الرُّوحانيَّة المسيحيَّة بصورةٍ تتضمَّنُ الاعتماد المتبادَلَ بين معرفة الله ومعرفة النفس، فهو يقدِّمُ لنا روحانيَّةً تُساعِدُنا على التَّكامُل والقداسة".[٣]

وممَّا يُشعِرُ المرءَ بالعجب- وربَّما بعضَ الغضب- هو تلك العبارة التي نردِّدها في الكنائس نثرًا وشعرًا وترنيمًا: "لا تَنظُرْ إلى نفسك. بلِ انظُرْ فقط إلى السيِّد المسيح". وكأنَّ مَعرفةَ النَّفس ومعرفة السيِّد المسيح تَتَعارَضان أو تَتَنافَسان. ويحُثُّنا العهدُ الجديدُ بوُضوحٍ على لسانِ الرَّسول بولس أن ننظرَ إلى أنفسنا[٤]، وهو يحسبُ أنَّ "النظر إلى النفس" أو "معرفة النفس" هما خطوةٌ أساسيَّةٌ لمقاوَمةِ الخطيَّة والتَّجربة. لكنَّ "طريقة" معرفةِ النَّفس التي يُقدِّمُها لنا الكتابُ المقدَّسُ، ليسَتْ فقط من خلال المجهود والحكمة البشريَّة، حيث إنَّ هذا النَّوعَ من "المعرفة" قد يؤدِّي إلى الانحصار في النفس. ولعلَّ هذا ما ينبغي أن نُقاوِمَه ونُحذِّرَ منه. أمَّا معرفةُ النَّفس التي تؤدِّي إلى معرفة الله والآخرين والعالم، فهي المعرفة التي نحصلُ عليها برفقة الله وتحت سلطانِه، وفيها نكتَشفُ أنفُسَنا ونَقودُ حياتَنا عبر القوَّة التي يَمنَحُنا إيَّاها الله، ولأجل الأهدافِ التي يَضَعُها لنا، فنَحيا به ومعه وله.

---

3) David G. Benner, *Care of Souls. Provisioning Christian Nurture and Counsel*, (Grand Rapids: Baker Books,2007) p. 15.

٤) غلاطيَّة ٦.

ونحن نتَصوَّرُ أنَّ محاوَلاتِ معرفة الإنسان وإدارة حياته دون الله، هي الهدفُ المحوريُّ الذي يَدورُ حَوله "علم النفس العَلْمانيّ". وعلى الجانب الآخر، تُشكِّلُ محاوَلةُ مَعرفة الله، دون معرفة الإنسان، كلَّ ألوانِ "التديُّن" التي تُبعِدُنا عن أنفسنا وعن الناس وعن الله أيضًا. بالتَّأكيد، يساعِدُ علمُ النَّفس الإنسانَ أن يعرفَ الكثيرَ عن نفسه، لكنْ يَبقى هناك دومًا شيءٌ أعمَقُ لا يسعُنا أن نعرفَه عن أنفسنا إلَّا عندما نراه في وَجْه السيِّد المسيح. كما أنَّ محاوَلاتِ معرفة الله دون معرفة النفس تؤدِّي إلى معرفة الكثير عن الله، ومعرفة النفس على نحوٍ عميق، وتَظَلُّ هذه المعرفة اللَّاهوتية الدِّينيَّة غيرَ قادرةٍ على إحداثِ تَغييرٍ حقيقيّ.

وللأسف، قد يؤدِّي الخوفُ من علم النفس العَلمانيّ، إلى نَبْذِ أيَّة محاولاتٍ لمعرفة النفس، ولا سيَّما عندما تُستَخدَمُ في ذلك التِّقنيَّات المحايِدة التي يُقدِّمها علمُ النفس. ومن جهةٍ أُخرى، يكونُ الأمرُ خَوفًا من التَّزمُّتِ والتَّديُّن؛ حيث قد يُعادي العاملون في علم النفس، أو المعجبون به، كلَّ ما يُمكِن أن ينتسبَ إلى الرُّوحانيَّة، فنَظلَّ في بندولٍ يتمايَلُ، ونخسرُ بسببه معرفة الله ومعرفة أنفسنا على حدٍّ سواء.

وسنَحاولُ في هذا الكتاب أن ندخُلَ في تلك العلاقة الجدليَّة المتَبادَلة ما بين معرفة الله ومعرفة النفس، كما سنَتناوَلُ مُبادَرةَ الله لإقامة علاقةٍ بالإنسان عبر تجسُّدِ كلمةِ الله ليكونَ إنسانًا في المسيح يسوع، وسنرى أيضًا تَجاوُبَ الإنسان بالإيمان والطَّاعة والجِهادِ للنُّموِّ والتَّغيير.

يقعُ هذا الكتاب في تلك المساحة المشتركة ما بين اللَّاهوت وعلم النفس

والتَّشكيل الرُّوحيّ، وهي المساحة التي يحتاجُ إليها الإنسانُ المسيحيُّ والفردُ والكنيسةُ بكافَّة طوائفها في العالم أجمَع.

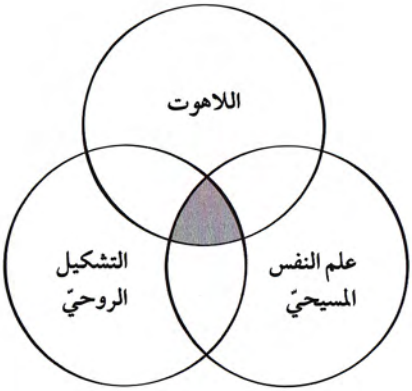

الشكل رقم (١): المساحةُ المشتركة ما بين اللَّاهوت،
وعلم النفس المسيحيّ، والتَّشكيل الرُّوحيّ

الجزء الأوَّل

معرفة الله

"لا يوجَد شيءٌ في إمكاننا عمله
لنجعلَ الله يحبُّنا أكثر... لا يوجد شيء في إمكاننا
عملُه لنجعلَ الله يحبُّنا أقلّ".

فيليب يانسي (Philip Yancey)

"إنَّ حياتَنا هنا على الأرض هي أشبَه
«ببرنامج تدريبيّ» تتدرَّبُ فيه أرواحُنا الأبديَّة
لتتَّخذَ الاختياراتِ الروحيَّةَ السليمة، ومن ثَمَّ تتشَكَّلُ
وتَصيرُ أكثرَ لِياقةً لتَملكَ مع الله إلى الأبد".

دالاس ويلارد (Dallas Willard)

الفصل ١

يوجَدُ إله... وهو ليس أنت!

الله مركَزُ الكَون وأصلُ الوُجود

البدايةُ الحقيقيَّةُ في معرفة الله هي أن نراه كما هو في الحقيقة: مركَزَ الكَون وأصلَ الوُجود. هذه المعرفة هي أمرٌ غايةٌ في الأهمِّيَّة؛ لأنَّ التَّحرُّكَ الأوَّلَ بعيدًا عن الله حدثَ عندما ظنَّ الإنسانُ (آدم) أنَّه يستَطيعُ أن يكونَ إلهَ نفسِهِ، وأن يجعَلَ العالمَ كلَّه متمحورًا حَوله. وإذا لم نَعُدْ إلى الله من النُّقطة نفسها التي فيها تغَرَّبنا عنه، فسنَضِلُّ الطَّريقَ إليه.

ما معنى أن يكونَ لكَ إله؟ وُجوديًّا، إلهُكَ هو ما يلتصقُ به قلبُك وما تَثِقُ به وتَلتَجئ إليه وتخضعُ له. فنحن بالفعل عبيدٌ للَّذي "نُطيعُه" حقًّا وليس لما "نقول" إنَّنا عبيدٌ له (رومية ٦: ١٦). فإنْ كانَتْ أفكارُكَ وميولُكَ وراحتُكَ ولَذَّتُكَ هي الأمورَ التي تُطيعُها، فإلهكَ هو نفسُك، مَهما أردْتَ أو قُلتَ غير ذلك.

إنَّ لكلِّ إنسانٍ فينا إلهًا، حتَّى وإنْ كان ذاك الشَّخصُ مُلحدًا. فإلهُ الإنسانِ هو، كما يقولُ بـول تيليك (Paul Tilich)، "اهتمامُه الأقصى" (Ultimate Concern)،

ويمكن أن يكونَ هذا الإلهُ صَنَمًا، أو فكرةً، أو قيمةً، سواءٌ كان قيمةً عُلْيا مثل الخير والحقّ والعدل، أو حتَّى التاريخ، أم قيمةً دُنيا مثل المال أو اللَّذَّة. بل إنَّ التعلُّقَ بالمقدَّساتِ والارتباطَ بها دون ارتباطٍ بالقُدُّوس نفسه يجعلُ من تلك المقدَّساتِ أصنامًا. فالسؤالُ إذًا ليس عمَّا إذا كان لك إيمانٌ أم لا؛ فلكُلٍّ منَّا إيمان، بل هو: "هل لكَ إيمانٌ بالإله الحقيقيّ؟".

ومَن الإلهُ الحقيقيّ؟

يجيبُ اللَّاهوتيون المحدِثون أنَّ الإلهَ الحقيقيَّ ليس جزءًا من هذا العالم، وهو ليس كِيانًا يوجَدُ بجانب كِياناتٍ أُخرى في هذا العالم. وكما أنَّ الوَصيَّة كانت للعبرانيِّين ألَّا يَصنَعوا تماثيلَ منحوتةً أو صورًا مَرسومةً لله، فإنَّ الوَصيَّة نفسها هي لنا: ألَّا نصنَعَ صورًا فكريَّة لله؛ فأيَّة صورةٍ من أذهاننا عن الله تُعَدُّ صَنَمًا فكريًّا نتَعبَّدُ له ويَضَعُنا في خطورة تَغريبِ أنفسنا عن الله.[٥] إنَّ الله هو دائمًا خارجَ تَصوُّراتِنا وأفكارنا، وهو يكسرُ دائمًا كلَّ القَوالبِ ويتحدَّى كلَّ الصُّوَر التي يرسمُها له الإنسان، فهو لا يسكنُ في هَياكلَ مَصنوعةٍ بالأيادي البشريَّة[٦]، ولا حتَّى الهياكل الفكريَّة المصنوعة في عُقولِ البَشَر. وينبغي أن يتضمَّنُ الإيمانُ بالله استجابةً منَّا لإعلان الله العامّ، أو الخاصّ، عن نفسه عندما يخاطبُ هذا الإعلانُ وَعيَنا وقُلوبَنا.

الوعي بالله

إنَّ الوَعْيَ بحُضور الله هو ذلك الوَعيُ بأنَّ هناك شيئًا ما آخرَ غير ما هو عاديٌّ ومألوف. إنَّها اللَّحظةُ التي ينفتحُ فيها بُعدٌ آخرُ من الوَعيِ يجعَلُنا نرى العالم ليس

---

5) Ted Peters, *God – The World's Future*, (Minneapolis: Fortress Press, 2000), p. 27-28.

٦) أعمال ١٧: ٢٤.

كما كنَّا نراه من قبل، كما يجعلُنا ننظرُ إلى البَشَر وإلى أنفسنا من منظورٍ جديد. عند تلك اللَّحظة من الوَعي بالله، نشعرُ وكأنَّ العالم يتوقَّفُ ويصيرُ دونَ قيمةٍ أمام ثراء تلك اللَّحظة التي يتكثَّفُ فيها وَعيُنا بالوُجود كلِّه.

عند هذه النُّقطة يصطدمُ الإنسانُ بسؤالِ الوُجود: لماذا هناك وُجودٌ وليس عَدَم؟ أو بالأخصّ: لماذا أُوجَدُ أنا؟ وما أهمِّيَّةُ الوُجود والموجودات؟ ماذا يحدُثُ إنْ توقَّفَ كلُّ شيءٍ عنِ الوُجود؟ وإنْ كان كلُّ شيءٍ مَوجودًا، وسيَأتي وَقتٌ لا يكونُ فيه موجودًا، فما الغرضُ إذًا من وُجودٍ مؤقَّتٍ يتحرَّكُ نحو النِّهاية؟ ألا يوجَدُ معنًى لأيِّ شيء؟ أم أنَّ هناك شيئًا آخرَ خارجَ هذا الوُجود يُعطي لكلِّ ما في الوُجودِ مَعنًى؟

إنَّ من شأن هذا السؤال أن يقودَنا إمَّا إلى اكتِمالِ المعنى والأبديَّة، وإمَّا إلى انعدام المعنى والعدميَّة.[٧]

نشعرُ عند هذه النقطة إمَّا بمزيدٍ من التَّقدير للوُجود، وإمَّا أنَّنا نحتَقرُ الوُجودَ لأنَّه يؤدِّي إلى العَدَم. بكلماتٍ أُخرى، يمكنُ أن يَقولَ أحَدُهم: إنْ كانت حياتي ستَنتَهي وهُناك وُجودٌ آخرُ بعدَها يُعطيها معنًى أكبر، فلْأَصنَعْ من حياتي معنًى يستَمرُّ إلى ما بَعدَها. ويمكنُ أن يقولَ شخصٌ آخر: إنْ كنَّا سنَموتُ في النِّهاية، فلْنَمُتِ الآن أو لنأكُلْ ونَشربْ لأنَّنا غدًا نموت.[٨]

الله القريبُ البعيد

في لحظات السؤال هذه، عندما يتَحرَّرُ الإنسانُ لحظيًّا من العاديِّ والمألوف، ويبدأ في التَّساؤل عن الوجود- وهذا يحدُثُ عند المواقف الوُجوديَّة العنيفة مثل مواجَهة

7) Ted Peters, *God – The World's Future.*

٨) ١ كورنثوس ١٥: ٣٢.

الموت- فإنَّ الله يجيبُ ويعلنُ عن ذاته ويقولُ إنَّه هو مَصدَرُ الوُجودِ وخالقُه من العدم. عندئذٍ يكونُ الإيمانُ هو أن يُلقِيَ الإنسانُ بنَفسِه ما بين ذراعَي الله. في أعماق وُجودِنا الشخصيّ، نحن لا نريدُ أن نكونَ بمفردنا، بل نشتاقُ إلى العلاقة الحميمة. ومهما كان الاقترابُ الإنسانيُّ الذي نتمتَّعُ به، فإنَّنا لانزالُ نَجِدُ داخلَنا احتياجًا دفينًا لا تُشبِعُه العلاقاتُ الإنسانيَّة، بل لا يُشبِعُه العالم بأَسْرِه- إنَّه الاحتياج إلى معرفة الله وإقامة علاقةٍ به. إنَّنا على الرُّغم من جوعنا وعطشنا المستمرِّ إلى الله، لا نَستَطيعُ أن نعيشَ في حالةٍ من المعرفة الكاملة لله الآن، فمَعرفتُنا إيَّاه تَظَلُّ ملفوفةً بالغموض والتوقُّع، وهذا ما يُتعِبُنا في العلاقة بالله، وهو ما يُشبِعُنا أيضًا. إنَّنا نحتاجُ إلى مَن يَقتربُ إلينا في حياتنا اليوميَّة، لكنَّنا أيضًا نُريدُ ما يخرجُ بِنا من قُيودِ الحياة اليوميَّة للإبحار في آفاق المطلَق. نحن مخلوقون ومحدودون، ولكنَّنا مَدعوُّون إلى التَّسامي فوق حالتنا المخلوقةِ الضَّعيفةِ المحدودة. إنَّنا نشتاقُ إلى حضورِ الله نفسِه.

ونحن، كما يُذكِّرنا ريتشارد رور[9] (Richard Rohr)، لا نستَحضرُ الله بِبِرِّنا، ولا بعبادتنا وتسبيحنا، فنحن بالفِعْل في محضر الله دائمًا، لكنَّ ما يَنقصُنا أن نَعِيَ ذلك: أن نرفعَ عيونَ قلوبِنا إلى العلاء، فنرى عيونًا حانيةً تَنظرُ إلينا بحبٍّ شديدٍ ورغبةٍ عَميقةٍ في التَّواصُل.

معرفةُ الله تتطلَّبُ الاستعدادَ للخُروج

هناك نوعان من صفات الله: الصفات المثبَتة (أي ما هو)، والمنفيَّة (أي ما ليس هو). والصِّفاتُ المنفيَّة هي مايَصِفُ الله المطلقَ بالمقارَنة بمحدوديَّة الإنسان، والصِّفات المثبَتة هي مايُثبتُ كَمالَ الله. من الصِّفات المنفيَّة أنَّ الله لا يمكنُ أن يحيطَ به

9) Richard Rohr. *Everything Belongs: The Gift of Contemplative Prayer* (New York: Crossroad, 1999). P. 28.

الفَهم. لقد نَسَبَ العقلُ اليونانيُّ (تبعًا للتَّقليد الأفلاطونيِّ[١٠] والأفلوطينيّ[١١]) إلى الله صفةَ الاستِعْصاء على الفهم والمعرفة، وقد أرجَعوا ذلك إلى وِحدةِ فِكْرِ الله في مقابل ثنائيَّةِ فكرِ الإنسان. بالنسبة إلينا، نحن نفكِّرُ في صورةِ المتَقابِلات والمتَضادَّات والأمور النسبيَّة، أمَّا الله فهو الحقيقةُ المطلَقة، لذا يجبُ أن يكونَ بسيطًا وليس معقَّدًا. من ثَمَّ، لا يمكنُنا أن نفكِّر في تلك الحقيقة المتسامِية البسيطة ونفهمَها بعُقولنا المنقسِمة. الله لا يمكنُ فَهْمُه، وإنْ كانَتْ هناك وسيلةٌ متاحةٌ لاختباره، فإنَّه يُختبَر في لحظات الخروج من الحياة اليوميَّة الروتينيَّة، ومن تصوُّراتنا عن الله، وانحصارنا المريض في أنفسنا وذلك في ومضات من الإشراق الرُّوحيّ.[١٢]

وحتَّى يبدأ الله تاريخَ إعلانِه عن نفسه للإنسان، بدأ برجلٍ اسمه "أبرام"، طلبَ منه أن "يخرجَ" من أرضه إلى أرض لا يعرفُها. عندما يخرجُ الإنسان من أرضه التي وُلد وتربَّى فيها، فإنَّ هذا يجعَلُه أيضًا يخرجُ من طرق التفكير والاستقبال التي اعتادَها، وهذا يؤهِّلُه لأنْ يختبرَ أمرًا جديدًا. في الواقع، عقلُ الإنسان مرتَبطٌ ارتباطًا وثيقًا بالمكان. حتَّى نَومُه واستيقاظُه مرتبطٌ بدَورةِ الضَّوء والظَّلام وفقًا لتَوقيت المكان الذي يعيشُ فيه. لذلك حتَّى يكلِّم الله الإنسانَ، فإنَّه يطلبُ منه عادةً الخروج. والعجيبُ أنَّ هذا الخروجَ من الحالة المعتادة هو مَصدَرُ السعادة الحقيقيّ؛ فالكلمةُ الإنكليزيَّة (Ecstasy) التي تُشيرُ إلى النَّشوة والسعادة الفائقة تُترجَمُ حرفيًّا "الوجودُ خارجًا" (Ec-Stasis). وكثيرًا ما يحاولُ الإنسانُ عبر الخَمْرِ والمخدِّرات والجنس أن يخرج، ولو لِلَحظاتٍ، من إطار وَعْيِه لكي يحصُلَ

---

١٠) نسبةً إلى الفَيلسوف اليونانيِّ المشهور أفلاطون.

١١) نسبةً إلى الفيلسوف المصريِّ السكندريِّ "أفلوطين" (Plutinus)، وهو مؤسِّس ما يُسمَّى بالأفلاطونيَّة المحدَثة.

١٢) المرجع السابق نفسه.

على لحظاتٍ من النَّشوة. إنَّ الله يُريدُ لنا هذه النَّشوة بالخُروج من حياتِنا الروتينيَّة والاقتراب منه. ويحدُثُ هذا في أوقاتِ العِبادةِ والصَّمت والخلوة. لكنْ ينبغي، قبلَ كلِّ هذا، أن يكونَ الخروجُ من النَّفس تَوجُّها روحيًّا مستَمرًّا.

لأنّه حياتُك

إنَّ العقَبةَ الكبرى في سبيل معرفة الله هي أن يحسبَ الإنسانُ نفسَه إلهًا وأنَّ الكَونَ يَدورُ حَولَه. بالتَّأكيد، نحن لا نقولُ بشكلٍ واعٍ إنَّنا آلهة، لكنَّنا نتصرَّفُ كما لو كُنَّا كذلك. إذا تأمَّلَ كلٌّ منَّا سلوكيَّاتِه وأفكارَه، فإنَّنا نكتشفُ بسهولةٍ أنَّ كلَّ واحدٍ فينا يتصرَّفُ كما لو كان هو أهمَّ إنسانٍ في العالم، وأنَّه النُّقطةُ المحوريَّةُ التي يبدأ عندها كلُّ شيءٍ وينتَهي إليها الكلّ.

كلَّما كان لدينا استعدادٌ للخُروج من أنفسنا إلى الله، استَطَعْنا أن نعرفَ الله أكثر. وكلَّما عَرفْنا الله بصورةٍ حقيقيَّةٍ عميقة، تجرَّأنا على الخروج من أنفسنا أكثرَ، فنعرفَه على نحوٍ أكبر، ومن ثَمَّ نعيشُ متحرِّرين من أنفسنا بصورةٍ أكبر. فإذا كان حِمْلُ الخروج من أنفسنا ثقيلًا، فهو أخفُّ جدًّا من حِمْل الحياة ونحن منحَصِرون في أنفسنا.

إذا نَظَرْنا بتَدقيقٍ إلى الخليقةِ من حَولِنا، باحثين عن سمةٍ مشتَركةٍ بين كلِّ مجموعةٍ من الكائنات، فإنَّنا حَتْمًا سنَجِدُ الكثير. لكنْ إنْ بحَثْنا عن سمةٍ واحدةٍ عامَّةٍ تشمَلُ الجميع- الجماد والأحياء؛ الفَلَك والذرَّات؛ ما في الأرض وما في السموات- فإنَّنا لا نَجِدُ أروَعَ من هذه السِّمةِ المشترَكة بين الجميع، والتي يمكنُ أن نحسبَها بَصمةَ الخالق وتوقيعَه على كلِّ أعماله، ويمكنُ أن نسمِّيَها "**الجوهَر المركَز**". والمقصود بهذا التعبير هو وُجودُ كِيانٍ جوهريٍّ مركَزيٍّ تَدورُ حَوله كِياناتٌ أُخرى وتَتبَعُه، ويكونُ لكلٍّ من هذه الكِيانات كِيانُه الخاصُّ ووظيفتُه الخاصَّة. إلَّا

أنَّ أداءَ كلِّ كِيانٍ من هذه الكِيانات لوَظيفته، بل استمراريَّة وُجوده، يعتَمِدان كثيرًا على التَّبعيَّة المطلَقة للجَوهَر المركَز، بل أيضًا على الاحتفاظ بالبقاء في الموقع المحدَّد بدِقَّة سواءٌ في موقع بعيدٍ أم قريبٍ من المركَز. أي أنَّ طبيعةَ كلِّ شيء ومدى نجاحه في تحقيق غايَتِه تَرتبطُ بعَلاقتِه بالمركَز وذلك من أصغر الأشياء إلى أكبرها- من الذَّرَّةِ إلى المجرَّة، مرورًا بالخليَّة التي فيها تسيطرُ النُّواة في المركَز على كلِّ أجزاء الخليَّة وأنشطَتِها.

من أجمل الفِقراتِ التي تُعبِّر عن هذه الحقيقة ما وردَ في سفر التَّثنية ٣٠:

"انظُرْ. قد جَعلتُ اليومَ قُدَّامَك الحياةَ والخير، والموتَ والشَّرّ، بما أنِّي أوصيتُكَ اليومَ أن تُحبَّ الربَّ إلهك وتسلُكَ في طُرُقه وتحفظَ وَصاياه وفَرائضَه وأحكامَه لكي تحيا وتنمُو... أُشهِدُ عليكُمُ اليومَ السَّماءَ والأرض. قد جعلتُ قُدَّامَكَ الحياةَ والموت، البركةَ واللَّعنة. فاختَرِ الحياةَ لكي تحيا أنت ونسلُك، إذْ تُحبُّ الربَّ إلهك وتسمَعُ لصَوتِه وتلتصقُ به، لأنَّه هو حياتُك".

معرفةُ الله تتطلَّبُ الاستعدادَ للخُضوع

إنْ كانَتْ أكبرُ عَقَبةٍ في سبيل معرفةِ الله هي أن يفكِّرَ الإنسانُ ويتَصرَّف كما لو كانَ هو الله، فإنَّ أهمَّ خُطوةٍ تجعَلُ الإنسانَ يتذكَّرُ أنَّه ليس الله، هي أن يعيشَ حياةً من الخضوع والعبادة. فحالةُ الخضوع والعبادة لله تذكِّرُنا أنَّنا مخلوقون وأنَّه الخالق، وهذا ليس لمصلَحةِ الله بل لمصلحتنا نحن. فعندما يتصرَّفُ الإنسانُ ضدَّ طبيعتِه بصفته مخلوقًا يعتمدُ وُجودُه كلُّه على الله، سيُصابُ بالضَّرَر.

لكي يُذكِّرَ الله الإنسانَ (آدمَ وحوَّاء) بمحدوديَّته، وَضَعَ شجرةً في الجنَّة ومنعَه

من أن يأكلَ من ثمرها، وذلك ليَتَذكَّرَ أنَّه مخلوقٌ ومحدود، وأنَّه ليس مركَزًا للكَون. كانَتِ الطَّاعةُ والخضوعُ لله هما صِمامُ الأمان الذي يحمي الإنسانَ من أن يتصوَّرَ أنَّه إلهُ هذا الكَون. لقد خَلقَ الله الكَونَ وأعطى الإنسانَ أن يمارسَ سُلطانَه على الأرض والطُّيورُ والحيوانات والأسماك، وتخضَعُ له كلُّ وحوش البرِّيَّة. يَصِفُ سي. أس. لِويس[١٣] هذا الإنسانَ الفردوسيَّ (آدم قبل السقوط) بأنَّه- على عكس ما نعرفه عن الإنسان الآن- يتميَّزُ بسُلطانٍ كاملٍ على الخليقة والحيوانات، بل هو يحتَفِظُ أيضًا بسلطانٍ كاملٍ على جسده.

كان يحتاجُ هذا الإنسانُ الأوَّلُ بكلِّ قدراته الروحيَّة والجسديَّة، إلى ما يُذكِّره بأنَّه ليس كلِّيَّ القُدرةِ والسلطان. لذا أمرَه الله ألَّا يأكُلَ من ثمر شجرةِ مَعرفةِ الخَير والشَّرّ. ليس لأنَّ الله لا يُريدُ للإنسان أن يعرفَ الخيرَ والشَّرّ، بل لأنَّه يُريدُه أن يعرفَهما من خلال الله، حتَّى يحتَفظَ بعلاقةِ الخضوع والطَّاعة والاعتماد على الله. والقوَّةُ التي كانت لدى الإنسان ليسَتْ فقط ممنوحةً من الله، بل هي أيضًا مُستَمدَّةٌ من علاقةِ الطَّاعةِ والخضوع لله. عندما عصى آدمُ وحوَّاءُ الله، فَقَدا علاقتَهما الواعية به، والتي هي مبنيَّةٌ على الطَّاعة والخضوع، لكنَّ علاقتَهما الكِيانيَّة به ظلَّتْ مَوجودةً. فكلُّ كائنٍ يستَمدُّ كَينونتَه من الله، هو إذًا على علاقةٍ كينونيَّة (وجوديَّة) بالله.

إنَّ العلاقةَ الشخصيَّةَ الواعِية المبنيَّة على الطاعةِ والخُضوع هي الأساسُ في النموِّ الروحيِّ، والاستقرار النفسيِّ والأخلاقيِّ للإنسان. لم يَمُتِ الإنسانُ جسديًّا عندما عصى الله، لكنَّه مات أخلاقيًّا وروحيًّا، وكان مَظهَرُ ذلك الموت أنَّ الخوفَ (خشيت) والخِزي (عريان) دَخَلا حياتَه[١٤] بعد أن كانَتْ حياتُه سيمفونيَّة

13) C. S. Lewis, *The Problem of Pain*, (N. Y. : Harper Collins, 1940- 1996 – 2001) p. 57.

١٤) تكوين ٣: ١٠.

متَّصِلةً من الفرح والإشباع. ومنذ ذلك الحين ظلَّ الخوفُ والخِزْيُ في حياة الإنسان مصدرَين للقَلَق الرُّوحيِّ الذي يُعيقُ نموَّه ويُصيبُه بكلِّ أنواع الأمراض الروحيَّة والنفسيَّة.

الخروجُ والخضوع: مَصْدَرا الشِّفاء والنُّموّ

إذا كان الخروجُ والخضوعُ ضَروريَّان لمعرفة الله، فَهُما أيضًا ضَروريَّان للشِّفاء والنُّموِّ الإنسانيِّ عمومًا. في الفِقرة المقتبَسة من سفر التَّثنية، يقولُ الوَحيُ إنَّ الالتصاقَ بالربِّ وعبادتَه والخضوعَ له ليس فقط مَصدرَ الحياة، بل هو أيضًا مَصدرُ النُّموّ. إنَّ النُّموَّ في معرفة الله واستقبال محبَّته غير المشروطة هو الذي يَشفينا من الخوفِ والخزيِ اللَّذين يُعيقان نُموَّنا الرُّوحيَّ والنفسيَّ والاجتماعيّ، وهذه الإعاقة في النُّموِّ هي التي تجعَلُنا مُعرَّضين لكلِّ أنواع الاضطرابات التي لن نُشفى منها إلَّا إذا واصَلْنا النُّموَّ الرُّوحيَّ عبر الاتِّصالِ بالله وأنفسنا والآخرين.

ولعلَّ مَرضَ السَّرطانِ هو أحَد الأمثلة التي تُشيرُ موضِحةً إلى حجم الضَّررِ الذي يَقعُ على الإنسان من جرَّاءِ التمرُّد. فهذا المرضُ الخبيثُ ما هو إلَّا استِقلالُ خَليَّةٍ وتمرُّدِها على وَضْع التبعيَّة.

إنَّها مجرَّدُ خليَّةٍ ترفضُ الخضوعَ للقواعد الموضوعة لها بشأنِ سُرعةِ انقسامها وحدودِ مَكانِها! لقد قرَّرتْ تلك الخليَّة في لحظةِ جنون، لم يُعرَفْ سببُه بعدُ، أن تُغيِّرَ مكانَها وسرعةَ انقسامها. إنَّها تريدُ حرِّيَّتَها لتُحقِّقَ ذاتَها بعيدًا عن القواعدِ التي تحكُمُ باقي النَّسيج. إنَّ تلك الخليَّة تبتَغي أن تكونَ المركَز! وفعلًا تصيرُ هي المركَز! لكنْ للأسف الشَّديد، تصيرُ مركَزًا لوَرمٍ خَبيثٍ يتحتَّمُ استِئْصالُه وإلَّا سيُدمِّرُ الجسدَ كلَّه. وقد أجرى الله ذلك الاستئصالَ على الصَّليب عندما قرَّرَ أن

يُبطِلَ الخطيَّةَ بِذَبيحةِ نفسه، فيوقِفَ نشاطَ هذا السَّرطان، ويستَأصِلَ بختانِه الإنسانَ العتيقَ الذي يدمِّرُ ذاتَه، ويخلقُ إنسانًا جديدًا يتمركزُ حول الله، ويتجدَّدُ إلى المعرفة حسب صورة خالقه في مزيد من الطاعة والإثمار، ثُمَّ بمجيئه الثاني ومُلكِه سيَجمَعُ الله كلَّ ما كان قد استقلَّ، ويُعيدُه ليَتمركَزَ حولَ السيِّد المسيح، ما في السموات وما على الأرض، ليَعودَ هو المركَزَ لكلِّ مَنظومةِ الوُجود.

إنَّ السرطانَ هو مَثَلٌ على الأمراض الجسديَّة، يُقابِلُه من الناحيَّة النفسيَّة السلوكيَّة- وباءٌ آخرُ هو الإدمان. ولعلَّ سرَّ نجاح "برنامَج الخطوات الاثنتَي عشرة للمدمنين المجهولين" في شفاء أهمِّ مرضٍ روحيٍّ يُصيبُ الإنسانَ- وهو الإدمان بكلِّ أنواعه-هو أنَّ البرنامَجَ وَضَعَ يَدَه على السَّببِ الرُّوحيِّ الحقيقيِّ من وراء هذا الوباء: أنَّ الإنسانَ يَدورُ حَولَ نفسه، ويَحسبُ نفسَه إلهًا لنَفسِه من خلال محاوَلاتِه المستمرَّة للسَّيطرةِ على حالتِه المزاجيَّةِ عبر الموادِّ التي يتَناوَلُها، أو الأنشطةِ التي يمارسُها، أو حتَّى العلاقاتِ التي يُقيمها. والسببُ الرُّوحيُّ العميقُ من وراء كلِّ ذلك هو أنَّ الإنسانَ يبحثُ عن حلٍّ لخَوفِه وخِزْيِه وجوعه الروحيّ. وبَدَلَ أن يلجأَ بخَوفِه وخِزْيِه إلى الله، فإنَّه يلتجئُ إلى أمورٍ أُخرى لا تَزيدُه إلَّا جوعًا وخِزْيًا، وهكذا يدخُلُ دائرة الإدمان المفرَغة.[15] فالله خلقَ كلَّ شيءٍ ليكونَ تعبيرًا عن الحبّ؛ لأنَّه يُريدُ أن يُعطي، بينما يمكنُ أن يستخدمَ الإنسانُ كلَّ ما هو مخلوقٌ ليكونَ مَوضوعًا للإدمان؛ لأنَّه يُريدُ أن يُسيطِر. تقولُ الخطوةُ الأولى من خطواتِ "برنامج المدمنين المجهولين": "اعترفنا أنَّنا عاجِزون أمام الكحول [أو أيِّ شيء آخر]، وحياتُنا صارَتْ غيرَ قابلةٍ للإدارة". والخطوةُ الثانية تعترفُ بِوُجودِ قوَّةٍ عُظمى في الكون،

15) Gerald G. May. *Addiction and Grace*, (N. Y. : Harper One, 1991).

والثالثة تُقرِّر التَّسليم والخضوع لهذه القوى العُظمى لتَحقيقِ الشِّفاء والصَّواب.

ومن الشِّعاراتِ المشهورة للبرنامج:

- استسلم لله (Let Go and Let God!).
- يوجَدُ إله... وهو ليس أنت (There is God and it is Not You!).

على عكسِ مَفهومِنا السَّائد عن النُّموِّ أنَّه يحدُثُ من خلال السَّيطرةِ والحصولِ على الأشياء، فإنَّ النُّموَّ الرُّوحيَّ الحقيقيَّ يحدُثُ من خلال الخضوع والتَّسليم والطاعة. وكلَّما سلَّمنا لله، حَدَثَ النُّموُّ الرُّوحيُّ الذي يؤدِّي إلى تَناقُصِ الخَوفِ والخِزي، ممَّا يُبطِئ بالتَّدريج من عَجَلةِ الإدمان المسرِعة إلى أن تتوقَّف.[١٦] عندما نقرِّرُ أنَّ انحصارَنا في أنفسنا لا يَحمينا بل يُميتُنا؛ وحينما نقرِّرُ أن نخرجَ من أنفُسِنا إلى الله ولجعَلَه هو مركَزَ حياتِنا بدلًا من أنفسنا، فإنَّ أهمَّ ما يُطمْئِنُنا هو أنَّ هذا الإله يحبُّنا أكثر ممَّا نحبُّ نحنُ أنفسَنا. إنَّه يحبُّنا كما نحن، ويعرفُ عنَّا كلَّ شيء، ويَقبَلُنا على الرُّغم من كلِّ شيء.

---

١٦) المرجع السابق نفسه.

الفصل ٢

الله محبَّة

الله كائنٌ في علاقةٍ أزليَّة، ويَدعونا للدُّخول معه فيها

عندما نطرحُ السؤال: "مَن هو الله؟" فإنَّنا حتمًا سنُواجِهُ حقيقةَ أنَّ الله كما نؤمنُ به، هو إلهٌ ذو علاقات (Relational)، أي أنَّ الميلَ إلى التَّواصُلَ، والرغبةَ في إقامة العلاقات، والمحبَّةَ بالنِّسبة إليه هي ليسَتْ مجرَّدَ استراتيجيَّةٍ للتَّعامُل مع البشر، بل هي "طبيعة" جوهريَّة فيه. ودائمًا ما تجعلُ هذه الطبيعةُ الله يَتَنازَلُ إلى البَشَر- يَتَنازَلُ فيَخلقَهم على صورته، فيَملكون عقلًا ومشاعرَ وحرِّيَّةَ إرادةٍ ومسؤوليَّةً شخصيَّةً أخلاقيَّة. ثُمَّ إنَّه يتَنازَلُ فيتكلَّمُ إلى البشر بالوَحْي والإلهام عبرَ أشخاصٍ مُلهَمين وأنبياءَ قدِّيسين عبرَ حقبٍ وأجيالٍ من تاريخ البشريَّة. والله في المفهوم المسيحيِّ هو ذلك الكائنُ المتسامي الذي تَنازَلَ واتَّحدَ والبشريَّة في شخصِ يسوع المسيح. كما أنَّه يتَنازَلُ أيضًا فيَحِلُّ بروحه في أرواح المؤمنين به لكي يُغيِّرَهم ويُلهِمَهم ويحرِّكَهم نحو إتمام مَقصِدِه النهائيِّ في الكَون.

الإيمانُ بالله الواحِد

في البداية، يجب أن نتذكَّر جيِّدًا أنَّ المؤمنين الأوائل بالسيِّد المسيح كانوا من خلفيَّةٍ يهوديَّة تؤمنُ بالتَّوحيدِ الصَّارم، وهذا مَفهومٌ ضروريٌّ للتَّفرِقة ما بين الإيمان بالإله الواحد الذي خلقَ السماءَ والأرض وكلَّ ما فيهما، والديانات الوثنيَّة العَديدة التي كانَتْ تموجُ بها الحياةُ الدينيَّة المحيطة بالعبرانيِّين عبر تاريخِهم كلِّه، بدءًا بأُور الكَلدانيِّين حيثُ نشأ أبرام (إبراهيم) قبل أن يُنادِيه الله، وحتَّى الحضارة اليونانيَّة التي كانت سائدةً وقت مجيء السيِّد المسيح إلى الأرض، مرورًا دون شكٍّ بالكَنعانيِّين والأشوريِّين والبابليِّين وغيرهم.

كانَتِ الوصيَّةُ الأولى والعظمى لإسرائيل هي "اسمَعْ يا إِسْرائِيل: الرَّبُّ إلهنا ربٌّ واحد" (تثنية ٦: ٤)، والوصيَّة الأولى من الوصايا العشر في سِفر الخروج ٢٠: ٢-٣ هي: "أنا الربُّ إلهُك الذي أَخرَجَكَ من أرضِ مِصْرَ من بَيتِ العُبوديَّة. لا يَكُنْ لكَ آلهةٌ أُخرى أَمامي". وكانَتْ هذه هي الوصيَّةَ التي ظلَّ الأنبياءُ يردِّدونها على مَسامع الشَّعب بطُرُقٍ مختلفة مُحذِّرين الشعبَ دائمًا من الوثنيَّة وتَعدُّدِ الآلهة المحدِق بهم من كلِّ ناحية. وعندما جاءَ السيِّدُ المسيح، أكَّدَ على هذه الوصيَّة ولم يَنْقُضْها بأيَّة حالٍ من الأحوال. فعندما سُئلَ عن أعظم الوصايا أجاب: "إنَّ أوَّلَ كُلِّ الوصايا هي: اسمَعْ يا إسرائيلُ. الرَّبُّ إلهُنا ربٌّ واحد. وتُحبُّ الربَّ إلهك من كُلِّ قلبِك، ومن كُلِّ نفسك، ومن كُلِّ فكرك، ومن كُلِّ قُدرتك. هذه هي الوصيَّةُ الأُولى. وثانيةٌ مثلُها هي: تُحبُّ قريبَك كنفسك. ليس وصيَّةٌ أُخرى أعظم من هاتَين" (مرقس ١٢: ٢٩-٣٠). ولم يفرِّطْ كُتَّابُ العهد الجديد بوحدانيَّة الله بأيِّ شكلٍ من الأشكال، فيقولُ الرَّسولُ بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس: "فمِنْ جِهةِ أكْلِ ما ذُبح للأوثان: نعلمُ أنْ ليس

وَثنٌ في العالم، وأنْ ليس إلهٌ آخرُ إلّا واحدًا" (١كورنثوس٨: ٤).

ولا يزالُ الإيمانُ المسيحيُّ اليومَ يقومُ بقيام هذا الإيمان بالإله الواحد كُلِّيِّ السلطان والمعرفة والعلم والقدرة والمحبَّة والحضور، أو يسقطُ بسقوطه. وكما كان على المؤمنون الأوائل أن يعبدوا الله الواحد ولا يُشرِكوا به أيَّة آلهة من خشبٍ أو حجرٍ أو من نجوم السماء أو مخلوقات الأرض، فإنّنا لا نزال محتاجين لأنْ نذكِّرَ أنفُسَنا بأنّنا نَعبدُ إلهًا واحدًا ويجب ألّا نُشرِكَ به شيئًا من آلهة العالم المعاصر: لا الفلسفة ولا علم النفس؛ لا الاشتراكيَّة ولا الرأسماليَّة؛ لا الشيوعيَّة الشرقيَّة ولا المادِّيَّة الفَرديَّة الغربيَّة؛ لا العَلمانيَّة المنفَلِتة ولا التَّدَيُّن الشكليُّ السُّلطَوي؛ لا الإيمان بالكفاح المسلَّح ولا الإيمان بالسَّلام السلبيّ (Pacifism)؛ لا التحرُّريَّةُ المتجرِّدة من أيِّ حقٍّ مُطلَق ولا المحافَظة المانِعةُ لأيِّ تفكير؛ لا العُنصُريَّة ولا الفاشيَّة ولا التَعَصُّب بكلِّ صُوَرِه لأيَّة طائفةٍ أو جماعةٍ سياسيَّةٍ أو عِرْقيَّةٍ أو دينيَّةٍ أو روحيَّة، أو من أيِّ لون من الألوان.[١٧]

وَحدانيَّة الله الغَنيَّة

الله واحد، لكنَّه يَحيا منذ الأزل وإلى الأبد في علاقة. قبل أن يخلقَ الإنسان، كان الله- ولا يزال- في علاقة بنفسه. إنَّ وَحدانيَّة الله ليسَتْ وَحدانيَّة مُطلقةً صَمَّاء، بل هي وَحدانيَّةٌ غنيَّةٌ جامِعة تتمتَّعُ بذلك الاتِّزان العجيب ما بين وَحدة الجوهر وتمايز الأدوار في الجوهر الواحد. فالله هو الآبُ والابنُ والرُّوحُ القدس، وهو في الوقت نفسه إلهٌ واحد.

17) S. C. Guthrie Jr. *Christian Doctrine*. Revised Edition (Louisville, Kentucky: Westminster John Knox Press,1994). P. 77.

ليسَتْ عَقيدةُ الثالوثِ مجرَّدَ عقيدةٍ صَعبةِ الفَهْمِ علينا أن نقبَلَها بسبب الدِّين الذي وَجَدْنا أنفُسَنا فيه، بل هي تكشِفُ لنا حقيقةَ أنَّ الله إلهٌ يرتبط بالعلاقات ويعيش هو نفسه في علاقة منذ الأزل قبل أن يخلقَ أيًّا من المخلوقات. ودون هذه العقيدة لا يمكنُ أن نتصوَّرَ أن يَدخُلَ الله في علاقةٍ بنا. فإنْ قُلْنا إنَّ الله يُحِبّ، فقد نتساءل: مَن كان يُحِبُّ قبل أن يخلقَ الملائكةَ والبشر؟ هل تَغيَّرَ الله عندما خلقَ الإنسان؟ حاشا! فالله غَنيٌّ عن البشر ولا يُمكِن أن تتغيَّرَ طبيعتُه. إنَّ الله في حالةِ علاقةٍ أزليَّةٍ أبديَّةٍ قبل أن يخلقَ الإنسان، وهو يُحِبُّ منذ الأزل إلى الأبد. وقبل أن يخلقَ الله الإنسانَ، كان من الأزل يُحِبُّ نفسَه؛ لأنَّه غَنيٌّ في جوهره، ممَّا يجعَلُه مكتفيًا بذاته غَنيًّا عن العالَمين. يَظهَرُ غنى الله هذا في كَونه متعدِّدَ الشخصيَّاتِ في جَوهره الواحد كلِّيِّ الانسجام والتَّناغُم. إنَّه منذ الأزل وإلى الأبد واجبُ الوُجود بذاته، ناطِقٌ بكلمته، حيٌّ بروحِه. هذه الشخصيَّات الثلاثة ليسَتْ مجرَّدَ حالات، بل هي شخصيَّاتٌ حقيقيَّةٌ في جَوهر الله الواحد يمكنُها أن تُحِبَّ بعضُها بعضًا دون صراعٍ أو انقسامٍ بتاتًا.[١٨] وإنْ كان العَقلُ أزليًّا في الله، فالكلمةُ هي كذلك أيضًا. فلا عقلَ دون كلمة، ولا كلمةَ دون عقل. وإنْ كانت "الحياة المستمرَّة" جوهريَّةً في الله على هذا النحو، فلا يمكنُ لله أن يَكونَ دون الرُّوح القدس، تمامًا كما لا يمكنُ أن تكونَ النار نارًا دون نورٍ أو حرارة.

---

١٨) ربَّما ينعكسُ ذلك في الإنسان الذي هو مخلوق على صورة الله. ففي حالات الصدمة النفسيَّة والإيذاء النفسيّ الشديد (Trauma)، نستطيعُ أن نرى تعدُّدَ الشخصيَّاتِ في الإنسان الواحد، وذلك عندما يؤدّي الإيذاء إلى "فصل" هذه الشخصيَّات بعضها عن بعض، فَنَجِد حالاتِ الانشقاق الهستيريّ التي يمكنُ أن تصلَ إلى تعدُّدِ الشخصيَّات. وبصفتي طبيبًا، صادفتُ بعضَ حالاتٍ كهذه، وهي بالفعل شخصيَّاتٌ منفصلةٌ تمامًا لا يجمعُها سوى الجسد. هذه الشخصيَّات بلغة الكمبيوتر هي برامج منفصلة (Software) تشتركُ فقط في جهاز الكمبيوتر (Hardware) الذي هو الجسد. كلُّ شخصيَّة أو "برنامج" يُشغِّل المخَّ، ومن ثَمَّ الجسد، بطريقةٍ مختلفةٍ عن الآخر، لكنَّها جميعًا جَوهرٌ واحد. في الإنسانُ الصحيح، تتصالح "شخصيَّاته" وتتناغمُ معًا لتُحدِثَ ثراءً في الجوهر الإنسانيّ، أمَّا الله فلا يعتَريه انفصالٌ أو انشقاق.

هذا معناه مجيدٌ بالنسبة إلينا وأكبرُ مَدعاةٍ لشعورنا بالأمان في العلاقة بالله. فالأبوَّة والمحبَّة ليسَتْ مجرَّدَ طريقةٍ لتَعامُل الله معنا يمكن أن تتغيَّر إذا "أغضَبْناه". إنَّها جَوهرُه الذي لا يمكنُ أن يتغيَّر. إنَّ الإيمانَ بالإله المحبِّ ذي العلاقات (Loving Relational God) هو مَصدرُ شعورنا بالأمان مع الله، كما أنَّه مصدرُ نجاتنا من الدِّين المبنيِّ على الخوف الدائم من الله.

مُعضلةُ الثَّالوث

إنَّ معضلةَ الثالوث ليسَتْ مجرَّدَ مُعضلةٍ فلسفيَّةٍ أو حسابيَّة في كيفيَّة أن يكونَ الواحدُ ثلاثةً والثلاثةُ واحدًا؛ ولا هي معضلةُ التوحيد والشِّرك، بل هي في واقع الأمر مُعضلةُ التَّنزيه والقدرة على إقامة العلاقة. كيف يكونُ الله مُنَزَّهًا ويَظلُّ إلهَنا الذي يمكنُنا إقامةُ علاقةٍ به؟ هل "ذِكرُ الله" هو مجرَّدُ "تعويذة" نتَّقي بها شرَّ الأيَّام؟ أم أنَّ الله شخصٌ حقيقيٌّ يمكنُ إقامةُ علاقةٍ به؟ هل طاعةُ الله هي مجرَّدُ طاعةٍ لقانونٍ جامد، أم طاعةُ محبَّةٍ لإلهٍ نريدُ أن نحيا معه إلى الأبد؟ هل "الجنَّة" هي مجرَّدُ حُجرةٍ مُترَفة في فندق "خمسة نجوم" أنعَمَ بها علينا هذا الثَّريُّ لنأكلَ ونشربَ ونتمتَّعَ بما لم ترَه عينٌ ولا سمِعَتْ به أذُن، ولا نرى وجهَه البتَّة؟ أم أنَّها مستوًى من العلاقة به، أعلى من المادِّيِّ والمحسوس؟

هذا النوع من الدِّين المرتبط بالعلاقات هو الأكثرُ تأثيرًا في الأخلاق لأنَّه "عِشرة"، والعِشرةُ تُغيِّر الإنسان. فكما أنَّ المعاشَرات الرَّديَّة تُفسِدُ الأخلاقَ الجيِّدة، فالعِشْرة المقدَّسة مع الله تَطبعُ فينا أخلاقَه السَّامية. وأعظمُ ما يؤكِّدُ لنا إمكانيَّة "العِشرة" مع الله هو أنَّ الله نفسَه منذ الأزل، وقبل الخليقة، يعيشُ في حالة "عِشرةٍ" داخليَّة في جوهره الواحد. أمَّا الدِّين المبنيُّ على الخوف

وعلى طقوسٍ وفروضٍ وأفعالٍ نمارسُها اتّقاءً لغَضَبِ الله أو إرضاءً له دون علاقةٍ شخصيَّةٍ به- هو أمرٌ لا يُغيِّرنا. ولعلَّ هذا يفسِّر ما حولنا الآن من تزايُدِ التَّديُّن وتناقُصِ الأخلاق.

الله الآب

الله هو الخالق. إنَّه أصلُ الوُجود والعِلَّةُ الأولى لكلِّ الموجودات. هو لم يكُنْ في الماضي ولا سيَكونُ في المستقبل. إنَّه الكائن في حاضرٍ دائم. هذا هو الاسم الذي قالَه الله لموسى في جبل سيناء عندما ظهر له في العُلَّيقة المتَّقدة بنار دون أن تحترقَ. سألَ موسى الله عن "اسمه" فلم يَقُلِ له اسمًا بل فعلًا! قال الله إنَّه "يَهوه"، وهي كلمةٌ عبريَّة تعني: "الكائن". الله هو الوحيد "الكائن" بذاته غير المحتاج إلى غَيره لكَي يكون. كلُّ المخلوقاتِ تَستَمدُّ وُجودَها منه، وهو لا يستَمدُّ وُجودَه من أحَد. ولِكَون الله فوق المخلوقات والزَّمن وكلِّ شيء، فقد كشفَ لنا العهدُ الجديد هذا الجانبَ من شخصيَّةِ الله مستَخدِمًا تعبيرًا بشريًّا ليُقرِّبَه لنا وهو تعبير "الأَب". فالأبُ هو بدايةُ الأُسرةِ ورأسُها، حتَّى إنَّنا نُطلِقُ على الأب في ثقافتنا لقبَ "ربُّ الأسرة". لذلك اختارَ الله تعبير "**الأب**" للإشارة إلى السموِّ والسِّيادة، وإلى الحبِّ والمسؤوليَّة أيضًا.

الله الابن

الله غير مُرتَبِطٍ بشيء؛ فهو فَوق المادَّةِ والزَّمان والمكان. لذلك فهو مستَعصٍ على الفَهْم البشريِّ المرتَبِطِ بالضَّرورةِ بالزَّمن والأشياء. نحن نعرفُ بالمقارَنة وندركُ الأشياءَ بعلاقتها بغَيرها. فكيف لنا أن ندركَ مَن ليس كَمثله شيء؟ لذلك فحتَّى

يتواصَلَ الله معنا تواصُلًا ذا معنى، اختارَ أن يتَنازَلَ إلينا في حُدودِ الزَّمان والمكان. وقد تَنازَلَ عندما خلقَ أشياءَ ملموسةً ومحدودةً ليُعلنَ بها عن نفسه. وأرادَ الله أن يُعلنَ نفسَه ليس فقط من خلال القُدرة والخَلْق، بل أيضًا من خلال الكلام والتَّواصُل. هنا نرى الجانبَ الثاني من الذاتِ الإلهيَّة: الله المتكلِّم الذي يُعلِنُ عن نفسه. ويُسمِّي العهدُ الجديدُ هذا الجانبَ من الذاتِ الإلهيَّة "الكلمة" أو "اللوغوس"(Logos)، ويَعني "الكلمة العاقلة" أي الكلمة التي تُعبِّرُ عن العقل العامِّ أو المنطق الإلهيِّ الذي يحكُمُ كلَّ الوُجود.

مثلَما لا نستطيعُ أن نعرفَ عقلَ أيِّ إنسانٍ إلَّا عندما يتكلَّم، فنحن لا نستطيعُ أيضًا أن نعرفَ الله المتساميَ إلَّا عندما يتكلَّم. قد لا يُعبِّرُ كلامُ الإنسان عن عقله تمامًا؛ إمَّا لأنَّه يكذب، وإمَّا لأنَّه يعجزُ عن التَّعبيرِ الدَّقيق عمَّا في عقله بالكلام. أمَّا الله فحاشا له أن يكذبَ أو يَعجَز. لذا، فإنَّ كلمةَ الله هي المعبِّرة عن عقله تمامًا. فكلمةُ الله وعقلُه واحد. وعقلُ الله وجوهرُه واحد. لا يوجَدُ في الله كذبٌ أو عجزٌ أو صراع. هذه الأمورُ موجودةٌ فينا نحن البشرَ الفانين. لذلك يكونُ هناك أحيانًا اختلافٌ ما بين كلامنا وأفكارنا. كلمةُ الإنسان، وإنْ كانَتْ تُعبِّر عن الإنسان، فإنَّها ليسَتْ هي بالضَّرورة الإنسان. أمَّا الله فكلمتُه وجوهرُه أمرٌ واحد. وقد ألقى الله هذه الكلمةَ الإلهيَّةَ في رَحِم فتاةٍ عَذراءَ ليتَجسَّدَ عقلُ الله في الزمان والمكان في شخص يسوع المسيح- كلمة الله المتجسِّد بشرًا. هذه هي قمَّةُ تواصُلِ الله مع الإنسان، فلم تَعُدْ كلمةُ الله مجرَّدَ أفكارٍ ينقلُها الأنبياء، بل "صار" الكلمةُ جسدًا وحلَّ بَينَنا بصورةٍ فريدة. فقد دخلَ الدُّنيا ليس كما يدخلُها أيُّ إنسان، وفعلَ فيها ما لم يفعلْه إنسان، وخرجَ منها كما لم يخرجْ أيُّ إنسان.

وكما عبَّر الإنجيلُ عن الله كونَه مَصدرَ الوُجود مستخدمًا تعبيرَ الله الآب، فقد

عبَّرَ أيضًا عن الله بصفته إلهًا قريبًا ومتكلِّمًا باستخدام تعبير الله الابن. في العلاقاتِ الأُسريَّة، الابنُ هو الذي يُعلِنُ عن أبيه ويحملُ اسمَه وشبهَه، فمن رأى الابن كأنَّه رأى الأب. وبذلك يكونُ الابنُ أفضلَ تَصويرٍ للأب، وكلمةُ الله أبلغَ تعبيرٍ عنه. ومن البديهيِّ أنَّنا عندما نقولُ "ابن الله"، فنحن لا نعني البتَّة أنَّ ابنَ الله مَولودٌ من الله ولادةً جسديَّةً مثل ولادة البشر، لكنَّها بُنوَّةٌ روحيَّةٌ مثل بُنوَّةِ الكلمة لقائلها كما اعتدنا أن نطلقَ على الكلمة لقبَ "بنت الشفَة"، أو عندما نقولُ عن كلمات شخصٍ ما إنَّها من بنات أفكاره.

الله الرُّوح القُدُس

ولكي يَظلَّ التَّواصُلُ مستمرًّا، ولا يقتصرُ على مَن عاصَروا السيِّدَ المسيح في الجسد منذ نحو ألفَي سنة، كشفَ لنا الله عن الجانب الثَّالث من ذاته الفريدة. فلم يقفْ تواصُلُ الله مع البشر عند حدِّ التجسُّد بشرًا في الزَّمان والمكان، بل زادَ التَّواصُلَ حميميَّة بأنْ أرسَلَ الله روحَه ليَحتَويَ الإنسان المؤمنِ ويُهيمنَ عليه ويتَّحدَ به بصورةٍ روحيَّةٍ وشخصيَّةٍ إلى الأبد.

بعد أن قامَ السيِّدُ المسيح من الأموات بجسدٍ ممجَّد- ليس مثل جسد الإنسان العاديّ- ظلَّ يَظهَرُ لتَلاميذِه نحوَ أربعين يومًا. وكان يَظهَرُ بَينَهم فجأةً والأبوابُ مغلَّقة، ثُمَّ يختَفي أيضًا فجأة، وكأنَّه يَفطمُهم بالتَّدريج عن حضوره المرئيِّ الملموس والمحسوس، ليُهيِّئهم ويُدرِّبَهم على إدراك حضوره "الرُّوحيِّ" معهم حتَّى وإنْ لم يرَوه بأعيُنِهم. وحتَّى يؤكِّدَ لهم أنَّه سيَستَمرُّ في حضوره الروحيِّ هذا معهم، ومع مَن يؤمنون به بكلامهم، طَوالَ فترة غيابِه عنهم بالجسد وحتَّى مجيئه الثاني.[١٩]

---

١٩) إنجيل متَّى ٢٨: ١٦.

هنا أعلَنَ الله عن الشخصيَّة الثالثة في جَوهَره الواحد، والتي يُسمِّيها العهدُ الجديد "الرُّوح القدس". "الرُّوح" كلمة مشتَقَّةٌ من "الرِّيح". والرِّيح حاضرةٌ دائمًا حَولَنا، ونشعر بها دون أن نراها.[٢٠] وهي أيضًا تدخل في كلِّ إنسان عندما يتنفَّس، وتصيرُ حيَّة فيه، بل تصيرُ مَصدَرَ حياتِه. هكذا الرُّوح القدس- الربُّ الحيُّ والمحيي- يُنشئ فينا الحياةَ الروحيَّةَ الجديدة ويجدِّدُها باستمرار. لذا، فالله الروح القدس هو الذي يكلِّمُنا ويكشِفُ لأذهاننا ويُلهِمُنا. كما أنَّه يُطمْئِنُنا ويَشهَدُ لنا عن حبِّه وقيمَتِنا فيه. وهذا هو محوَرُ الحياة الروحيَّة المسيحيَّة.

الإنسانُ أيضًا جوهرُه علاقة

الإنسانُ ليس فقط مخلوقٌ للعَلاقة، بل لِكَونه مخلوقًا على صورة الله، فهو أيضًا يَعيشُ في علاقةٍ بين كِياناتٍ متعدِّدةٍ داخلَ جَوهرِه الإنسانيِّ الواحد.[٢١] فهناك أوَّلًا شخصيَّةٌ "الطفل". فالطفلُ ليس مجرَّدَ حقبةٍ زمنيَّةٍ مرَّ بها الإنسان في تُطوُّره، بل هو كِيانٌ يستمرُّ في الإنسان طَوالَ عُمرِه. الطفلُ هو الكِيانُ التلقائيُّ القادرُ على الحبِّ واللعب والاستمتاع، وهو الكِيانُ الذي يحسُّ المشاعرَ والاحتياجات ويعبِّر عنها بِبَساطة. هو الكِيانُ المبدع والمبتَكِر، والكِيانُ البسيطُ التلقائيُّ القادرُ على الإيمان والثقة دونما الحاجة دائمًا إلى إثبات. يكونُ هذا الكِيانُ في الصدارة في مرحلة الطفولة، لكنَّه يَظَلُّ فينا طَوالَ العُمر وينشَط في مواقفِ اللَّهو والاستمتاع وفي أثناء الإحساس بالعجز واختبار المشاعر القويَّة، كما ينشطُ أيضًا في حالات الإبداع وحالات الإيمان والرُّوحانيَّة.

---

٢٠) إنجيل يوحنَّا ٣: ٨.

21) Eric Berne, *Games People Play. The Basic Handbook of Transactional Analysis.* (N. Y. : Ballantine-books, 1969).

ثمَّ يأتي دَورُ "الرَّاشد"، وهو الكِيانُ الذي يستطيعُ أن يُدركَ الواقع ويتعامَلُ معه ضابطًا للتَّوازُنات الصعبة في الحياة. يوازنُ ما بين اللَّعب والعمل، والأخذ والعطاء، والصمت والكلام وغيرها من توازنات الحياة والعلاقات. يَظَلُّ الراشدُ كامنًا في الطفل حتَّى يأتي العمرُ المناسِبُ ليَظهَر، مثلَما يكونُ جنينُ الشجرة كامنًا في الحَّبة الصغيرة، ولكنَّه يَظهرُ عندما تُزرعُ الحبَّة في الأرض وتنمو.

ثمَّ عندما يصلُ الراشدُ إلى مرحلة الرشد المتوسِّط (٤٠-٦٠ سنة)، تبدأ شخصيَّةٌ ثالثةٌ في التأصُّل وهي شخصيَّة "الوالد" الذي يميلُ إلى العطاء أكثر من الأخذ، ويشعرُ بسعادةٍ في التَّضحِية بكلِّ شيءٍ من أجل أولاده وبناته. ليس فقط أولئك الذين أنجبَهم من صُلْبه، بل هو يشعر أيضًا بالرَّغبة في العطاء والرعاية للجيل الأصغر عمومًا.

لا يؤدِّي ظُهورُ شخصيَّة الرَّاشد إلى اختفاء شخصيَّةِ الطِّفل، ولا تمحو شخصيَّةُ الوالد شخصيَّةَ كلٍّ من الطفل والرَّاشد، بل يَظَلُّ الثلاثةُ معًا ثلاثَ شخصيَّاتٍ لجوهَرٍ واحد كما يلعبُ ممثِّلٌ واحدٌ في مسرحيَّة "مونودراما"[٢٢] ثلاثةَ أدوارٍ في المسرحيَّة بينما هو في جَوهَره ممثِّلٌ واحدٌ عندما يأتي المشهدُ الخاصُّ بإحدى الشخصيَّات، فإنَّها تخرجُ إلى خشبة المسرح، بينما تَظَلُّ الشخصيَّتان الأُخريان كامنتَين فيه في الوقت ذاته، وكأنَّهما في كواليس المسرح مستَعدَّتَين للخُروج عندما يأتي المشهدُ الخاصُّ بكلِّ شخصيَّة. مع كلِّ هذا، يَظَلُّ الممثِّلُ شخصًا واحدًا له جَوهَرٌ واحد.

تخيَّلْ معي مثلًا مجموعةً من الرِّجال الراشدين يلعَبون كرةَالقدم أو حتَّى

٢٢) المونودراما هي مسرحيَّة الممثِّل الواحد الذي يقومُ بكلِّ الأدوار.

يشاهدون مباراةً في كرة القدم. في الحال ينتَقِلون جميعًا إلى شخصيَّة الطفل. مهما كانت أعمارُهم وشخصيَّاتُهم ومناصبُهم ومسؤوليَّاتُهم، فإنَّ كلَّ هذا يذهَبُ إلى الخلفيَّة ويظهَرُ الطِّفل في المقدِّمة. كلُّ ما يفكِّرون فيه هو كيفَ تدخلُ الكرةُ المرمى. وفجأةً، يتذكَّرُ واحدٌ منهم أنَّ ساعةَ العمل قد حانت، فَيُعيدُ بسرعةٍ الطفلَ إلى خلفيَّة وَعيِه، ويَظهَرُ الرَّاشد في المقدِّمة ويبدأ في التفكير في الخروج من المباراة للذَّهاب إلى عمله. يحدُثُ ذلك دون أن يُنكِرَ الطفلَ الذي فيه، وحقَّه في اللَّعب، ولكنَّه يؤجِّل هذا إلى وقتٍ لاحق. ربَّما قبل أن يذهَبَ هذا الرجلُ إلى عمله، يُصابُ أحَدُ اللَّاعبين. في تلك اللَّحظة، تَصيرُ المباراةُ ونَتيجتُها، بل أيضًا العملُ ومسؤوليَّاته أمورًا أقلَّ أهمِّيَّة، فالأهمُّ هنا هو رعايةُ المصابِ حتَّى يُشفى. هذه هي شخصيَّةُ الوالد التي تحتلُّ الصَّدارةَ في هذا الموقف، وتُرسلُ شخصيَّةَ الطِّفل والراشد إلى الخلفيَّة.

في الإنسان الذي يتمتَّعُ بصحةٍ نفسيَّةٍ وعلاقةٍ جيِّدة بنفسه، تَظَلُّ شخصيَّاتُ الطِّفل والرَّاشد والوالد تَعمَلُ معًا بسهولةٍ وانسجام. فالإنسانُ قبل أن يكونَ في علاقةِ سلامٍ خارجيَّةٍ بالبشر الآخرين، يجبُ أن يكونَ أوَّلًا في علاقةِ سلامٍ داخليٍّ بنفسه، وهو في ذلك شبيهٌ باللهِ الذي قَبْلَ أن يخلقَ الإنسانَ بالحبّ، عاشَ- ويعيشُ إلى الأبد- في حالةِ حبٍّ داخليَّةٍ مع نفسه.

الله يعرِّفُنا إلى نفسِه أيضًا من خلال العلاقة

لقد اختارَ الله أن يُعلنَ عن نفسه لنا من خلال الحبِّ والعلاقة، وليس عبر القوَّة والعمل. فيقول القدِّيس أثناسيوس الرَّسوليُّ مقولتَه المشهورة: "هو أمرٌ أكثرَ تَقوى أن نتعرَّفَ إلى الله من خلال الابن وندعوه «الآب»، من أن نتعرَّفَ إليه عبر أعماله

فقط وندعوه «غير المخلوق»".[٢٣] وإنْ كُنَّا نتكلَّمُ بشأن العلاقة الداخليَّة التي لله بنفسه، والعلاقة الداخليَّة التي للإنسان أيضًا، فإنَّ الله من خلال التجسُّد، يَدعونا للاشتراك في علاقته بنفسه. أي أنَّه يَدعونا إلى الدُّخول في الشركة التي بين الآب والابن والرُّوح القدس ليَكونَ فرحُنا كاملًا.[٢٤] ويقول توماس أف. توارنس في كتابه "**الإيمان بالثالوث**"[٢٥]:

"فتحَ تجسُّدُ الابن الطريقَ إلى معرفةِ الله وفقًا لما هو في ذاته. ففي التجسُّد، أخذَ ابنُ الله طبيعتَنا البشريَّة لنَفسِه وجعلَها خاصَّةً به تمامًا حتَّى إنَّه جاء بيننا بصفةِ «إنسان». وبواسطة وجوده بيننا بصفة «إنسان» كشفَ لنا عن نفسه بصفته «إلهًا». بمعنًى آخر، فهو- دون أن يتخلَّى عن طبيعته الإلهيَّة- اتَّحدَ بنا في طبيعتنا البشريَّة بشكلٍ كامل".

هكذا نرى أن الله علاقة، والإنسان علاقة، ومعرفة الله بالإنسان هي أيضًا علاقة. ليسَتْ نقلَ أفكارٍ أو إبهارًا بالقوَّة، بل هي علاقةُ مشاركةٍ فعَّالة، اشتركَ فيها الله في إنسانيَّتنا لكي يشركَنا في الطبيعة الإلهيَّة، ويُدخلَنا في عُمْق العلاقة ما بين الآب والابن والرُّوح القدس. أيْ إلى عُمقِ علاقته بنفسه. كما يقول الكتاب المقدَّس في يوحنَّا ١٧: ٢٠- ٢٦:

"ولستُ أسألُ من أجل هَؤُلاء فقط، بل أيضًا من أجل الذين يُؤمنون بي بكلامهم، ليكُونَ الجميعُ واحدًا، كما أنَّك أنتَ أيُّها الآبُ فيَّ وأنا

---

٢٣) توماس ف. توارنس الإيمان بالثالوث. الفكر اللاهوتيُّ الكتابيُّ للكنيسة الجامعة في القرون الأولى. ترجمة د. عماد موريس (القاهرة: مكتبة باناريون، ٢٠٠٧) ص. ٦٨.

٢٤) ١يوحنَّا ١: ٣-٤.

٢٥) المرجع السابق نفسه ص. ٧٧.

فيك، ليكونوا هُم أيضًا واحدًا فينا، ليُؤمنَ العالم أنَّك أرسلتَني. وأنا قد أعطيتُهُم المجدَ الذي أعطَيتَني، ليكونُوا واحدًا كما أنَّنا نحنُ واحد... وعرَّفتُهُم اسمَكَ وسأُعرِّفُهم، ليكُونَ فيهم الحبُّ الذي أحبَبتَني به، وأكون أنا فيهم".

لذلك يمكنُنا القَول: إنْ كانَتْ طبيعةُ الله، الذي هو واجبُ الوُجود، هي المحبَّة، فمحبَّتُه لا بدَّ أن تكونَ أيضًا واجبةَ الوُجود، أي لا يمكنُ أن تكونَ مشروطةً بشيء. وفي الفصل التالي سنتوقَّفُ عند تجلِّياتِ هذه المحبَّة غير المشروطة في تلامُسِها مع وُجودنا البشريّ.

الفصل ٣

محبَّةُ الله

كما أنَّ الله خلقَ من العدم،
هو يحبُّ بلا شروط

تكلَّمْنا في الفصل السابق بحقيقة أنَّ **الله محبَّة**، أمَّا في هذا الفصل فسنتكلَّمُ بشأن **محبَّة الله**. إنْ كان وُجودُ الله غير مشروط، فمحبَّتُه أيضًا غير مشروطة وغير مرتَبِطةٍ بأيِّ استحقاقٍ في المحبوب. وكما خلقَ الله الكَونَ من العدم وأمدَّ كلَّ الموجودات بطاقةِ الوُجودِ النابعةِ منه، فهو أيضًا يحبُّنا نحن غير القادرين على الحبِّ، وبحبِّه يجعَلُنا نَستَطيعُ أن نُحِبّ.

ويبسِّط الرَّسولُ يوحنَّا هذه الحقيقةَ أمامنا في فِقرةٍ من أجمل ما كُتِبَ عن محبَّة الله في العهد الجديد:

"أيُّها الأحبَّاء، لنُحِبَّ بعضُنا بعضًا، لأنَّ المحبَّة هي من الله، وكلُّ مَن يُحبُّ فقَدْ وُلِدَ من الله ويعرفُ الله. ومَن لا يُحِبُّ لم يعرف الله، لأنَّ

الله محبَّة. بهذا أُظهِرَتْ محبَّةُ الله فينا: أنَّ الله قد أرسَلَ ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به. في هذا هي المحبَّة: ليس أنَّنا نحنُ أحبَبْنا الله، بل أنَّه هو أحبَّنا، وأرسلَ ابنَه كفَّارةً لخطايانا".

(١يوحنَّا ٤: ٧-١٠)

المحبَّة هي من الله. وقد أُظهِرَت محبَّةُ الله هذه في أنَّ الله كان دائمًا مُبادِرًا معنا. فهو بادَرَ بخَلْقِنا على صورته أشخاصًا ذوي حرِّيَّة وإرادة ولسنا محكومين بقوانين الطبيعة مثل الجماد، ولا بالغرائز كالحيوانات. ثُمَّ بادَرَ أيضًا وتَنازَلَ لنا حتَّى تجسَّدَ كلمةُ الله الأزليِّ بشرًا مِثْلَنا، ثُمَّ تنازَلَ أكثرَ وقدَّمَ لنا حياتَه بالموتِ والقيامة لنُشاركَه في نوع حياتِه الأبديَّة ذاته. كما أنَّه كان في الصَّليبِ يُميتُ بمَوته مَوتَنا، ويكفِّرُ عنَّا لكي تكونَ رحمتُه متوائمةً تمامًا مع عدالَتِه وهو يَغفرُ لنا خطايانا. وهنا يتَّضحُ التَّبايُنُ الهائلُ ما بين الحقِّ المسيحيِّ وما هو شائع في كلِّ الديانات. فبَينَما تدفعُ كلُّ الديانات الإنسانَ ليُكفِّرَ عن خطاياه بنفسه، يعلنُ الإنجيلُ أنَّ الخالقَ المحِبَّ هو الذي يقدِّمُ الكفَّارة عن الإنسان مُقدِّرًا عجزَه، ولكي تكون الكفَّارةُ أيضًا كافيةً لمطالبِ قَداسَة الله، فمن المنطقيِّ ألَّا يستطيع المخلوقُ المحدودُ أن يَفِيَ مَطالبَ عدالة الله غير المحدود. كلُّ ما عَلَينا هو أن نفهَمَ هذا ونُصدِّقَه، ونؤمنَ به ونتجاوَبَ معَه. هذا الإيمانُ والتَّجاوُبُ هو الذي يجعَلُنا نحظى بهذه الأبُوَّة ونحيا بها. عندما نتجاوَبُ مع الله ونُطيعُه، فليس هذا هو ما يجعَلُ الله يُحبُّنا، بل يجعَلُنا نحن "نَدخُل" في هذه المحبَّةِ ونحيا فيها ومن خلالها.

الأبوَّة والأمومة

أقربُ مثلٍ بشريٍّ على محبَّةِ الله غير المشروطة هي محبَّةُ الأمِّ والأبِ السَّويَّين روحيًّا ونفسيًّا لوَليدِهما. فما هذا الجَهد المبذول بلا كَلَلٍ من أجل راحته؟ وما

هذا الإسراعُ الدائمُ لالْتِماسِ الأعذار له عندما يخطئ مصحوبًا بشوقٍ هائلٍ لمنحه الغفران؟ ليس لهذا من تفسيرٍ إلَّا أنَّ الأمومةَ والأُبوَّة هما انعكاسٌ في عالم المنظور لأُبوَّة الله غير المنظور، وتأكيدٌ ملموسٌ على وُجود حبٍّ غير مشروطٍ على نحوٍ مُطلَق؛ فهُما يُبادِران بقرارِ الإنجاب، ويُحِبَّان وَليدَهما الذي ينجبانه لا لشيءٍ فيه أو لأيِّ أمرٍ يفعلُه يستحقُّ المحبَّة. إذ لَيسَ لدى الطِّفل الرَّضيع أيُّ شيءٍ يُقدِّمُه: فهو لا يستَطيعُ أن يُطعِمَ نفسَه أو يَسقِيَها، ولا يستطيعُ أيضًا أن يتحرَّك من مكانٍ إلى آخر أو أن ينظِّفَ نفسَه، كما أنَّه لا يَقدرُ حتَّى أن يعبِّرَ عمَّا يشعرُ به أو يحتاجُ إليه. لذا فهو مُعتَمِدٌ تمامًا على الآخرين ليُقدِّموا إليه كلَّ ما يحتاجُ إليه، بل أيضًا عليهم أن يستَنتِجوا من صراخِه ماذا يُريدُ وبماذا يشعر. لذا، هو يحتاجُ لأنْ يحبَّه الآخرون ويقبَلوه دون أن يفعلَ أيَّ شيءٍ لهم، لأنَّه لا يستطيع فعلَ أيِّ شيء. في هذه الحالة من العجز الكامل، يكونُ الحبُّ الذي يحصُلُ عليه الطفلُ هو حبٌّ له في ذاته، وليس لأيِّ شيءٍ يفعَلُه. وقد وضعَ الله هذه المحبَّة في غريزة الإنسان، وهي انعكاسٌ بشريٌّ لمحبَّة الله غير المشروطة. وبالتَّأكيد، يُشوِّهُ فسادُ الإنسان الكثيرَ من هذه الصورة لكنَّها تبقى حاضرةً على أيَّة حال. ويستخدمُ السيِّدُ المسيح نموذجَ الأب والأطفال أكثرَ من مرَّةٍ وهو يُشيرُ إلى نَوعيَّةِ محبَّةِ الله لنا نحن البشر.[٢٦]

أبوَّة الله

يظلُّ هذا الطفلُ الرَّضيعُ المحتاجُ إلى المحبَّة والاحتواء والحماية قابعًا فينا؛ لأنَّ إحساسَنا بضَعْفِنا وعَجْزِنا يَظلُّ مَوجودًا، مهما كانت قوَّتُنا الخارجيَّة. نحن نعرفُ أنَّ حياتَنا المستقرَّة يمكنُ أن تنقَلِبَ رأسًا على عَقب في لحظةٍ واحدة. وقد تنهارُ في

٢٦) لوقا ١١: ٢،١٣.

غمضةِ عينٍ قوَّتُنا الجسديَّة من جرَّاء مرضٍ عُضالٍ يُقعِدُنا بعدَ أن كُنَّا نملأ الدُّنيا نشاطًا وضجيجًا، ويمكنُ لحادثٍ مفاجئ أن يُنهِيَ حياتَنا أو حياةَ من نُحِبُّ دون سابقِ إنذار. نحن نعلَمُ في أعماقنا أنَّ وُجودَنا البشريَّ هو أمرٌ غايةٌ في الهشاشة، والواقع من حولنا يذكِّرُنا كلَّ يَومٍ بهذه الحقيقة.

من المشاهِد التراجيديَّة لهذه الحقيقة هو أحَدُ الڤيديوهات على الإنترنت لأحَد الزُّعماء العرب الذي كان يتربَّعُ على عرش السُّلطة، وكان يتكلَّمُ بكلِّ قوَّةٍ وسَطْوة وشعورٍ بالأهمِّيَّة، كما لو كان ملكَ الكَون. وبعد عدَّة أسابيع، يَظهَرُ ڤيديو آخر له عندما وقعَ في أيدي الثوَّار، وراحَ يستَعطِفُهم ألَّا يَقتُلوه، وكان يُذكِّرُهم أنَّه رجلٌ مُسنٌّ مثل أبٍ لهم، بعد أن كان يشبِّهُهم بالجرذان!

يعرفُ الله احتياجَنا الوُجوديَّ العميقَ إلى الأُبوَّة والأمومة الروحيَّة اللَّتَين يقدِّمُهما الله إلينا كما تقدِّمُ الأمُّ إلى رضيعها، والأبُ إلى فَطيمه. هذا النَّوعُ من المحبَّة هو ما يدعَمُنا لمواجَهة كلِّ ما تأتي به الحياة من مفاجآت. ولأنَّ الله يعرفُ هذا فهو عندما يتكلَّم بشأن محبَّته لنا يُطمئِنُنا أنَّ هذه المحبَّةَ أبديَّةٌ وغير مشروطة، ولا يمكنُ أن تتأثَّرَ بشيءٍ فينا أو في العالم من حولنا. ويُعبِّرُ الفعل اليونانيُّ "أغاپي"[٢٧] (Agape) عن هذا النَّوع من المحبَّة. ولم يكُنْ هذا الفعلُ اليونانيُّ القديم مُستخدَمًا كثيرًا قبل ظُهورِ المسيحيَّة، إلَّا في بعض كتابات أفلاطون الذي استخدمَه للإشارة إلى محبَّة الأزواج والآباء والأبناء. لكنَّ الكُتَّابَ المسيحيِّين الأوائل وَجَدوا أنَّ هذا الفعل في اللغة اليونانيَّة هو أفضلُ فعلٍ يونانيٍّ يُمكن أن يكونَ مُقابلًا للكَلِمة العبريَّة "حِسِد" المترجَمة "رحمة"

٢٧) توجد في اللغة اليونانيَّة خمسة أفعال تعبِّر عن الحبّ هي: حبُّ الصداقة (Philio)، وحبُّ العِشْرة (Storge)، والحبُّ الرومانسيُّ (Eros) والحبُّ الجنسيُّ (Epithumia) ، وأخيرًا الحبُّ الإراديُّ غير المشروط (Agape).

أو "أمانة" في العهد القديم، وهي تشيرُ إلى محبَّة الله للإنسان التي لا تنتظرُ من الإنسانِ مُقابلًا ولا استحقاقًا.

من أهداف مجيء السيِّد المسيح إلى عالمنا هي أن يُخبرَنا بحقيقةِ أُبوَّة الله ومحبَّته غير المشروطة. ولعلَّ أعظمَ تَعليم عن حقيقة هذه الأبوَّة هو ما جاء على لسانه في المثل الذي أسمَتْه الكنيسةُ "مثل الابن الضَّالّ"، بينما كان ينبغي أن يُسمَّى مثل "الأب المحبّ". قال السيِّدُ المسيحُ هذا المثل ليَرُدَّ على اتِّهام قادةِ الدِّين اليهود له أنَّه يُحبُّ الخُطاة الذين لا يستَحقُّون الحبَّ، وأنَّه يُخالِطُهم ويجلسُ ويأكل معهم. كان هؤلاء القادة يحسبون أنَّ مثل هذه المحبَّة للخطاة هي نوعٌ من التَّساهُل مع الخطيَّة. ويَظلُّ "المتديِّنون" دائمًا يَرَون أنَّ قبولَ العاصي ومحبَّته هما نَوعٌ من التَّساهُلِ مع المعاصي.

يقولُ المثل:

"**إنسانٌ** كان له ابنان. فقال أصغرُهما لأبيه: يا أبي، أعطِني القِسمَ الذي يُصيبني من المال. فقَسَمَ **لهما** معيشته. وبعد أيَّام ليست بكثيرة، جمعَ الابنُ الأصغر كلَّ شيء، وسافر إلى كورة بعيدة، وهناك بذَّر ماله بعيشٍ مُسرِف. فلمَّا أنفَقَ كلَّ شيء، حدثَ جوعٌ شديدٌ في تلك الكورة، فابتدأ يحتاج. فمضى والتصقَ بواحدٍ من أهل تلك الكورة، فأرسلَه إلى حقوله ليرعى خنازير. وكان يشتَهي أن يملأ بطنَه من الخُرنوب الذي كان الخنازيرُ تأكلُه، فلم يُعطِه أحَد. **فرجع إلى نفسه** وقال: كم من أجيرٍ لأبي يفضل عنه الخُبز، وأنا أهلِكُ جوعًا! أقومُ وأذهبُ إلى أبي وأقول له: يا أبي، أخطأتُ إلى السماء وقُدَّامَك، ولستُ مُستحقًّا بعدُ أن أُدعى لك

ابنًا؛ اِجعَلني كأحد أجْراك. فقام وجاء إلى أبيه. **وإذ كان لم يَزَل بعيدًا** رآه أبوه، فتَحنَّن وركضَ ووقعَ على عُنُقه وقبَّله. فقالَ له الابن: يا أبي، أخطأتُ إلى السَّماء وقُدَّامك، ولستُ مُستحقًّا بعدُ أن أُدعى لك ابنًا! فقال الأب لعبيده: أخرِجوا الحُلَّة الأُولى وألبِسوه، واجعلوا خاتَمًا في يده، وحذاءً في رِجلَيه. وقدِّموا العِجل المُسمَّن واذبحوه، فنأكُلَ ونفرح: **لأنَّ ابني هذا كان ميِّتًا فعاش، وكان ضالًّا فوُجِد!** فابتدأوا يَفرَحون. وكان ابنُه الأكبر في الحقل. فلمَّا جاء وقرُبَ من البيت، سمع صوتَ آلاتِ طَرَب ورقصًا. فدَعا واحدًا من الغِلمان وسأله: ما عسى أن يكون هذا؟ فقال له: أخوك جاء، فذبحَ أبوك العِجلَ المُسمَّن، لأنَّه قَبِلَه سالمًا. فغضِبَ ولم يُرِد أن يدخُل. فخرج أبوه يطلب إليه. فأجاب وقال لأبيه: ها أنا أخدمُكَ سنين هذا عددُها، وقَطُّ لم أتجاوَزْ وصيَّتك؛ وجَديًا لم تُعطِني قطُّ لأفرح مع أصدِقائي. ولكنْ لمَّا جاء ابنُكَ هذا الذي أكلَ معيشتَك مع الزَّواني، ذبحتَ له العِجلَ المُسمَّن! فقال له: يا بُنَيَّ، أنتَ معي في كلِّ حين، وكلُّ ما لي فهو لك. ولكنْ كان ينبغي أن نفرَحَ ونُسَرَّ، **لأنَّ أخاك هذا كان ميِّتًا فعاش، وكان ضالًّا فوُجِد!**".

إنَّ الأبَ في هذا المثل هو أبٌ في ثقافة فِلَسطين القرويَّة منذ ألفَي عام. ما سماتُ شخصيَّةِ هذا الرَّجُل، كما يظهَرُ من سَرْدِ المثل؟ أوَّلًا، هو رجلٌ عادل؛ فعندما طلبَ الابنُ الأصغرُ ميراثه، أعطى للأصغر والأكبر معًا كلَّ مَعيشَتِه، وهذا على عكسِ الأعرافِ المتَّبعة في ذلك الوقت. هو أيضًا غير متسلِّط ويُعطي ولدَيه الحرِّيَّةَ كاملةً ليَفْعَلا ما يشاءان. حتَّى الابنُ الأكبر أعطاه نصيبَه لئلَّا يبقى في البيت انتظارًا للميراث (فقَسَمَ لهما معيشته). ثُمَّ بعدَ أن وقعَ الابنُ الضَّالُّ في مشكلاتٍ

في مكانِ إقامته الجديد، يَصِفُ السيِّدُ المسيح "لقطةً دراميَّة" له وهو في الكُورة البعيدة، حيث نراه يرجعُ إلى نفسه، ويُدركُ حقيقةَ أنَّ العَودةَ إلى البيت والعملَ أجيرًا في بيتِ أبيه أفضَلُ من البَقاءِ في المكانِ الذي هو فيه.

ثمَّ يتحوَّلُ المشهَدُ إلى الابن الأصغر عائدًا والأبُ ينتظرُه وهو لا يَزالُ بعيدًا. يجبُ أن نتذكَّرَ أنَّ الأبَ لا يعرفُ سببَ عَودةِ الابن؛ لأنَّه مُجَرَّدَ إنسانٍ كما يَردُ في أوَّل المثل. عندما يركضُ الأب نحو ابنه ويقَعُ على عنقه ويقبِّله، فإنَّنا نفترضُ- لأننا اعتَدْنا أن نفهَمَ أنَّ المثلَ يشيرُ إلى أبوَّة الله- أنَّ ذلك الأبَ كلِّيُّ العِلم فهو يركضُ لملاقاة ابنه لأنَّه يعرفُ أنَّه جاءَ تائبًا نادمًا، بينما الحقيقةُ هي أنَّه، بصفته إنسانًا، لا يعرفُ إنْ كانَ الولدُ عادَ تائبًا أم عاد ليطلُبَ مالًا إضافيًّا يعودُ به من حيثُ أتى.

وعندما يقولُ الأبُ العبارةَ المشهورة: "ابني هذا كان ميِّتًا فعاش، وكان ضالًّا فَوُجِد"، فقد نقرأ هذه العبارةَ بخلفيَّتنا الكتابيَّة، متذكِّرين فَورًا أفسس ٢: ١ مفترضين أنَّه يقصدُ أنَّ ابنَه كان "ميِّتًا بالذُّنوب والخطايا" وأنَّه عاشَ، أي تاب، وأنَّ كلمةَ "ضالّ" تَعني الضَّلالَ الرُّوحيّ. لكنَّنا إنْ عُدْنا وأدركْنا أنَّ هذا الرجلَ ليس الله بل مجرَّدُ إنسان، فسنُدرك أيضًا أنَّه لم يكُنْ يعلمُ إنْ كان ابنَه لا يزالُ حيًّا أم ميِّتًا. فالمفقودُ لفترةٍ طويلة يُعدُّ ميِّتًا، وهذا هو المقصود بعبارةِ "ميِّتًا فعاش" فكأنَّ الأب يقول: "بعد أن غابَ كلَّ هذه المدَّة الطويلة، حسبتُه في عداد الأموات، ولكنْ ظهرَ الآن فجأةً أنَّه حيّ، فكأنَّه قامَ من الموت. وكان ضالًّا تائهًا بعيدًا عنِّي فوَجدتُه. وكأيِّ أبٍ يحبُّ ابنَه، كلُّ ما يعنيه الآن هو أنَّ ابنَه حَيّ. وكلُّ ما يَراه الآن هو أنَّ عليه أن يفرحَ ويُسرَّ لأنَّ ابنَه حَيّ. لهذا السبب حسبَ الأبُ أيَّ كلامٍ عنِ التَّوبة والخطيَّة والندم أمرًا غايةً في السُّخف. فلَم يَدَع ابنَه يُكمل حديثَه الذي أعدَّه في الكورة

البعيدة، ولم يَرُدَّ على كلامه بتاتًا، وبدلًا من ذلك وجَّه حديثَه إلى العبيد والخدَم ليُعدُّوا أمورَ الاحتفال.

عندما نضعُ الله مكانَ الإنسان مبكِّرًا عند قراءة المثل؛ ونفترضُ أنَّه يعرفُ أنَّ ابنَه كان يعيشُ في الذُّنوب بعيدًا وأنَّه عادَ تائبًا، فإنَّ هذا يؤثِّر في وَعينا، ويجعلُنا نفترضُ أنَّ الله فقط يحبُّ التائبين المتطهِّرين. غير أنَّ الله يحبُّ الجميعَ حتَّى غير التائبين. فلأنَّه أبٌ، ما يُهمُّه هو أولاده وليس ما يفعلونَه. وفي الواقع، اهتمامُه بما نفعلُ وكراهِيَته للخطيَّة ومحبَّته للبرِّ ليستْ نابعةً من موقفٍ مُجرَّد بقَدر ما هي نابعة من محبَّته لنا.

يقول فيليپ يانسي في كتابه "ما أعجبَ النعمة"[٢٨] هذه العبارة المأثورة: "لا يوجَد شيءٌ في إمكاننا عمله لنجعلَ الله يحبُّنا أكثر... لا يوجد شيء في إمكاننا عملُه لنجعلَ الله يحبُّنا أقلّ". إنَّ محبَّةَ الله غير مشروطة تمامًا بأيِّ شيءٍ ولا بالتَّوبة. التائبون فقط هم مَن "يتمتَّعون" بهذه المحبَّة؛ لأنَّهم يدركونها ويأتون في طَلبِها فيأخذونها، بينما لا يتمتَّعُ غيرُ التائبين لا لأنَّها غير موجودة، بل لأنَّهم هم غير مَوجودين بالنِّسبة إليها. التوبةُ ببساطةٍ هي العَودة إلى البيت، والالتفات إلى الله، وتصديق محبَّته.

الأبُ والابنُ الأكبر

وعندما نقارنُ ما بين مَوقفِ الأب ومَوقفِ الابن الأكبر من عودة الابن الأصغر، نرى أنَّ الأبَ يتكلَّمُ بشأن الأشخاص والعلاقات فيقول: "**ابني** هذا كانَ ميِّتًا فَعاشَ وكانَ ضالًّا فَوُجِد". ويقول أيضًا: "**يا بُنَيَّ** أنتَ مَعي في كلِّ حينٍ وكلُّ ما لي فهو لَك". ثمَّ يقولُ لابنه الأكبر: "**لأنَّ أخاكَ** هذا كانَ ميِّتًا فَعاشَ وكانَ ضالًّا

٢٨) فيليپ يانسي، ما أعجب النعمة، (دار منهل الحياة، بيروت- ٢٠٠٩م)، ص. ٨٤.

فوُجِد". أمَّا الابنُ الأكبرُ فكان يتكلَّم بشأن الأفعال والاستحقاقات فيَقول: "أنا **أَخدِمُك** سِنينَ هذا عَدَدُها وقطُّ **لَم أَتَجاوَزْ** وَصيَّتك، وَجَدْيًا **لم تُعْطِني** قطُّ **لأَفْرحَ** مع أصدقائي". ثمَّ يقول: "ابنُكَ هذا الَّذي **أَكلَ** مَعيشتَكَ مع الزَّواني [لم يَقُلْ أخي، بل قال: ابنك] **ذبَحْتَ** له العجلَ المسمَّن". وهذا هو الفرقُ الذي كان يريدُ يسوعُ أن يُظهِرَه بين مَوقفِ الله من الخطاة، ومَوقفِ الكَتَبة والفَرِّيسيِّين الذين يَظنُّون أنَّهم بنَبذِ الخُطاة يحترمون الله. هذا عمومًا هو الفرقُ ما بين الله والإنسان. الله ينظرُ إلى الأشخاص، أمَّا الإنسانُ فعادةً ما ينظرُ إلى الأفعال. عند الله أنتَ هو المهمّ، وليسَتْ أفعالك. وإنْ كان الله يهتمُّ بأفعالنا، فهذا نابعٌ من اهتمامه بنا وليس بالأفعال في حدِّ ذاتها؛ لأنَّ الأفعالَ، كما رأينا في المثل، تؤثِّر كثيرًا فينا.

الفَعَلةُ في الكَرْم

ويؤكِّد السيِّدُ المسيح على هذا الفكر نفسه من خلال مَثَلٍ آخرَ هو مَثَلُ الفَعَلة في الكَرْم.[٢٩]

عندما ننظرُ من مَنظورِ الفَعَلة الأوَّلين الذي عَمِلوا اليومَ كلَّه، فسنَجِدُ أنَّ لديهم وجهةَ نظرٍ تُحترَم، وهي تَستَنِدُ إلى مبدأ العَدالة. فمَن عَمِلَ يومًا كاملًا يستحقُّ أجرًا أعلى ممَّنْ عملَ وقتاً أقلّ. لكنَّنا عندما نقفُ مكانَ صاحبِ الكَرْم ونحاولُ أن نرى الأمرَ من منظوره، فسنَجِدُ أنَّ لديه أيضًا وجهةَ نَظَرٍ تُحترَم أكثر، وهي مبنيَّةٌ على عدَّة نقاطٍ مهمَّة: أوَّلًا، بالنِّسبة إلى العمَّالِ الأوَّلين، عليهم أن يحترموا الاتِّفاق. لقدِ احترمَ صاحبُ الكرم اتِّفاقَه مع العاملين وأعطاهم ما اتُّفقَ عليه، وعليهم هم أيضًا أن يحترموا الحرِّيَّةَ والحدودَ الشخصيَّة؛ فليس من حقِّهم أن ينظروا إلى ما يُعطيه

٢٩) متّى ٢٠: ١-١٦.

إلى غَيرهم ممَّن عَملوا وقتًا أقلّ. ثانيًا، بالنِّسبة إلى العمَّال الآخَرين، فَهُم أوَّلًا لم يُستَدعوا إلى العمل من الصباح الباكر، وهذا ليس ذَنبَهم.

النقطةُ الثالثة، والأهمّ، فهي أنَّ صاحِبَ الكَرْم ينظرُ ليس فقط إلى العمل والإنتاج، بل راعَى أيضًا البُعدَ الاجتماعيَّ والحدَّ الأدنى للأجور، ونظرَ من منظورِ الإنسان. فالذي عَمِلَ اليومَ كلَّه سيَعودُ إلى بَيته في الغُروب ليَجدَ زوجةً وأطفالًا يحتاجون إلى دينارٍ لكي يتعشَّوا، والذي عَمِلَ ساعةً واحدة سيَعودُ إلى بَيته لِيَجِدَ أيضًا أُسرةً تحتاجُ إلى الشيء نفسه، ولن يتحدَّدَ مدى جوع أطفاله بساعاتِ العمل التي عملها. الفارق بين صاحب العمل والفَعَلة الأوَّلين هو المنظور: هم نَظَروا إلى العمل والاستحقاق، بينما نظرَ هو إلى الاحتياج.

الفصل ٤

القوَّةُ والمحبَّةُ والنُّصح

أُبوَّةُ الله ليسَتْ فقط محبَّة، بل هي أيضًا قوَّةٌ ونُصح

كلَّما مرَّتْ بنا السنون وتلامَسْنا أكثرَ مع التَّراجيديا الإنسانيَّة بأبعادها وأعماقها ومَظاهِرها المتعدِّدة، أدركْنا أزمةَ الأُبوَّة التي تُعانيها المجتمعاتُ البشريَّة في كلِّ مكان. وهذا يجعَلُنا نعتقدُ أنَّ أزماتِ النموِّ الروحيِّ والنفسيّ- والتي تُعبِّر عن نفسها في صورة اضطراباتٍ متنوِّعةٍ وجدانيَّةٍ وسلوكيَّةٍ واجتماعيَّة- ترجعُ في كثيرٍ من الأحيان إلى أزمةٍ في الأُبوَّة. هناك سؤالٌ باتَ تقليديًّا نطرحُه على عملائنا الذين يعانون تحدِّياتٍ نفسيَّةً وهو: "كيف كانت علاقتك بأبيك؟" وغالبًا ما يكونُ الردُّ أنَّ العلاقة كانت متوتِّرة أو فاترة، أو غيرَ مَوجودةٍ منذ وقتٍ باكرٍ من الحياة، إمَّا بسبب وفاة الأب أو سفره، وإمَّا بسبب طلاقِ الوالدَين أو الإهمال أو الانشغال ...إلخ.

إنَّ ضَعْفَ الثِّقةِ بالنَّفس- والذي يَظهَرُ في أعراضٍ كثيرةٍ مثل الخوف والقلق والحسَّاسيَّة الزائدة وربَّما الاعتماديَّة المتواطئة (Co-dependency) والرغبة المحمومة

في السيطرة بكلِّ أنواعها- كثيرًا ما يكونُ مَرتبطًا بضَعفِ العلاقة بالأب. بل كثيرًا ما يكون البحثُ المرضِيُّ عن الحنان الأبويِّ هو علَّةُ اندفاعِ كثيرٍ من الفتيان والفتيات نحو علاقاتٍ عاطفيَّةٍ مُندَفِعةٍ وغيرِ مُنضَبِطة بالجنس الآخر، أو حتَّى بأفرادٍ من الجنس ذاته. أيضًا، هناك الكثيرُ من الرجال مجروحون جرحًا غائرًا بسبب غيابِ العلاقة المشبِعة بآبائهم، وهم يُعبِّرون عن ذلك الجرح بشكلٍ غيرِ واعٍ في صُوَرٍ كثيرة منها الغضبُ الذي لا يَبدو له سببٌ ظاهرٌ ولا علاجٌ ناجح، والانفلاتُ الجنسيُّ الذي يَصلُ إلى حَدِّ الإدمان، والنَّهَمُ الشديدُ للمال أو القوَّة أو السُّلطة، والشكُّ الشديد في القيمة والإحساس المزمن بالدُّونيَّة. إنَّ كلَّ هذه كثيرًا ما تكونُ صرخةَ طِفلٍ يبحثُ عن أبيه.

أَزمةُ الأُبوَّة مَرتَبطةٌ بالتَّأكيد بما يمكنُ أن نُسمِّيَه "أزمة الذُّكورة" في الجنس البشريّ. وأنا لا أقصدُ بالذُّكورة القوَّةَ العضليَّة أو الفحولةَ الجنسيَّة، بل أقصدُ المبادَرةَ مع التروِّي، والثِّقةَ بالنَّفس مع اللُّطف، والتَّواضعَ وقوَّةَ الشخصيَّة مع الحنان والاحتواء. عندما يُقالُ إنَّ "الذكورَ كثيرون والرِّجالَ قليلون"، فهذا أمرٌ صَحيح. وإذا كان الرِّجالُ قليلين، فالآباءُ الحقيقيُّون قليلون أيضًا. ولأنَّ الآباءَ قليلون، فالرِّجال بِدَورهم قليلون أيضًا، فهي إذًا حَلقةٌ مُفرَغة.

يصيرُ الولدُ رجلًا بسبب علاقته الحميمة بأبيه[٣٠]، وبسبب ذُكورةِ الأب التي ينقلُها إلى ولده بالمعايَشة والالتحام والتعلُّم وتقديم النموذج. بدايةً من ممارسةِ ألعابِ "ذكوريَّةٍ" معًا مثل المصارعة وكرة القدم، إلى القيام معًا بأعمالٍ تتطلَّبُ مجهودًا عضليًّا، إلى الكلام معًا ومُشاركة المشاعر والصِّراعات. أمَّا إذا كانَتْ ذُكورةُ الرَّجُل

30) Robert Bly and Iron John. *A Book About Men*. (N.Y.: Vintage, 1992) p. 92.

ضعيفة، فأُبوَّة هذا الرجل بِدَورها تكونُ ضَعيفةً وتؤثِّرُ في ذكورة الجيل التالي. فمَنْ لم يلتَحِمْ بأبيه ولم يختَبِر الأُبوَّةَ، يكونُ من الصَّعب عليه أن يلعبَ دورَ الأُبوَّة مع أبنائه، وهكذا تتناقَصُ الذُّكورةُ النفسيَّة من جيلٍ إلى آخر، حتَّى إنَّها قد تَصِلُ في جيل من الأجيال إلى اضطرابِ الهُوِيَّة الجنسيَّة والجنسيَّة المثليَّة.

يكتبُ جون إلدردج[31] عن هذه الأزمة قائلًا:

> "إذا كان الرجلُ هو صورةَ الأسدِ الخارج من سِبط يهوذا [يقصد هنا السيِّد المسيح]، فلماذا إذًا يوجَدُ الكثيرُ من النِّساء اللَّاتي يَشعُرنَ بالوَحدة، والأطفال الذين يعيشون كالأيتام وآباؤهم أحياء؟ ولماذا يُعدُّ الرجالُ الحقيقيُّون قلَّة؟ لماذا يبدو العالمُ ملآنًا بنُسخٍ «كاريكاتوريَّة» للذُّكورة؟"

ماذا نحتاجُ من الأب؟

في رسالته الثانية إلى تيموثاوس عندما يكتب بولس الرسول: "لأنَّ الله لَم يُعطِنا رُوحَ الفَشَل[الخوف]، بَل رُوحَ القوَّة والمحبَّةِ والنُّصْح" (٢تيموثاوس ١: ٧)، فهو يذكُرُ ثلاثةَ أمورٍ تُعطيها لنا أُبوَّةُ الله، وهي ما نحتاجُ إليه من الأب عمومًا، سواءٌ كان الأبَ السماويَّ أم الأرضيّ.

القوَّةُ والمحبَّةُ

تُعطي قوَّةُ الأب النفسيَّة الطفلَ شعورًا بالحماية، ليس فقط من الأخطار الخارجيَّة، بل أيضًا من نفسه- من نزواته وانفعالاته وشكِّه وحَيرته وعدم قدرته على السَّيطرة

31) J. Eldredge, *Wild at Heart. Discovering The Secret of A Man's Soul*, (Nashville: Thomas Nelson, 2001) p. 41.

على نفسه. عندما يقومُ الأبُ بتأديب ابنه بحنانٍ وحَزْم، فهذا ينقلُ إليه رسالةَ حِمايةٍ وأمان. الأبُ هنا يقولُ لابنِه إنَّ هناك "كبيرًا" يراه ويساعدُه حتَّى يمسكَ بِزمام أموره عندما يفقدُ الزِّمام. أتذكَّرُ أنَّ ابني عندما كان صغيرًا كان يفقدُ أعصابَه ويتصرَّفُ بشكلٍ غير منضبط في بعض الأحيان. وذاتَ مرَّةٍ صَرَّح لي قائلًا إنَّه في لحظةٍ يصيرُ غيرَ قادرٍ على التحكُّم في غضبه. في ذلك الوقت كنتُ أقولُ له إنِّي بجانبه لأحميَه وأُعلِّمَه أن يُمسكَ بزِمام غضبِه كما أُمسِكُ أنا بِمِقْوَد السيَّارة لئلَّا يختلَّ اتِّزانها وتنقلبَ. وكنتُ أقولُ له إنَّ العقابَ ليس كراهِيَة له، إنَّما هو نَوعٌ من المساعدة له لكي يتدرَّبَ على "قيادة غضبه".

عندما يشعرُ الطفل، ولا سيَّما الولد، بأنَّ أباه ضَعيف، فإنَّه يشعرُ ليس فقط بالخوف، بل أيضًا بالغَضب وربَّما الحزن؛ لأنَّ الولدَ يفتخرُ بقوَّةِ أبيه ويستمدُّ منه شعورَه بالهُوِيَّة المستَقرَّة. عندما يتعرَّضُ طفلٌ ما لاعتداءٍ جنسيٍّ مثلًا، فإنَّ أكثرَ ما يؤثِّر فيه ليس فقط ما حدث، بل يؤثِّرُ فيه أيضًا على نحوٍ أكبر ردُّ فعلِ أبيه على ما حدث. هل وقفَ إلى جانبه؟ هل حماه؟ هل أخذَ له حقَّه؟ قصصٌ كثيرة سمعناها عن شبابٍ اهتزَّتْ نظرتُهم إلى أنفسهم وإلى الحياة عندما كانَتْ ردودُ فعل آبائهم على الاعتداءات التي تعرَّضوا لها هزيلةً مُتَخاذِلة.

يحتاجُ الطفلُ ليس فقط لأن يَرى قوَّةَ أبيه، بل أن يرى أبوه قوَّتَه الوليدةَ ويشجِّعُها ويُعلِّمُه أن يحترمَها ويستخدمَها بطريقةٍ سَليمة. عندما خلقَ الله آدم، أعطاه قُوَّةً ليستَخدمَها تحتَ رعايته وليُسيطرَ بها على نفسه وعلى العالم المادِّيِّ من حوله. لقد خلقَنا الله لنَسودَ هذا الكَون، وأعدَّنا لهذه المهمَّة بأن أعطانا القوَّةَ اللازمةَ، وشكَّلَ طبيعتَنا لكي تعمل في إطارِ علاقةٍ شخصيَّةٍ واعيةٍ من المسؤوليَّة

المتفاعلة معه. هذا هو "عهد الخليقة"[٣٢] الذي أقامَه الله معنا.

غالبًا ما يعاني الأبُ الضعيفُ أو العنيف فشلًا في التَّعامُل مع القوَّة، لذا فهو يفشلُ في أن يُعلِّمَ ابنَه التَّعامُلَ السَّليمَ مع القوَّة. عندما لا يتعلَّمُ الطفلُ ممارسةَ السَّيطرةِ على أفكاره ومشاعره وجسده بصورةٍ سليمة، فإنَّه يمارسُها بصورةٍ غير سليمة، سواءٌ على نفسه أم على الآخرين مستخدمًا أمورًا كثيرةً مثل الجنس والأكل والمال والسُّلطة والشُّهرة وغَيرها.

- أدركَ أشرف أنَّ العادةَ السرِّيَّة التي كان يمارسُها منذ الطفولة، والتي تطوَّرت في ما بعد إلى إدمانٍ جنسيٍّ على المواقع الإباحيَّة، كانت هي طريقتَه للحُصول على السيطرة على جسده ومِزاجِه عندما كان طفلًا صغيرًا. كان أشرف يعيش في بَيتٍ فَوضَويٍّ حافلٍ بالقَسوة والإهانة والخوف. كان يعيشُ تحت تهديد الانفصال بين أبيه وأمِّه في أيِّ وقت، ويتوقَّع الخَطَرَ دائمًا. بالتَّأكيد، لم يكن أشرف، كونَه طفلًا صغيرًا، يستطيعُ أن يتركَ البيتَ، لكنَّه اكتشفَ أنَّه يستطيعُ أن يدخُلَ إلى الحمَّام وبعد دقائقَ مَعدودةٍ يتمكَّن، من خلال العادة السرِّيَّة، أن "يخرجَ من البيت" وهو لا يَزال فيه، وينعمُ بدَقائق من التحرُّر من الأمور التي تحدُثُ حَولَه، والسيطرة على مزاجه وسط هذه البيئة الخانقة غير القابلة للسَّيطرة عليها. وبمرور الوقت، صارتْ هذه العادةُ الجنسيَّة بالنِّسبة إليه رمزًا لقُدرته على التحرُّر من الأوضاع المحيطة به، وللسَّيطرة على مِزاجه. ولعلَّ هذا ما كان الرَّسولُ بُطرس يقصدُه عندما أشارَ إلى أنَّ الذين يُروِّجون للانحلال

32) Dallas Willard, *The Divine Conspiracy: Rediscovering Our Hidden Life in God* (San Francisco: Harper San Francisco, 1998).

الجنسيِّ يَعِدون الناسَ "بالحرِّيَّة".[٣٣] وهكذا احتلَّت اللذَّةُ الجنسيَّةُ مكانًا لن تتركَه في حياة أشرف إلَّا إذا استَطاعَ أن يحقِّقَ حرِّيَّتَه وقوَّتَه بطريقةٍ أُخرى. إنَّه يحتاجُ إلى "أُبوَّةٍ جديدة" تُعطيه القوَّة والحرِّيَّة بطريقةٍ أفضل، وهذا ما يفعلُه الله معنا إذ يُعيدُ تَبنِّينا من جديد.[٣٤]

- أمَّا جيهان المصابةُ بمرض النَّهم العُصابيّ (البوليميا) فاكتشفَتْ أنَّها لم تكُنْ في طفولتها تمارسُ أيَّةَ سيطرةٍ على حياتها. فوالدُها المسَيطِر كان يراقبُها دائمًا. كلُّ كلمةٍ تقولُها كان يُعلِّقُ عليها ويصحِّحُها. إذا عَبَّرتْ عن أيِّ شعورٍ أو أيَّةِ فكرة كانت تُقابَل باللَّوم والانتقاد. حتَّى ملابسُها، لم تكُنْ لديها حرِّيَّةٌ أن تختارَها. ودون شكّ، لم تكُنْ تختارُ صديقاتِها، ولم تستطعْ أن تَزورَهنَّ في بيوتهنّ. لم يكن هناك أمرٌ تمارسُ فيه جيهان أيَّة قوَّةٍ أو سَيطرةٍ على نفسها إلَّا جسدَها ووزنَها، فراحَتْ تتحكَّمُ فيه فتَمتنعُ عن الأكل لفتراتٍ طويلة وتتابعُ "انتصاراتها" على الميزان يومًا بعد يوم. وإذا انهارَتْ إرادتُها وأكلَتْ كثيرًا، فإنَّها تتقيَّأُ ما أكلَتْه لتَحتفظَ بوَزنها. لقد كانت جيهان تستخدمُ هذا النَّوع من السيطرة على جسدها[٣٥] بشكلٍ مُفرِط لتَعويضِ عَطَشِها إلى القوَّة والإحساس بالتحكُّم في نفسها. هكذا احتَلَّ "عدم الأكل" مكانةً في حياتها لا يمكنُ أن يفقدَها إلَّا إذا تعلَّمتْ جيهان أن تقودَ حياتَها بشكلٍ أفضل.

---

٣٣) ٢بطرس ٢: ١٨-١٩.

٣٤) عبرانيِّين ١٢: ٩ ورومية ٨: ١٥.

٣٥) للمزيد عن هذا الأمر، يمكن الرجوع إلى كتاب الدكتور أوسم وصفي "الأكل: عدوٌّ أم صديق" من سلسلة ١٨٠ درجة، من منشورات أوفير للطباعة والنشر.

هاتان الصورتان، وغَيرهما من الصُّوَر، تكشفُ لنا أنَّنا منذ أن فَقَدْنا علاقةَ الأُبوَّة والبنوَّة، التي كانت بين الله والإنسان في "جنَّة عَدْن"، فَقَدْنا أيضًا قُدرتَنا على التَّعامُل مع قَضيَّة القوَّة. كان الإنسانُ قبل السُّقوط يستطيعُ أن يُمارسَ القوَّة الممنوحةَ له من الله بشكلٍ سليم للسَّيطرة على جسدِه ومشاعرِه وعلاقاتِه والطبيعة من حَوله، أمَّا الآن فقد صارتْ مَظاهرُ فَشلِنا في استخدام القوَّة عديدة: من السلبيَّة إلى العُنف المفرِط؛ ومن إدمان العمل والجمع المهووس للمال إلى الكسل والتَّراخي؛ من الإفراط في الأكل إلى الامتناع عنه؛ من الإفراط الجنونيِّ في الجنس إلى الرُّعب منه؛ من السَّعي المحموم إلى الشُّهرة والمجد إلى التَّواري عن الأنظار وتجنُّب الناس والخوف منهم. كلُّ هذه علاماتٌ على أنَّ لدينا مشكلةً في التَّعامُلِ مع القوَّة وكلِّ أشكالها. إنَّنا نحتاجُ إلى أُبوَّةٍ تُعيدُ إلينا القوَّةَ المفقودة وتعلِّمُ أيدينا أن نستخدمَها بصورةٍ صحِّيَّةٍ لإدارة أنفسنا والكَونِ من حولنا.

قوَّةٌ أعظمُ منَّا تعملُ فينا

ليس غريبًا إذًا أنَّ البرنامَجَ الأكثرَ نجاحًا في العالم للتَّعافي من الإدمان بكلِّ صُوَرِه هو برنامَجٌ يبدأ بالاعتراف أنَّنا بلا قوَّة أمام الأكل أو الجنس أو المخدِّرات أو العمل أو العلاقات، وأنَّ هناك قوَّةً أعظمَ منَّا تستطيعُ أن تعملَ فينا وتَرُدَّنا إلى الصَّواب (العقل الرشيد). هذا البرنامَجُ هو برنامجُ الخطوات الاثنتَي عشرةَ للمُدمنين المجهولين، وهو يبدأ بالاعتراف أنَّنا في سَعينا إلى الحصول على القوَّة والسيطرة بعيدًا عن الله، فَقَدْنا القوَّةَ، ولا يمكنُنا استِردادُها إلَّا بالاستِسلام لقُوَّة الله العُظمى التي يمكنُ أن تعمَلَ فينا.

نجحَ هذا البرنامَجُ لأنَّه نَفذَ إلى الجوهر الحقيقيِّ لقَضيَّة الإدمان إذ رآها قضيَّةً

روحيَّةً في المقام الأوَّل قبل أن تكونَ مشكلةً نفسيَّةً أو جسمانيَّة. ثُمَّ واجَهَها بكلِّ صِدقٍ وأمانة مع النفس. فالقوَّةُ التي كانت لدى آدم وحوَّاء قبل السقوط كانت ناتجةً عن اعترافهما بحقيقة ضعفِهما واعتمادهما الكامل على الله. أمَّا عندما حاوَلا أخْذَ القوَّةِ لنَفسَيهما، فقدا القوَّة. وبالمثل نحن لن نستعيدَ القوَّة إلَّا عندما ندركُ أنَّ روحَ الله العاملِ فينا هو الذي يُعطينا القوَّة والمحبَّة والنُّصح. في كتابهما "**متأصِّلون في محبَّة الله. تأمُّلاتٌ كتابيَّة لـمَن يسيرون مسيرةَ التَّعافي**"[٣٦]، يكتبُ ديل ووانيتا راين عن احتياجنا إلى القوَّة:

> يبدأ التَّعافي عندما ندركُ أنَّ القَيدَ أقوى منَّا، وأنَّنا لا نملكُ القوَّةَ الكافيةَ لِكَسْر هذه القيود. فإمَّا أن نَجِدَ قوَّةً أعظمَ منَّا تكسرُ قيودنا، وإمَّا أن نَظَلَّ في هذه القيود.

النُّصح

بالإضافة إلى القوَّة المتَّزِنة بالمحبَّة، نحن نحتاجُ من الأب إلى العقل الرشيد (Sound mind). فبعدَ أن يُساعدَنا اتِّزانُ القوَّة والمحبَّة في الأب لكي نخرجَ من حضن الأمِّ لمواجَهةِ الحياة في العالم الخارجيّ، فإنَّنا نحتاجُ بعدئذٍ إلى عقلٍ رشيدٍ يجيبُ عن تساؤلاتِ عقولنا اليافعة التي تمتلئ في هذا العمر بالأسئلة والشكوك والحَيرة. إنَّنا نحتاجُ بعد ذراع الأب وحضنه، إلى عقله وتفكيره السَّليم. هذا لا يعني أنْ ليس للأمِّ عقلٌ وتفكيرٌ سليمٌ، ولكنْ كثيرًا ما تَطغى العاطفةُ على علاقةِ أغلبِ الأمَّهات بأبنائهنَّ وبناتهنّ.

---

٣٦) ديل ووانيتا رايان، متأصِّلون في محبَّة الله. تأمُّلاتٌ كتابيَّة لمَن يسيرون مسيرةَ التَّعافي والنُّضج. ترجمة أوسم وصفي. (القاهرة: كنيسة قصر الدوبارة الإنجيليَّة، ٢٠٠٥م) ص. ٢٧، ٢٨.

لا يتلامسُ الأطفالُ مع رجاحةِ عقول آبائهم وأمَّهاتهم من خلال التعليم المستمرِّ والمحاضَرات المطوَّلة بل على العكس، إذ يستَشعرُ الأبناءُ سلامةَ عقول أهلهم حينما يرون تصرُّفاتِ هؤلاء الآباء والأمَّهات بعضهم مع بعضٍ أو مع الأصدقاء أو في العمل أو في الشارع، ومن خلال الاستماع إلى كلماتهم العابرة التي تُقالُ دون قصد، والتي تكشفُ عن حقيقةِ الشخصيَّةِ أكثرَ من الكلمات المقصودة المختارة بعناية.

إنَّنا دون أن ندري، قد تَبنَّينا الكثيرَ من طُرقِ تفكيرِ آبائنا وأمَّهاتنا، وتُشَكِّلُ أفكارُهم معتَقداتِنا الدَّفينةَ التي يصعبُ تغييرها. عندما نفكِّرُ ونتكلَّمُ أمامَ أولادنا بعقلٍ سليم، فإنَّنا نُعلِّمُهم سلامةَ العقل ومنطقيَّةَ التفكير.

التعبيرُ عن المحبَّة

الغالبيَّةُ الساحقةُ من الآباء والأمَّهات يحبُّون أطفالَهم، لكنَّهم ليسوا جميعًا قادرين على التَّعبير عن هذه المحبَّة. ما يجعلُ المحبَّةَ الأَبَويَّة[٣٧] تتحوَّلُ من خِيارٍ استراتيجيٍّ إلى خبرةٍ مُعاشةٍ هو أن تُتَرجَمَ إلى تَعبيراتٍ جسديَّةٍ مثل الاحتضان[٣٨]، والتقبيل، واللَّعب، والكلماتِ البسيطةِ الواضحة غيرِ الغامضة، إضافةً إلى حِوار الصَّداقة. ويجب أن تُتَرجَمَ الأُبوَّة أيضًا إلى تمضيةِ وقتٍ وعطايا وتَشجيع واهتمامٍ ومساندةٍ وقتَ الأزمات. ينبغي للمحبَّة الأبويَّة أن تُترجَم إلى رغبةٍ في "رؤية" الأطفال وهم يمارسون أنشطةً، ومُتابعتِهم والاهتمامِ حتَّى بالأمور البسيطة التي يَهتَمُّون بها.

---

٣٧) أتكلَّمُ بشأن الأبوَّة أكثرَ من الأمومة؛ لأنَّ الأزمةَ هي في الأبوَّة وليستِ الأمومة. أغلبُ الأمَّهات يُعبِّرنَ عن الحبِّ لأبنائهنَّ وبناتهنَّ، لكنَّ المشكلةَ الأكبرَ هي في الآباء.

٣٨) إنجيل مرقس ٩: ٣٦.

هناك عدَّةُ صُوَرٍ كتابيَّةٌ جميلةٌ لأبوَّة الله يمكنُ أن نتذكَّرَ منها:

- **الله يُسرُّ بي**[٣٩]: "إلهُك في وَسَطِك. إنَّه جَبَّارٌ يُنقِذُك. يتغنَّى فَرَحًا بكِ ويُجدِّدُ مَحبَّتَه لك. سيَفرحُ بكِ بابتهاج".[٤٠] في هذه الصورة، يرسمُ الكتابُ المقدَّسُ الله في صورةِ أبٍ ينتظرُ طفلتَه الصغيرة عندما تأتي من الحضانة أو المدرسة. وبمجرَّدِ أن يفتحَ البابَ لها، يُهرَعُ ويأخذُها في حِضْنه ويضحكان معًا. وإذا كانت باكيةً مضطربة، فإنَّه يُهدِّئُها بمحبَّته ويغنِّي لها أغنيةً جميلة.
- **الله لم يملَّ منِّي**: "أليسَ أفرايم ابني الغالي؟ أليس هو ابني المحبوب؟ نَعَم تَكَلَّمتُ بالكثير ضدَّه، لكنِّي ما زلتُ أذكُرُه. أُحبُّه بكلِّ أعماقي، وسأرحمُه بكلِّ تأكيد، يقول الله".[٤١]

يُعبِّرُ الله هنا عن محبَّته الأبويَّة بِكَونه لا يملُّ منَّا حتَّى بعد أن نكرِّرَ الخطأ مرَّةً تلوَ الأُخرى. إذ يظهرُ أنَّه يؤمن بنا عندما يفقدُ الجميعُ إيمانَهم بنا، أو حتَّى عندما نفقدُ نحن الإيمانَ بأنفسنا. فهو يَظلُّ مُصِرًّا على الاستثمار فينا رغمَ كلِّ بَوادِرِ الفشل التي نُظهِرُها.

- **الله يحملني**[٤٢]: "كَراعٍ يَرعى قَطيعَه. بذراعِه يجمَعُ الحُملان، وفي حِضْنِه يحملُها، ويقودُ المرضِعات"[٤٣]، و"اسمَعوا لي يا بيتَ يعقوبَ وكلَّ بقيَّةِ

---

٣٩) ديل ووانيتا رايان، متأصِّلون في محبَّة الله.

٤٠) صفنيا ٣: ١٧ (الترجمة العربيَّة المبسَّطة).

٤١) إرميا ٣١: ١٨-٢٠ (الترجمة العربيَّة المبسَّطة).

٤٢) ديل ووانيتا رايان، متأصِّلون في محبَّة الله.

٤٣) إشَعياء ٤٠: ١١.

بيتِ إسرائيل، المحمَّلين عليَّ من البطن، المحمولين من الرَّحِم. وإلى الشَّيخوخة أنا هو، وإلى الشَّيبة أنا أحمل. قد فعلتُ، وأنا أرفع، وأنا أحملُ وأُنجِّي. بِمَن تشبِّهونني وتسوُّونَني وتمثِّلونني لنتشابه؟"[٤٤].

ليس الحَمْلُ فقط هو الحَملَ الجسديّ. كلُّنا حَملْنا أطفالنا قبل أن يستَطيعوا المشي، ثمَّ بعدَ ذلك توقَّفَ عن الحمل. أمَّا الله فيَظَلُّ كَراعٍ يحملُنا بكلِّ ما لنا، وكلِّ ما فينا من البَطنِ إلى الشَّيخوخة والشَّيبة. يحملُ ويرفعُ ويُنجِّي. ويتساءلُ الرَّبّ: "بِمَنْ تُشبِّهونني؟"- هل تُشبِّهونَني بآبائكم وأمَّهاتِكم الأرضيِّين الذين يتعَبون ويَكِلُّون ويترُكون؟

- **الله يعطيني اسمًا جديدًا:** "لا تَخَفْ لأنِّي فَدَيتُكَ. دَعَوتُكَ بِاسْمِكَ"[٤٥].
  لقد أعطانا آباؤنا الأرضيُّون أسماءً. ربَّما جيِّدةً وربَّما ليسَتْ كذلك، وقد تكونُ لإشباع رغباتٍ فيهم. ربَّما أعطَونا أسماءً كانوا يتمنَّون لو تسمَّوا هم بها، أو ربَّما أعطَونا اسمَ الجدِّ أو الجدَّةِ ليَستمرُّوا في سماع أسماء آبائهم أو أمَّهاتهم، أو ليَجعلوا منَّا تعويضًا عن الجدِّ أو العمِّ أو الخال المنتَقِلين. أتصوَّرُ أنَّه عندما سمحَ أبونا السماويُّ لنا بأن نولَدَ، أعطانا هو اسمًا خاصًّا لكلٍّ منَّا يُعبِّرُ بدقَّةٍ عن شخصيَّاتنا الفريدة. وأظنُّ أنَّنا عندما نعودُ إليه في السماء سيخبرُ كلَّ واحدٍ منَّا باسْمِه الحقيقيِّ الذي نالَه من أبيه الحقيقيّ. "مَن يَغلِب فسأُعطيه أن يأكلَ من المنِّ المخفيّ، وأُعطيه حصاةً بيضاء، وعلى الحصاة اسمٌ جديدٌ مكتوبٌ لا يعرفُه أحَدٌ غيرُ الذي يأخذ"[٤٦].

---

٤٤) إشَعياء ٤٦: ٣.

٤٥) إشَعياء ٤٣: ١٩.

٤٦) رؤيا يوحنَّا ٢: ١٧.

ممارسةُ النُّصح

النُّصحُ يعني العقلَ الرشيدَ القادرَ على تقديم النصيحة، ونحن نحتاج إلى نُصح الأب- نحتاجُ إلى النُّصح من القويِّ المحبّ. نحن نقبلُ أن نستمعَ إلى وجهة نظر آبائنا إذا كانوا أقوياء، أما إذا كانوا ضعفاءَ فنحن لا نُقيمُ وزنًا يُذكَرُ لنصيحتهم. أيضًا نستمعُ إلى نُصح آبائنا إذا قُدِّمَ بالمحبَّة والانتماء إلى هؤلاء الآباء، وإلَّا صارَ في نظرنا مجرَّدَ تَعليم أجوَفَ أو تَسلُّطٍ بَغيض. الله هو أبونا القويُّ المحِبُّ كلِّيُّ الحكمة والمعرفة والعلم (كولوسّي ٢: ٣)، والذي ينتمي إلينا انتماءً لا يتغيَّر ولا يهتَزّ؛ حيث إنَّ أُبوَّتَه تمتزجُ بالقوَّة والمحبَّة والنُّصح.

المفترض بالآباءْ ليس فقط أن يقدِّموا لنا النُّصح والإرشاد، بل أن يعلِّمونا أيضًا حتَّى نستطيعَ في ما بعدُ أن ننصحَ نحن أنفسَنا، أيْ أنْ نستطيعَ دائمًا أن نصحِّحَ أفكارَنا أوَّلًا بأوَّل، كما يؤكِّدُ العهدُ الجديدُ على أنَّ نموَّنا وتغييرَنا مرتَبِطان دومًا بالقُدرةِ على تجديد الذِّهن وتصحيحه باستمرار[٤٧]، وبالتزامِ التَّفكيرِ في كلِّ ما هو حقٌّ وعادلٌ وطاهرٌ ومُسِرٌّ وصيتُه حسن.[٤٨]

إنَّنا نؤمنُ بأنَّ كلَّ مسيحيٍّ يَعيشُ حياةَ التَّوبةِ والتَّسليم لله لن يُحرَمَ القوَّةَ والمحبَّةَ والنُّصح؛ لأنَّها أُبوَّةُ الله ومحبَّته غير المشروطة تُجاهَ أولاده. غير أنَّنا على الجانب الآخر نرى أنَّ صَداقة الآبِ السماويِّ والشركة معه ليسَتْ أمرًا غير مشروط. فمع أنَّ المؤمنَ لن يُحرمَ رعايةَ الأب وحنانه وحمايته في أيِّ مكانٍ يذهبُ إليه، فلا يمكنُه التَّمتُّع بالشركة والصداقة معه في كلِّ مكان. ففي الفصل التالي سنُوضحُ شيئًا عن شروط هذه الصَّداقة ووعودها.

---

٤٧) الرسالة إلى أهل رومية ١٢: ٢.

٤٨) الرسالة إلى أهل فيلبّي ٤: ٨.

الفصل ٥

صداقةُ الله

محبَّةُ الله غيرُ مشروطة، لكنَّ صداقتَه مشروطة

لأنَّ المحبَّةَ غيرَ المشروطة هي من الله؛ ولا يحتاجُ الإنسانُ لأن يفعَلَ أيَّ شيء حتَّى يستحقَّها، فوَصيَّةُ السيِّد المسيح للإنسان ليَنالَ هذه المحبَّة هي فقط الثَّباتُ في هذه المحبَّة. لذا يقولُ السيِّدُ المسيحُ لتلاميذه في حديثه الختاميِّ في يوحنَّا الأصحاحات ١٣-١٧: "كَما أَحَبَّني الآبُ كذلكَ أَحبَبْتُكُم أنا. اُثْبُتوا في مَحبَّتي" (يوحنَّا ١٥: ٩). والصُّورةُ كما أتخيَّلُها هي صورةُ شخصٍ يُريدُ أن يسكبَ لِطِفله حَليبًا في كوبه، ويُريدُه فقط أن يَثبُتَ حتَّى لا ينسكبَ الحليبُ خارجَ الكوب. أو صورةُ أمٍّ تحتضنُ طفلَها الذي يتَملَّصُ منها حتَّى يذهب للَّعب مع أصدقائه بينما تقولُ له: "اثبُتْ، واترُكني أظهِرُ محبَّتي لك!" وينتجُ عن هذا الثَّبات ليس فقط الاستمتاع بالمحبَّة، بل أيضًا النموُّ والنُّضج.

كيف يكونُ الثَّباتُ في المحبَّة؟

يكملُ يسوعُ في العدد العاشر: "إِنْ حَفِظتُم وَصايايَ تَثبُتونَ في مَحبَّتي". فهو يقولُ هنا إنَّ الثَّباتَ في المحبَّة يأتي بحِفْظِ الوصايا. ربَّما نظنُّ للوهلة الأولى أنَّ الوصايا هنا هي مجموعةٌ من القوانين والشرائع الخاصَّة بالسلوكيَّات المختلفة المختصَّة بالمال والعلاقات والجنس والكلام. أو ربَّما مجموعةٌ من الطُّقوس بما فيها من أصوام وصلوات وزكاة وصدقة. لكنْ قبل أن نستَطردَ في التفكير في هذه "الوصايا" يعلنُ يسوعُ قائلًا إنَّ لديه وصيَّةً واحدةً فقط: "هذه هيَ وَصيَّتي أَن تُحبُّوا بَعضُكُم بَعضًا كَما أَحبَبْتُكم".

الثَّباتُ في محبَّة الله يأتي أساسًا من خلال حِفْظِ وصيَّةِ محبَّةِ الآخر وقبولِه كما هو، فمجتمعُ المحبَّة هو الوسطُ الإنسانيُّ المثاليُّ الذي تتحرَّكُ فيه محبَّةُ الله بحرِّيَّةٍ فينا ومن خلالنا تُجاهَ الآخرين، ومن الآخرين تُجاهنا. من الطبيعيِّ والإنسانيِّ أن نحبَّ مَن يحبُّوننا ويشبهوننا، وطبيعيٌّ أيضًا أن نحبَّ مَن نرى أنَّهم يستحقُّون الحبَّ والإعجاب، ومَن يَسهُلُ أن نحبَّهم ونُعجَبَ بهم، مثل الأذكياء والأقوياء، والجميلون والجميلات. لكنَّ هذه المحبَّةَ ليسَتِ المحبَّةَ التي يُشيرُ إليها يسوع هنا، وهي ليسَتِ المحبَّة التي تجعَلُنا نَثبُتُ في الله والله فينا. فالمحبَّةُ التي يقصدُها السيِّد المسيح هي محبَّةُ مَن يستحقُّ ومَن لا يستحقّ- مَن يبادِلُنا المحبَّة ومن لا يُبادلُنا إيَّاها. وفي كتابه "**الخُطَّةُ الإلهيَّة**"[49]، يشيرُ دالاس ويلارد إلى أنَّ "مجتمع المحبَّة المصَلِّية" هو السِّياقُ الذي يمكن فيه أن نطيعَ كافَّةَ الوصايا الأُخرى المتعلِّقة بالتَّعامُلِ الناضج مع كلِّ مفردات الحياة.

---

49) Dallas Willard, *The Divine Conspiracy: Rediscovering Our Hidden Life in God* (San Francisco: Harper One, 1998).

تبدو هذه الوصيَّةُ بسيطةً، غير أنَّ تحقيقَها يحتاجُ إلى تغييرٍ شاملٍ في القلب والشخصيَّة لكي نكونَ على صورة السيِّد المسيح في التَّعامُل مع الفِكْر والمشاعر، والجسد والإرادة، والاختيارات والسلوكيَّات والعلاقات.[٥٠]

مصادقةُ الله

بعد أن يتكلَّمَ يسوعُ بشأن "المحبَّة غير المشروطة"، نَجِدُه يُضيفُ عبارةً يمكنُ أن تكونَ مُقلِقةً بقَوله: "أَنتُم أَحبَّائي إنْ فَعلْتُم ما أُوصيكُم بِه".[٥١] لماذا يَضعُ يسوعُ هنا شرطًا باستخدام "إنْ" بعد كلِّ الكلام السابق بشأن المحبَّة غير المشروطة التي يهبُها الله مجَّانًا، ونُعطيها إلى الآخرين مجَّانًا أيضًا؟ كلمة "أحبَّائي" هنا تشيرُ إلى نَوعٍ آخرَ من العلاقة بالله؛ حيث إنَّ الفعلَ اليونانيَّ المستَخدَمَ ليس "أغاپي" (Agape)، وإنَّما "فيليو" (Philio) ويعني الصَّداقة. فتكونُ الترجمةُ العربيَّةُ الأدقُّ هي: "أنتم أصدقائي إنْ فَعَلْتُم ما أُوصِيكُم به". المحبَّةُ غيرُ مشروطة، أمَّا الصَّداقةُ فمَشروطةٌ بالاشتراك في الطبيعة والاهتمامات. يحبُّ الأبُ الطفلَ محبَّةً غيرَ مشروطة، وهو مستَعدٌّ لأنْ يموتَ من أجله ويورثَه لكنَّه لا يستطيعُ أن يصادقَه ويشاركَه بأمورِ الكِبار، لا لأنَّه لا يحبُّه، بل لأنَّ الطفلَ لا يستطيعُ أن يستوعبَ الأمر. وهذا يقولُه السيِّدُ المسيحُ في إنجيل يوحنَّا: "إنَّ لي أُمورًا كَثيرةً أيضًا لأَقولَ لكمْ ولَكنْ لا تَستَطيعونَ أَن تَحتَملوا الآن".[٥٢]

إذًا ما يقولُه السيِّدُ المسيح هو إنَّنا إنْ ثَبتْنا في المحبَّة غير المشروطة، نأخذُها من

---

٥٠) للمزيد عن مفهوم التَّجديد والتَّغيير والنموّ، ننصحُ بقراءة الكتب التالية: "تجديد القلب" (من منشورات أوفير للطباعة والنشر)، و"التدريبات الروحيَّة" للمؤلِّف دالاس ويلارد، وكتاب "دعوة إلى حياة يسوع" للمؤلِّفة جان جونسون.

٥١) يوحنَّا ١٥: ١٤.

٥٢) يوحنَّا ١٦: ١٢.

الله ونُعطيها إلى الآخرين، فإنَّنا عندئذٍ ننمو ونتغيَّرُ ونبدأ في الاشتراك في طبيعة الله، تمامًا مثل الطفل الذي يكبُرُ ويزدادُ بمرور الوقت شبهًا بأبيه، عندئذٍ فقط يمكنُ لأبيه أن يصادقَه. إنَّ مصادقتَنا للسيِّد المسيح مشروطةٌ بالنُّموّ، والنموُّ مرتبطٌ بحِفْظِ الوصيَّة التي هي الاستمرارُ في ممارسة المحبَّة غير المشروطة.

وعودُ الصَّداقة ومزاياها

إنَّ وُعودَ المحبَّةِ غيرِ المشروطة، هي وُعودُ القُبول والغُفران ونَوال الحياة الأبديَّة. فهكذا أحبَّ الله العالم [محبَّةً غير مشروطة] لكيلا يَهلِكَ كلُّ مَن يؤمنُ به، بل تكونُ له الحياةُ الأبديَّة.[٥٣] أمَّا وُعودُ الصَّداقة، بحسب الأصحاح الخامس عشر من إنجيل يوحنَّا فهي كالتالي:

أوَّلًا: المعرفة.

سيكلِّمُكَ الله وسيعرِّفُك أمورًا جديدة. المؤمنُ غيرَ النَّاضج محبوبٌ ومَقبول، لكنَّ الله لا يَستأمِنُه على الكثير ولا يخبرُه بالكثير. أمَّا عندما يكبُرُ وينمو، فإنَّه يخبرُه بأمورٍ أعمقَ ويستأمنُه على ما لم يكُنْ يستطيعُ أن يستأمنَه عليه عندما كان طفلًا. الطفلُ الصغيرُ القاصرُ يُعامَلُ مثل العبد مع أنَّه وارثٌ لكلِّ شيء[٥٤]، أمَّا عندما يكبُرُ فإنَّه يصيرُ صديقًا. لذا يُضيفُ السيِّدُ المسيح: "لا أَعودُ أُسمِّيكُم عَبيدًا لأنَّ العَبدَ لا يَعلَمُ ما يَعمَلُ سيِّدُه، لكنِّي قد سَمَّيتُكُم أحبَّاءَ [أصدقاء] لأنِّي أَعلَمْتُكُم بكُلِّ ما سَمِعْتُه من أبي".[٥٥]

---

٥٣) يوحنَّا ٣: ١٦.

٥٤) غلاطيَّة ٤: ١.

٥٥) يوحنَّا ١٥:١٥.

ثانيًا: الاختيارُ للعمل والخدمة.

من وعود الصداقة التي يقدِّمُها السيِّدُ المسيح في هذه الفِقْرة "الاختيار للخدمة"، إذ يقول: "لَيسَ أَنتُمُ اخْتَرتُموني بَل أَنا اخْتَرتُكم وأَقَمْتُكُم لِتَذْهَبوا وَتأتوا بِثَمرٍ ويَدومَ ثَمرُكُم". لا يُمكنُ أن يَختارَ الله أطفالًا للعَمَل. أحيانًا نختارُ، نحن البشرَ، بعضُنا بعضًا للعمل والخدمة دون أن نكونَ ناضجين بما يكفي. ليس هذا اختيارَ الله لنا، بل ما نُريدُه نحن ونستَحسِنُه. وبمرور الوقت سيَظهرُ الفارق. فمَن يختارُه الله يذهبُ ويأتي بثمرٍ ويَدومُ ثمرُه، أمَّا مَن يختاره الناسُ فلا يأتي بثمر، وإنْ أتى، فإنَّ الثمرَ لا يدوم؛ لأنَّه ليس نابعًا من نموٍّ حقيقيٍّ وتَغيُّرٍ في الطبيعة. إنَّ البشرَ عندما يختارون، فإنَّهم ينظرون إلى العينَين (أي المظهَر الخارجيّ)؛ لأنَّهم لا يعرفون القلب. أمَّا الله فيختارُ بحسب القلب المتغيِّر إلى صورةِ قلبِه هو، حتَّى إنْ لم يكُنِ المظهَرُ جذَّابًا.[٥٦] عندما نتغيَّرُ وتَصيرُ طبيعتُنا- مثل الله- طبيعةَ المحبَّة غير المشروطة، فعندئذٍ نكونُ مستَعدِّين لاستقبال دعوةٍ نقيَّةٍ من الله، وتَصيرُ لهذه الدَّعوة جذورٌ عميقةٌ فينا، فتُثمرُ ويَدومُ ثمرُها. وحتَّى إنْ مرَّتْ بفتراتِ جفافٍ وعدم إثمار، فهي تعودُ لتُثمرَ لأنَّ جذورَها ضاربةٌ في أعماقِ طبيعتِنا المتغيِّرة.

ثالثًا: استجابة الصلاة.

عندما نتكلَّمُ بشأن الرُّوحانيَّةِ الناضجةِ وبأنَّ الناضجينَ يقبلون من الله كلَّ شيء، ولا يريدون أن "يسيطروا" على الله ظانِّين أنَّه "بكثرةِ كلامِهم يُستَجابُ لهم"، يعترضُ كثيرون بالقَول: "وماذا عن الآية القائلة: «اسأَلوا تُعطَوا. اطلُبوا تَجِدوا. اقْرَعوا يُفتَحْ لَكُم. لأنَّ كلَّ مَن يَسأَلُ يَأخُذُ ومَن يَطلُبُ يَجدُ ومَن يَقرَعُ يُفتَحُ له»؟".

---

(٥٦) ١صموئيل ١٦: ٧.

تكمنُ الإجابةُ عن هذا الاعتراض هنا في يوحنَّا ١٥: ١٦ حيثُ نقرأ: "لِكَي يُعطيَكُم الآبُ كلَّ ما طَلَبْتُم بِاسْمي". فهنا نكتشفُ أنَّ هذا الوعدَ باستِجابةِ الصَّلَوات هو أحَدُ الوُعود المرتَبِطةِ بالنُّضج ومصادقة الله. فالشَّخصُ الناضجُ سيَطلُبُ طلباتٍ ناضجة تَضَعُ ملكوتَ الله أوَّلًا، كما أنَّه سيَطلبُ وهو مستَعدٌّ لأنْ يَقبَلَ طريقةَ الله وتَوقيتَه في استجابة الصلاة. الناضجُ أيضًا لا يتنظرُ أن يرى الثَّمرَ ليُواصِلَ الصلاة. ففي كثيرٍ من المرَّاتِ تحدُثُ استِجاباتُ الصلوات دون أن نعرفَ ذلك.

وبالتَّأكيد، هذا لا يعني أنَّنا سننضجُ إلى الدَّرجةِ التي نتوقَّفُ فيها عن أن نكونَ محتاجين إلى الله. كما لا يعني أنَّنا سنتوقَّفُ عن تقديم الطلبات الطفوليَّة أمام الله؛ فمَهما كَبرْنا واشتَرَكْنا في طبيعة الله، فإنَّنا لن نتوقَّفَ عن أن نكونَ، في الوقت نفسه، أطفالَه المحتاجين إليه. يكتب سي. أس. لِويس في كتابه "المحبَّات الأربع"[٥٧]:

> "فالنفوسُ المرفَّعة قد تحدِّثُنا بشأن بلوغ ما يتَخطَّى تلك المحبَّة. ولكنِّي أعتقدُ أنَّ أصحابَ هذه النفوس سيَكونون أيضًا أوَّل مَن يُحدِّثنا بأنَّ تلك الأعالي ستنقطعُ عن أن تكونَ نِعَمًا مَحْضة، وتَصير أوهامًا أفلاطونيَّةً مُحدِثة (Neo-Platonist)، أو شيطانيَّةً أخيرًا، لحظةَ يجترئ الإنسانُ أن يُفكِّرَ أنَّه يستطيعُ أن يعيشَ عليها ويُسقِطَ من ثَمَّ عنصرَ الاحتياج. إنَّ مبدأ المحاكاة يقول: «لا يقومُ الأعلى من دون الأدنى»[٥٨] فإنَّه يكونُ مخلوقًا وَقِحًا وقبيحًا ذاك الذي يمثُلُ أمامَ خالقه مُتباهيًا: «لست مستَعطِيًا. أنا أحبُّك دون مَصلحةٍ ذاتيَّة»".

---

٥٧) سي. أس. لِويس. المحبَّات الأربع. ترجمة سعيد باز (عمَّان: أوفير، ٢٠١٠) ص. ١٢.

58) Thomas a' Kempis, *The Imitation of Christ*.

شروطُ الصداقة

أوَّل شَرطٍ من شروط الصداقة هو الاشتراكُ في الطبيعة والاهتمامات. يقولُ الكتابُ إنَّ "الله محبَّة". فإذا تَغيَّرتْ طبيعتُنا وصارَتِ المحبَّةُ غيرُ المشروطة تحكمُ أفكارَنا ومشاعرَنا وسلوكَنا، فإنَّنا عندئذٍ نَصيرُ أقدرَ على اختبار حضور الله وشركته وصداقته. وهذا ما يقولُه السيِّدُ المسيح في الموعظة على الجبل. فعندما نستطيعُ أن نحبَّ أعداءَنا، ونُباركَ لاعنينا، ونُحسِنَ إلى المبغِضين إلينا، ونصلِّي لأجل الذين يُسيئون إلينا[٥٩]، فإنَّنا عندئذٍ ننمو في النعمة وتَظهَرُ علينا شيئًا فشيئًا سماتُ الطبيعة الإلهيَّة، مثلَما يكبُرُ الابنُ ويظهَرُ عليه الشبَهُ الكبيرُ بأبيه.

أيضًا **الله نور**. طبيعةُ الله نورٌ، وإذا أرَدْنا أن نكونَ في صداقة معه فعلينا أن نكونَ أيضًا نورًا ونسلكَ "في النُّور"، أي أن نمارسَ الاعترافَ والشفافيَّةَ والسُّلوكَ المستقيم الذي لا يخشى الانكشاف. لذا يقولُ الرسولُ يوحنَّا إنَّنا: "إذا سلَكْنا في النور كما هو في النور، فلنا شركةٌ بعضُنا مع بعض".[٦٠]

أن نكونَ أبناءَ لله بالتَّبنِّي. وهذه دعوةٌ مجَّانيَّة لا تكلِّفُنا شيئًا سوى أن نؤمنَ به ونقبَله ونُقبِلَ إليه، فننالَ التبنِّي ونحيا الحياةَ الأبديَّة التي تبدأ هنا والآن ولا يستطيعُ الموت أن يوقفَها. أمَّا إنْ أردْنا أن نَصيرَ في صداقةٍ مع الله، فهذا أمرٌ يُكلِّفُنا حياةً كاملةً من النموِّ في النعمة والطاعة. يقول ديتريش بونْهويفَر: "الخلاصُ مجَّانيّ، أمَّا التِّلمذةُ فتكلِّفُك حياتَك".[٦١]

من هنا، فإنَّ "معرفة الله" ليسَتْ مجرَّدَ معرفةٍ عقليَّةٍ أوِ التزامٍ عقائديّ، بل هي

---

٥٩) متّى ٥: ٤٤-٤٥.

٦٠) ١يوحنَّا ١: ٧.

61) Dietrich Bonheoffer. *The Cost of Discipleship*. (N.Y: Touchstone, 1995).

الله ونُعطيها إلى الآخرين، فإنَّنا عندئذٍ ننمو ونتغيَّرُ ونبدأ في الاشتراك في طبيعة الله، تمامًا مثل الطفل الذي يكبُرُ ويزدادُ بمرور الوقت شبهًا بأبيه، عندئذٍ فقط يمكنُ لأبيه أن يصادقَه. إنَّ مصادقتَنا للسيِّد المسيح مشروطةٌ بالنُّموّ، والنموُّ مرتبطٌ بحِفْظِ الوصيَّة التي هي الاستمرارُ في ممارسة المحبَّة غير المشروطة.

وعودُ الصَّداقة ومزاياها

إنَّ وُعودَ المحبَّةِ غيرِ المشروطة، هي وُعودُ القُبول والغُفران ونَوال الحياة الأبديَّة. فهكذا أحبَّ الله العالم [محبَّةً غير مشروطة] لكيلا يَهلِكَ كلُّ مَن يؤمنُ به، بل تكونُ له الحياةُ الأبديَّة.[٥٣] أمَّا وُعودُ الصَّداقة، بحسب الأصحاح الخامس عشر من إنجيل يوحنَّا فهي كالتالي:

أوَّلًا: المعرفة.

سيكلِّمُكَ الله وسيعرِّفُك أمورًا جديدة. المؤمنُ غيرَ النَّاضج محبوبٌ ومَقبول، لكنَّ الله لا يَستأمِنُه على الكثير ولا يخبرُه بالكثير. أمَّا عندما يكبُرُ وينمو، فإنَّه يخبرُه بأمورٍ أعمقَ ويستأمنُه على ما لم يكُنْ يستطيعُ أن يستأمنَه عليه عندما كان طفلًا. الطفلُ الصغيرُ القاصرُ يُعامَلُ مثل العبد مع أنَّه وارثٌ لكلِّ شيء[٥٤]، أمَّا عندما يكبُرُ فإنَّه يصيرُ صديقًا. لذا يُضيفُ السيِّدُ المسيح: "لا أَعودُ أُسمِّيكُم عَبيدًا لأنَّ العَبدَ لا يَعلَمُ ما يَعمَلُ سيِّدُه، لكنِّي قد سَمَّيتُكُم أحبَّاءَ [أصدقاء] لأنِّي أَعلَمْتُكُم بكُلِّ ما سَمِعْتُه من أبي".[٥٥]

---

٥٣) يوحنَّا ٣: ١٦.

٥٤) غلاطيَّة ٤: ١.

٥٥) يوحنَّا ١٥:١٥.

ثانيًا: الاختيارُ للعمل والخدمة.

من وعود الصداقة التي يقدِّمُها السيِّدُ المسيح في هذه الفِقْرة "الاختيار للخدمة"، إذ يقول: "لَيسَ أنتُمُ اخْتَرتُموني بَل أَنا اخْتَرتُكم وأَقَمْتُكُم لِتَذْهَبوا وَتأتوا بِثَمرٍ ويَدومَ ثَمرُكُم". لا يُمكنُ أن يَختارَ اللهُ أطفالًا للعَمَل. أحيانًا نختارُ، نحن البشرَ، بعضُنا بعضًا للعمل والخدمة دون أن نكونَ ناضجين بما يكفي. ليس هذا اختيارَ اللهِ لنا، بل ما نُريدُه نحن ونستَحسِنُه. وبمرور الوقت سيَظهرُ الفارق. فمَن يختارُه اللهُ يذهبُ ويأتي بثمرٍ ويَدومُ ثمرُه، أمَّا مَن يختاره الناسُ فلا يأتي بثمر، وإنْ أتى، فإنَّ الثمرَ لا يدوم؛ لأنَّه ليس نابعًا من نموٍّ حقيقيٍّ وتَغيُّرٍ في الطبيعة. إنَّ البشرَ عندما يختارون، فإنَّهم ينظرون إلى العينَين (أي المظهَر الخارجيّ)؛ لأنَّهم لا يعرفون القلب. أمَّا اللهُ فيختارُ بحسب القلب المتغيِّر إلى صورةِ قلبِه هو، حتَّى إنْ لم يكُنِ المظهَرُ جذَّابًا.[٥٦] عندما نتغيَّرُ وتَصيرُ طبيعتُنا- مثل اللهِ- طبيعةَ المحبَّة غير المشروطة، فعندئذٍ نكونُ مستَعدِّين لاستقبال دعوةٍ نقيَّةٍ من اللهِ، وتَصيرُ لهذه الدَّعوة جذورٌ عميقةٌ فينا، فتُثمرُ ويَدومُ ثمرُها. وحتَّى إنْ مرَّتْ بفتراتِ جفافٍ وعدم إثمار، فهي تعودُ لتُثمرَ لأنَّ جذورَها ضاربةٌ في أعماقِ طبيعتِنا المتغيِّرة.

ثالثًا: استجابة الصلاة.

عندما نتكلَّمُ بشأن الرُّوحانيَّةِ الناضجةِ وبأنَّ الناضجينَ يقبلون من اللهِ كلَّ شيء، ولا يريدون أن "يسيطروا" على اللهِ ظانِّين أنَّه "بكثرةِ كلامِهم يُستَجابُ لهم"، يعترضُ كثيرون بالقَول: "وماذا عن الآية القائلة: «اسأَلوا تُعطَوا. اطلُبوا تَجِدوا. اِقْرعوا يُفتَحْ لَكُم. لأنَّ كلَّ مَن يَسأَلُ يَأخُذُ ومَن يَطلُبُ يَجدُ ومَن يَقرَعُ يُفتَحُ له»؟".

---

٥٦) ١صموئيل ١٦: ٧.

أُبوَّةٌ وبُنوَّة وشركةٌ وصداقة ننمو فيها جميعها كلَّ يَوم في تلك المعرفة المغيِّرة. وهذا النموُّ في معرفة الله يتَضافَرُ بشكلٍ جوهريٍّ مع النموِّ في معرفة أنفسنا: فكلَّما عَرفْنا الله عرفْنا أنفسنا، وكلَّما عَرفْنا أنفسَنا عَرفْنا الله. لذا سندخلُ في الجزء الثاني من هذا الكتاب في ذلك الرَّافد الثاني لنَهرِ الرُّوحانيَّة: معرفة أنفسنا.

الجزء الثاني

معرفةُ النفس

"ابحَثْ عن بابِ قَلبِك،
وهناك ستكتشفُ أنَّه البابُ إلى ملكوت الله".

يوحنَّا ذهبيّ الفم[٦٢]

"للأسف، لم يَعُدِ الإنسانُ المعاصِرُ يُعطي
قيمةً لمعرفة النفس كما كان يفعلُ إنسانُ الأجيال السابقة.
بالنِّسبة إلينا الآن، تتفوَّقُ المعرفةُ التقنيَّة على كلِّ ألوان المعرفة
الأُخرى. وحتَّى عندما نقتَفي أثَرَ معرفة الذات، فإنَّنا كثيرًا ما
نختزلُها إلى بحثٍ محمومٍ عن اللذَّةِ والسَّلام الشخصيِّ
والثَّراء المادِّيّ. لَكَم نحن مساكين!".

ريتشارد فوستر[٦٣]

62) http://first-thoughts.org/on/John+Chrysostom/
63) R. Foster, *Prayer. Finding the Heart's True Home* (San Franciso: Harper San Francisco, 1992) p. 30.

الفصل ٦

الإنسانُ الحقيقيّ

صورتُه لا تزالُ فينا، وقد ظهرَ لنا في السيِّد المسيح

إنْ كان الله قد خلقَ الإنسانَ على صورته، فأين ينبغي أن ننظرَ إذا أرَدْنا أن نرى الله؟ أفلا نُبصرُ أنفسَنا؟ صحيحٌ أنَّ الله مختلفٌ تمامًا عن الإنسان، فهو القدُّوس الذي لا يشبِهه شيء، أو كما يقول اللَّاهوتيُّون إنَّه "الآخر تمامًا" (Wholly other)، لكنَّه في الوقت نفسه تركَ في الإنسان صورتَه. يمكنُنا من هذه الصورة التي تشوَّهَتْ كثيرًا، لكنْ لا تزالُ أطلالُها مَوجودةً، أن نستَدلَّ على ما ينبغي أن يكونَه الإنسان، مثلما يمكنُنا أن نستَدلَّ من أطلال مدينةٍ أثريَّة على كمِّ الجمال والعَظَمة والفخامة التي كانت تتميَّزُ بها تلك المدينة في عصرها.

إنَّنا لا نستَطيعُ أن نعرفَ أنفُسَنا على حقيقتها، إلَّا في نور الإعلان الإلهيّ، ولا نستطيعُ أن نستقبلَ الإعلانَ الإلهيَّ إلَّا ونحن مستعدُّون لأنْ نفحَصَ أنفسَنا ونعرفها على حقيقتها؛ لأنَّ الله عندما أعلنَ عن نفسه في الكتاب المقدَّس من

البداية إلى النهاية، لم يُعلِنْ عنها إلَّا في حالةِ "معيَّةٍ" و"شراكةٍ" مع الإنسان. دون شَكّ، هذه العلاقة وتلك الشراكة ليستا على أساس المساواة (حاشا!) ولكنَّها شراكةٌ مبنيَّةٌ على المحبَّة المتواضِعة من جانب الله، والطاعة الخاضعة من جانب الإنسان.

الله هو خالقُ كلِّ شيء، والإنسانُ مخلوقٌ من العَدَم. وقد نَبعَتْ كلُّ مآسي الإنسان من نسيانه- أو تَناسيه- هذه الحقيقة، ورغبته المحمومة في أن يكونَ إلهَ نفسه. صحيحٌ أنَّ الله محِبٌّ ومحبوبٌ في ذاته قبل أن يخلقَ الإنسان، لكنَّه لم يُرِدْ أن يظلَّ هكذا، بل أرادَ بِسلطانِه المطلَق أن يخلقَ كائنًا فريدًا يستَطيعُ أن يكونَ معه في حالةِ صداقةٍ وشراكة، فخلقَ الإنسان.

ويشهَدُ الكتابُ المقدَّسُ أنَّ الله كان صديقَ الإنسانِ من البداية. ألم ينادِ الله آدمَ- كما يُنادي الإنسانُ صديقَه- حتَّى بعد أن أخطأ وعصى قائلًا: "آدم أين أنت"؟ ألم يُعرِّفْ إلى نفسِه خلال تاريخ الآباء والعهد القديم كلِّه أنَّه: "إله إبراهيم، وإله إسحاق، وإله يعقوب"، فكان كالأب الذي يفخرُ بأنْ يُكنّي نفسَه بأبنائه؟ أوَلَمْ يتكلَّمْ بشأن إبراهيم واصفًا إيَّاه بلقب "خليل"[٦٤] الله؟ ألم يتكلَّمْ إلى موسى وجهًا لوَجهٍ كما يكلِّمُ الإنسان صاحبَه[٦٥]، فدُعِيَ موسى "كليم الله"؟

لم يكتَفِ الله بهذه الدَّرجة من "القُرب" من الإنسان؛ ففي الوقت الذي يُسمِّيه الإنجيل "ملء الزمان"، قرَّرَ الله أن يعملَ عملًا حاسمًا من الاقتراب من الإنسان والارتباط به، فجاء السيِّد المسيح إلى عالمنا. وفي القرون الأولى للمسيحيَّة،

---

٦٤) إشَعياء ٤١: ٨.

٦٥) خروج ٣٣: ١١.

كانتْ حقيقةُ تَجسُّد السيِّد المسيح وصليبِه وقيامته الحدثَ الذي كان يشغلُ بالَ كلِّ المؤمنين الذين أصابَتْهُم دهشةٌ شديدة. كيف يقتربُ الله هكذا؟ كيف لله المتعالي البعيد أن يصيرَ هكذا قريبًا من الإنسان؟ وقد أوجَزَ بولسُ الرسول هذا الانبهار في عبارته المشهورة في العهد الجديد: "عَظيمٌ هُو سرُّ التَّقوى: الله ظَهَرَ في الجسد" (١تيموثاوس ٣: ١٦). ومنذ ذلك الحين صارَ اللَّاهوتُ المسيحيُّ يتميَّزُ بِكَونِه لاهوتَ التجسُّد.

دون أدنى شكّ، أن يصيرَ "الكلمة" جسدًا ويحلَّ بيننا كان عملًا رهيبًا من التَّنازُل الإلهيّ، لكنَّه لم يكُنْ مَوقفًا جديدًا، بل كان تتويجًا لرغبته المعلَنة منذ البداية في أن يقتربَ من الإنسان، وتكونَ ألوهيَّتُه مُقترِنةً بإنسانيَّته. كانتْ دهشةُ المعاصرين للسيِّد المسيح ولميلاد الكنيسة الأولى ناتجةً من أنَّهم فَقَدوا رؤيةَ "معيَّةِ" الله التي كانت موجودةً بِوُضوحٍ شديد في العهد القديم. فلَولا ما فعلَه الله نفسُه في يسوع المسيح، لَما استَطَعْنا أن نتكلَّمَ بشأن إنسانيَّة الله، ولَصارَ ذلك مَحضَ شِرْكٍ وتجديف.

ويقول اللاهوتيُّ كارل بارت في كتابه "**إنسانيَّة الله**" ما يلي:

> "في يسوع المسيح، لا انعزالَ ما بين الله والإنسان. بل في المسيح نرى تمامًا الحوارَ التاريخيَّ الذي فيه يتقابَلُ الله مع الإنسان، ويشكِّلان معًا حقيقةَ العهد المقطوع والمحفوظ بينهما[٦٦]. **هذا الميثاقُ الذي بدأ ما بين الله وآدم، واستُعيد ما بين الله وإبراهيم،** وصلَ إلى تمامه في يسوع المسيح، الذي هو في شخصه، الله في شراكةٍ حميمةٍ مع الإنسان، والإنسان في شراكة

٦٦) تكوين ١٥: ١٢-١٨.

حميمةٍ مع الله.[٦٧] إنَّه الربُّ الذي تواضَعَ ليُشاركَ الإنسان، والإنسانُ الذي تَسامى ليُشاركَ الله. إنَّه الكلمة المنطوقة من أعالي السموِّ الإلهيِّ، المسموعة في أعماق الزَّمن السحيق والمكان المحدود. والمعجزةُ هي أنَّ هذا حدثَ بلا اختلاطٍ ولا امتزاج ما بين الإلهيِّ والإنسانيّ، **فيبقى الإلهيُّ ساميًا لا يشبهُه شيءٌ، والإنسانيُّ مخلوقًا تابعًا** ولكنْ أيضًا بلا انفصال بينهما. العجيبُ هو أنَّ الله قدِ اختارَ أن يرتبطَ بالإنسان في يسوع المسيح ارتباطًا وثيقًا لا ينفَصِم؛ وذلك لكي يتوسَّطَ ما بين الإنسان والله، حيث إنَّه يأتي أمام الله بصفته ممثِّلًا للإنسان، كما يأتي إلى البشر بصفته ممثِّلًا لله، مقدِّمًا إلى الإنسان، بالنِّيابة عن الله، نعمةً إلهيَّةً تامَّة، ورافعًا إلى الله، بالنِّيابة عن الإنسان، شكرًا عميقًا وطاعةً كاملة".[٦٨]

الإنسانُ يسوعُ المسيح

جاءَ السيِّدُ المسيحُ ليُعلنَ لنا الإلهَ الحقَّ والحياةَ الأبديَّة.[٦٩] فمهما كانت إعلاناتُ الله عن نفسه قبل السيِّد المسيح، فقد كانَتْ دومًا ناقصةً مُشوَّهة، إذ تشوَّهَتْ صورةُ الله بما نُسقِطُه عليه كثيرًا من صُورٍ "دينيَّة"، فبَدا تارةً إلهًا مُنتَقِمًا جبَّارًا، وتارةً أُخرى بعيدًا غير مُبالٍ. لكنْ لمَّا جاءَ السيِّد المسيح، أعلَنَ لنا أنَّ الله مع كَونه مختلفًا تمامًا عن الإنسان، فهو أيضًا قريبٌ جدًّا وغايةٌ في الاتِّضاع، ويبحثُ عن الإنسان حالُه حالُ أبٍ يبحثُ عن ابنه، لا لِكَونه محتاجًا إليها، بل من فَرطِ حُبِّه

---

٦٧) بحسب مجمع خلقدونية عام ٤٥١م.

68) Karl Barth, *The Humanity of God*, (Louisvile: Westminster John Knox Press, 1996) p. 46-47.

٦٩) ١يوحنَّا ٥: ٢٠.

لها. لقد كانت هذه الصورةُ حاضرةً دومًا في أسفار العهد القديم[٧٠]، لكنْ عمومًا لم يدركْها الشعبُ اليهوديّ، لا سيَّما أغلبِ الذين عاشوا وقتَ مجيء السيِّد المسيح، الذي جاء ليُغيِّرَ فكرةَ أنَّ الكبيرَ ينبغي أن يكون "مُتكبِّرًا"، فبالنِّسبة إلى السيِّد المسيح، يكونُ الذي يحاولُ أن يكبِّرَ نفسَه هو الصغير لا الكبير، أمَّا الكبير حقًّا فهو شخصٌ يشعرُ بالأمان أن يتَنازلَ ويتَّضعَ وهو واثقٌ بأنَّ هذا لن يُنقِصَ من قدره البتَّة.[٧١]

لقد أتى السيِّدُ المسيح ليس فقط ليُعلنَ لنا عن ماهيَّة الله الحقيقيّ، بل ليُعلنَ لنا أيضًا عن ماهيَّة الإنسان الحقيقيّ. لذا يدعوه العهد الجديد "آدم الأخير".[٧٢] لقد تشوَّهتْ صورةُ الله في الإنسان، وتشوَّه الإنسانُ جدًّا لأنَّه سقط من العلاقة بالله، وعاش قرونًا وأجيالًا بعيدًا عنه. لذا، فإنَّنا عندما نتكلَّم بشأن "إنسانيَّة الله"، فعادةً ما يكونُ وَقْعُ العبارة منفِّرًا وغريبًا. فكيف يمكنُ لله أن يُنسَبَ إلى هذا الإنسان الفاسد؟ غير أنَّ الإنسانَ الحقيقيَّ الذي خلقَه الله حسنًا جدًّا، وارتَضى أن يكونَ خليفته في الأرض وحاملًا لصورته- لم يكُنْ فاسدًا هكذا مثلنا. ومع أنَّه كان مخلوقًا، فقد كان مخلوقًا فردوسيًّا جميلًا يحملُ صورةَ الله بشكلٍ مجيد.

هكذا كان السيِّد المسيح، الذي لم يُخطئ قطّ، ولم ينَلْ منه الشَّيطان ولا مسَّه كما يَمسُّ كلَّ بني البشر. وهذا ما قاله عن نفسه.[٧٣] لقد كان يسوعُ يستمدُّ من طاعته الكاملة لله سلطانًا كاملًا على كلِّ شيء في الحياة من حوله. لم تكُنْ إنسانيَّةُ

٧٠) نشيد الأنشاد ٥: ٢، ٦: ٤؛ هوشع ٢: ١٤، ١١: ٤.

٧١) يوحنَّا ١: ١٣-١٥.

٧٢) ١كورنثوس ١٥.

٧٣) يوحنَّا ١٤: ٣٠.

الله هذه إلَّا أعظمَ دَليلٍ على ألوهيَّته التي احتَوَتْ في داخلها الإنسانيَّةَ، وظهرَتْ لنا في خَلْقِ الإنسان الأوَّل، ثمَّ في تجسُّدِ الكلمة، آدمَ الأخير، يسوعَ المسيح. فليس سوى الله قادرٌ أن يخلقَ الإنسان من العدم، وليس سواه قادرٌ أيضًا أن يتجسَّدَ في صورة إنسانٍ دون أبٍ بشريٍّ ليَكونَ باكورةً لإنسانيَّةٍ جديدةٍ مجيدةٍ تولَد بالإيمان، وتحيا إلى الأبد.

وقد أشارَ سفرُ دانيالَ إلى هذا التجسُّد بهذه الكلمات: "كُنتُ أَرى في رُؤَى اللَّيلِ وإِذا معَ سُحُبِ السَّماءِ مِثْلُ ابنِ إِنْسانٍ أَتَى وجاءَ إلى القَديمِ الأيَّام، فَقرَّبوه قُدَّامَه. فَأُعطِيَ سُلطانًا ومَجدًا ومَلَكوتًا لِتَتَعبَّدَ لَه كلُّ الشُّعوب والأُمَم والأَلسِنة. سُلطانُه سُلطانٌ أَبَديٌّ ما لَن يَزولَ، وَمَلكوتُه ما لا يَنْقَرض" (دانيال ٧: ١٣، ١٤). كما توسَّعَ في وَصْفِ ابنِ الإنسان سفر "أخنوخ"، وهو من الأسفار المكتوبة في فترة ما بين العهدَين (نحو سنة ٢٠٠ قبل الميلاد). في هذا السِّفر، وُصِفَ ابنُ الإنسان أنَّه "المختار" والذي له روحُ الحكمة والفَهْمُ والقوَّةُ والجالسُ على عرش المجد ليَدينَ البشرَ في قيامة الأخيار.

لذلك كان يشيرُ السيِّد المسيح إلى نفسه دائمًا في الإنجيل على أنَّه "ابن الإنسان"، لذا فإنَّ قدراتِه الفائقةَ وسلطانَه الكاملَ على الشياطين والمرض والموت، بل على الطبيعة أيضًا، هي الدليلُ على أنَّه هو بالفعل ابنُ الإنسان المشارُ إليه في سفر دانيال.

الله هو أصلُ الوُجود وهو السيِّد وصاحب السُّلطان. إنَّه المبادِرُ الذي منه وبه وله كلُّ الأشياء. هو صاحبُ الحرِّيَّة الكاملة أن يخلقَ من العَدَم، كما أنَّه قادرٌ أن يُعيدَ إلى العدم. الفريدُ في إعلان يسوع المسيح، هو أنَّ هذا الإله كُلِّيَّ الوُجود والقوَّة والعلم والحضور قدِ اختارَ بإرادته الحرَّة تمامًا أن يستَخدمَ حُرِّيَّته المطلَقة وقوَّته

غير المحدودة ليَتنازَلَ للإنسان، ويُعطيَه الإنسانَ، ويمتدَّ إليه، ويشاركَه، ويعيشَ في علاقة به. ذلك الإنسانُ الذي خلقَه من العدم ويستطيع في أيِّ وقتٍ شاء أن يعيدَه إليه، لكنَّه اختار دون رجعةٍ ألَّا يُعيدَ الإنسانَ إلى الفَناء، بل أن يمنحَه الحياةَ الأبديَّة. هنا يتوقَّفُ كلامُ العقل ولا يملكُ القلبُ إلَّا أن يُغنِّي...

أنشودةُ التجسُّد[٧٤]

لماذا لم تعشَقِ المجرَّاتِ الكَونيَّة الممتدَّة في عُمقِ الأزل
وعشقْتَ ممرَّاتٍ طينيَّةً ضاربةً في عمقُ أوردَتي شاربةً من دمائي الأمل؟

لِمَ لَمْ تعشَقْ صخورًا ناريَّةً ولا انفجاراتِ الكواكب
وعشَقْتَ وديانًا رمليَّةً وسرًّا يُقالُ من صاحبٍ إلى صاحب
وبطونَ جبالٍ كالحةٍ وطفلًا في غبشة [عدم وضوح الرؤية] الفجر يشاغِبْ؟

كيف نحتَتْ أناملُكَ عِظامي، وشكَّلتْ لحمَ رفاقي
وعَشِقَتْ تجاعيدَ رجلٍ عجوز، وبشرةَ طفلٍ ورديِّ الملامح
ورجلًا مفتولًا علَّمتْه الأيَّامُ أن يُسامحَ؟

أنا أَسَرْتُكَ في المحبَّة وأنَّا تؤسَرُ
أنا حَصَرْتُك في يَومي وأنَّا تُحصَرَ

لن أطلِقَك الليلةَ حتَّى طلوع الفجر
حتَّى انفجار الكوكب حتَّى تنفَكَّ العُرى

٧٤) أوسم وصفي تُموز/يوليو ١٩٩٨م.

لن ألوذَ يومًا بالمعابد. لن ألوذَ بفاكهةٍ صناعيَّة، حتَّى لو كانت جميلة
فَلْتَكسِرْ حُقَّ فَخِذي وفيه تُنْبِتُ برتقالة ووُرودًا جُورِيَّة
لِيُزْهِرِ الزَّيتونُ على باب قَبري بعيدًا عن الأضواء الفسفوريَّة
واضرِبْ على ناصِيَة الأيَّام فتَنبتَ أزهارًا...وأشعارًا وقلوبًا طريَّة
صَعدْتَ إلى الآفاق الأبديَّة وفي كفِّكَ حفنةٌ من أعصابي
وعباءةٌ من جلدي، وجماعةٌ من أصحابي، وحياتُنا العاديَّة
ما الذي أعجبَكَ فيَّ؟

وأنت خلقْتَ قطعان النُّور ورسمْتَ على وجه العدم أسرابَ الشُّهُبِ
البركانيَّة. أنت خلقْتَ الزمنَ الطوليَّ وعَشقْتَ لحظةَ المخاض
ولحظةَ الصِّدقِ اليوميَّة. أوقفْتَ الزمنَ لتَشهَدَ ميلادَ مُهرةٍ سمراء في عُمْقِ
مزارعَ بعيدة، في فَقْرِ أُسرةٍ وحيدة، وبيوتٍ تحت الجسر منسيَّة
ما الذي أعجبَكَ فيَّ؟

حتَّى اشتركتَ في ضلوعي وأرهفتَ سماعَك في الظلام
لهديل الحمام ولنبضِ دموعي
كيف ضَبَطْتَ إيقاعَ المطر على رنين أحزاني
والقمرَ المراهِقَ كيف عَلَّمتَه أين يقع... عنواني؟
ما الذي أعجبَكَ فيَّ؟

وأنا منسوجٌ في عدم الاكتمال وفي غياهِبِ جهلٍ وخطيَّة
كيف وقعْتَ في عشقي وفقداني لذاكرتي... يمتدُّ أجيالًا؟
كيف وقعْتَ في عشقي حتَّى قتلَك العِشْق وقتلْتَ به الموتَ؟
قل لي كيف أقعُ يا ربُّ في هذا العِشق، وأعيشُ فيه حياةً أبديَّة

الفصل ٧

الذاتُ الحقيقيَّة

نسمة[٧٥] القدير التي تحمَلُ صورتَه

بين أشجار الجنَّة، كان آدم وحوَّاء يتَمَشيَّان. يَقطِفان من ثمرها، ويأكُلان في سعادة. يعمَلانِها ويحفَظانِها ويسودان عليها بلا تعبٍ ولا عناء. عُريانان ولا يعبَأان، بل أيضًا لا يعرفان شيئًا اسمُه العُري والعار. لقد كانا مُنسَجِمَين تمامًا بعضهما مع بعضٍ ومع الطبيعة كذلك، وكانا قادرَين على ضَبْطِ درجة حرارة جسدَيهما مهما كان الجوُّ المحيط، وذلك دون الاحتياج إلى ملابس، وربَّما كان الجوُّ نفسُه منضبطًا على درجة حرارة جسمَيهما. كانت الحيوانات تُطيعُهما وتهابُهما وتأتمرُ بأمرَيهما، ولم تكُنِ الحشراتُ تهاجمُهما ولا الحيَّاتُ تلدغُهما، ولم تكن هناك أيَّةُ أمراضٍ تصيبُ جسدَيهما. لقد كانت لهما السيادة التامَّة والسلطانُ المطلَق على كلِّ الأرض. أمَّا بالنِّسبة إلى الله، فقد كانا أمامَه دائمًا لا يخافانه، بل يُحِبَّانه ويتَواصَلان معه بسهولة. كانا يسمَعان صوتَه وينفِّذان وصاياه بمحبَّة، وكانا يَجِدان سعادتَهما في طاعته وهو

٧٥) أيُّوب ٣٢: ٨.

يُعطيهُما الحرِّيَّة الكاملة في كلِّ ما يفعلان؛ لأنَّ إرادتَهما كانت مُطابِقةً لإرادته، وفرحُهما كان فرحَه، وأحلامُهما لم تكن إلَّا مشيئتَه.

كانا أمام الله، وكان الله معهما دَومًا، لكنَّه لم يكُنْ يراقبُهما مثلَما تفعلُ كاميرات المراقَبة، بل تركَ الله لهما الأرضَ ليَسوداها بحرِّيَّةٍ كاملة. فبَعدَ أن خلقَ الله الأرضَ وما عليها، استَراحَ في اليوم السابع، بمعنى أنَّه "سلَّمَ السُّلطة" على الأرض بالكامل إلى الإنسان، وصارَتِ الأرضُ كأنَّها هيكلٌ كبيرٌ استَراحَ الله فيه، حيث يستمتعُ فيه بالشَّركة مع الإنسان، كما يستمتعُ الإنسانُ بعِبادته لله هناك. وليس المقصودُ بالعبادة طقوسًا وفرائضَ، بل هو قمَّةُ الاستمتاع بالخالق ومشاركته في الحبِّ والإبداع. أمَّا عن لقاء الله بالإنسان، فلم يكُنْ إجباريًّا بل كان بكامل الحرِّيَّة والاختيار.[٧٦] ولكي لا ينسى الإنسانُ حقيقةَ أنَّه مخلوقٌ وليس خالقًا، وضعَ الله شجرةً واحدةً في وسط الجنَّة غيرَ مسموحٍ للإنسان بأن يأكُلَ منها، وهي "شجرةُ معرفة الخير والشَّرّ"، ليس لأنَّ الله لا يريدُ للإنسان أن يعرفَ الخيرَ من الشَّرّ، بل لأنَّه كان يُريدُه أن يعرفَهما من خلال الله وليس بمعزلٍ عنه. وليس هذا من باب السيطرة عليه والتحكُّم فيه، بل ليَظَلَّ الإنسانُ متذكِّرًا حقيقةَ أنَّه مخلوقٌ وأنَّ السلطانَ الذي يمارسُه على الأرض ليس بِقُوَّته، بل هي قوَّة الله الممنوحة له ليستخدمَها بحرِّيَّةٍ تحتَ سلطانِ الله.

صورةُ الله

خلقَ الله الإنسانَ على صورته وشَبَهه. وهذا يعني لنا أنَّ للإنسانِ كِيانًا روحيًّا عاقلًا، أخلاقيًّا حرًّا وخالدًا مرتبطًا بكِيانٍ جسديٍّ خاضع.

---

٧٦) تكوين ٣: ٩.

ويَعني هذا الكِيانُ الروحيُّ أنَّه يشعرُ بنَفسِه ووُجودِه وقيمته في ذاته، وليس في شيءٍ يفعلُه أو يملكُه أو في رأي الآخرين فيه. ولأنَّه كِيانٌ أخلاقيٌّ حرّ، فهذا يمنحُه القدرةَ على تمثيل الله في ممارسة سلطانه التامِّ على الخليقة وعلى جسده وسلوكه بلا صراع، فيَفعل ما يختارُه ويرى فيه الصالح، وأمَّا ما يرى أنَّه مضرّ، فيَهجرُه بسهولةٍ وحرِّيَّة. هكذا كان الإنسانُ الأوَّل (آدم وحوَّاء) في جنَّة عَدْن. كان له كِيانٌ وُجوديٌّ روحيٌّ يشعرُ بالقيمة حتَّى وهو عارٍ من أيِّ شيءٍ وكِيانٍ أخلاقيٍّ يستطيعُ أن يطيعَ الناموسَ الأخلاقيَّ الذي وضعَه الله في ضمير الإنسان، بكلِّ حرِّيَّةٍ وراحةٍ وحُبٍّ كمَنْ يفعلُ مشيئتَه هو. وله جسدٌ خاضعٌ تمامًا لإرادته، كما تخضعُ له أيضًا كلُّ الطبيعة المادِّيَّة المحيطة من جمادٍ ونَباتٍ وحيوان. يَصِفُ سي. أس. لِويس هذا الكائنَ الفردوسيَّ (Paradisal Man) بقوَله:

> "لقد كان اختيارُ ذلك الإنسان الفردوسيِّ دائمًا هو أن يطيعَ مشيئةَ الله. وفي إطاعته مشيئة الله كان يحقِّقُ أيضًا لذَّته؛ لأنَّ الأعمالَ المطلوبةَ منه آنذاك كانَتْ متوافِقةً مع رغباته التي كانت لا تَزالُ طاهرةً وبلا لَوم، والسببُ الآخر هو أنَّ خدمةَ الله وعبادته كانتا بالنسبة إلى هذا الإنسان الفردوسيِّ اللذَّةَ القُصوى التي من دونها تتبدَّدُ كلُّ لذَّةٍ أُخرى".[٧٧]

هذه هي الذاتُ الحقيقيَّةُ للإنسان كما خلقَها الله. ومن الضروريِّ هنا أن نتذكَّرَ أنَّ الصِّفةَ المحوريَّة لهذا الكِيان الإنسانيِّ بأبعاده الثلاثة هي أنَّه **كِيانٌ مخلوق**، أي أنَّ قوَّتَه الوُجوديَّة، وحرِّيَّتَه الأخلاقيَّة، وقدرتَه التامَّة على إخضاع الجسد هي من الله وليست منه، من ثَمَّ فهي لا تعملُ بشكلٍ كاملٍ وتامٍّ إلَّا من خلال

77) C.S. Lewis, *The Problem of Pain*. (San Francisco: HarperOne, 2001).

علاقةٍ كاملةٍ من الحبِّ غير المشروط والطاعة التامَّة لله. أي أنَّ الإنسانَ لا يشعُرُ بالأمان في نفسه إلَّا إذا كانَتْ نفسُه هذه في الله، ولا يستطيعُ أن ينالَ الحرِّيَّة الأخلاقيَّة ليفعَلَ ما يريدُه ولا يفعلُ ما لا يريدُه إلَّا إذا كان خاضعًا للنَّاموس الأخلاقيِّ الإلهيّ. ولا يستطيعُ أن يُخضعَ جسدَه لروحه إلَّا إذا كانَتْ روحُه خاضعةً لله.

كان ذلك في إطارِ عَهدٍ أو ميثاقٍ ما بين الله والإنسان يمكنُ أن نسمِّيَه "عهد الخليقة" (The Creation Covenant). في هذا الميثاق، كانَتْ مسؤوليَّة الله هي أن يمدَّ الإنسانَ بالقوَّةِ الروحيَّة والجسديَّة المستمرَّة، ويمنحَه الحرِّيَّة ليستخدمَها بنفسه دون سيطرةٍ أو قمع. وكانت مسؤوليَّة الإنسان أن يمارسَ هذه الحرِّيَّةَ في حدود طاعة الله، مدركًا أنَّه مخلوقٌ وليس صاحبَ هذه القوَّة.

صفاتُ الذات الحقيقيَّة

قبل أن نَصِفَ هذه الذاتَ الحقيقيَّة، علينا أن نعترفَ أنَّ مواجَهَةَ هذه الأوصاف تجعلُنا نشعرُ بأنَّها أمرٌ مثاليٌّ خياليٌّ ينتمي إلى عالم الأحلام والمدينة الفاضلة. إلَّا أنَّنا على الرُّغم من ذلك نحاولُ الوُصولَ إليها ونتذمَّرُ من أنفسنا عندما نفشلُ في ذلك، ونتذمَّرُ من البشر الآخرين عندما لا نجِدُها فيهم، ونمتدحُ أيَّ ظُهورٍ لها في أيِّ إنسانٍ، وإنْ كان باهتًا. نحلمُ ثمَّ نيأسُ ونعودُ إلى الحلم ولا نتوقَّفُ عن الحلم والمحاوَلة والفشل. وتظلُّ هذه الأحلامُ دليلًا على وُجودها في أعماقِ كِيانِنا حبيسةً غير متحقِّقة. ولعلَّ هذا التَّوقَ هو الدَّليلُ على أنَّنا نحلمُ بالعَودة إلى تلك الحالة الفردوسيَّة التي هي بَيتُنا الذي نشتاقُ إلى العَودة إليه.

فكيف تبدو هذه الذاتُ الحقيقيَّة كما وصفَها الكثيرون من علماء النفس

واللّاهوت؟ يمكن أن نصفَ هذه الذاتَ الإنسانيَّة الأصيلة بالصفات التالية، والتي يمكنُ أن نتأمَّلَ فيها في حالة آدمَ وحوَّاءَ في الجنَّة.

- **تلقائيَّةٌ أصيلة**. أي أنَّها تعيشُ ببساطةٍ وبلا تَصنُّع. لا تُريدُ أن تُثبتَ نفسَها لأحَدٍ أو تُبرِّر نفسَها أمامَ أحَد، ولا تحتاجُ لأن تَرتَديَ أيَّ قناعٍ من مظهرٍ أو سلوكٍ أو مقتنياتٍ تجعلُها تشعرُ بالأمان، وهذا لأنَّها تشعرُ بالأمان في محبَّةِ الله وقبوله التامِّ غير المشروط.
- **مُنفَتِحة**. ونقصد هنا بالانفتاح التَّعرُّضَ وقبولَ الضَّعف والمحدوديَّة (Vulnerability). كان آدمُ وحوَّاءُ عُريانَين وهما لا يخافان ولا يخجَلان. كما أنَّهما كانا خاضِعَين لوَصيَّة الله غير مُعتَرضَين عليها، ولا يشعران بأنَّ وُجودَ الوصيَّة انتقاصٌ من حرِّيَّتهما. كانا يقبَلان حرِّيَّتَهما المحدودة، ويفرحان ويفخران بها. المثيرُ للعَجب هو أنَّ الإنسانَ الأوَّلَ- على الرُّغم من كلِّ ألوان القوَّة والحكمة والذكاء التي كان يتمتَّع بها، والتي تضاهي أضعاف قوَّتنا الإنسانيَّة الحاليَّة- كان مُتَصالحًا مع محدوديَّته بصفته مخلوقًا، بينما لا نستطيعُ نحن الآن أن نعترفَ بضعفنا، بعد أن فَقَدْنا أغلبَ هذه القوَّة؛ لأنَّنا فَقَدْنا "قوَّةَ" الاعترافِ بالضَّعف.
- **قادرةٌ على الثقة**. بسبب الحبِّ والقبول والانفتاح على الضَّعف والقوَّة، تستطيعُ الذاتُ الحقيقيَّةُ أن تثقَ بنفسها وبالآخرين، دون سذاجةٍ أو عنف. بالتَّأكيد، لا يمكنُ أن توجَدَ الثقةُ التامَّةُ إلَّا في إطارِ حالةٍ من الحبِّ والقبول الكاملَين ما بين البشر، وهذا أمرٌ غيرُ متَحقِّقٍ بالكامل في هذا العالم، لذا فإنَّنا لا نستطيعُ أن نعيشَ هذه الحالةَ من الثقة الكاملة.

الكفاية (Good enough parenting). أمَّا إذا لم يحدُثْ هذا، فإنَّ الإنسانَ يكوِّنُ ما يمكنُ تسميَتُه الذات الدفاعيَّة أو الذات المزيَّفة (False Self)، وهي مجموعةٌ من الدفاعات النفسيَّة غير الناضجة مثل الإنكار والكَبْت والتَّبرير والإسقاط وغيرها من الدفاعات اللَّاواعية، وكما أنَّها مجموعةٌ من السلوكيَّات الدفاعيَّة مثل الهوس بالجنس أو بالمال أو بالشهرة أو بالنجاح أو غيرها من السلوكيَّات التي يظنُّ الإنسانُ أنَّها تساعدُه على التَّعايُش مع بيئةٍ فقيرةٍ في المحبَّة والقبول.

يقول وينيكوت أيضًا إنَّ الذاتَ الحقيقيَّة للطِّفل تَنالُ القوَّة عندما تختبرُ ما يمكنُ تَسميَتُه استمراريَّة الوُجود أو تواصُله (Continuity of being) دون أن يقطعَه شيءٌ أو يعكِّر صَفْوَه. وتعطي هذه الاستمراريَّةُ الإنسانَ إحساسًا بالقوَّة الكاملة والحيويَّة والقدرة على التجاوُب مع المثيرات دون أن يتأذَّى منها.[٧٨]

وإنْ كنَّا لا نتَّفقُ مع وينيكوت في أنَّ قوَّةَ الإنسان كاملةٌ، فإنَّ الإنسانَ الأوَّلَ الذي كان يعيشُ في تَصالُحٍ كاملٍ مع الله كان يملكُ قوَّةً، وإنْ لم تَكُنْ كامِلة، فقد كانت تفوقُ بكثيرٍ قوَّتَنا البشريَّة الحاليَّة. في كتابه "مشكلة الألم" يَصِفُ سي. أس. لِويس هذا الإنسانَ الفردوسيَّ كما يلي:

"لقُرونٍ عديدة، أتقنَ الله هذا الشكلَ الحيوانيَّ ليَكونَ في ما بعد الوعاءَ الجسديَّ للبشريَّة، والكِيانَ الذي سينفخُ فيه من روحه ويَضَعُ فيه صورتَه. أعطاه يَدَين يستطيع الإبهام فيهما أن يلمسَ كلَّ الأصابع الأُخرى، وهذا أتاحَ قبضةً أقوى وأكثر استقرارًا علَّمتْه الكتابةَ والفنَّ، وأعطاه فكَّين

78) Kathryn L. Rehberg, *D.W. Winnicott and the Dark Night of the Soul*: A Literature Review and Theoretical Analysis (Azusa, C.A.:UMI Microform, 2008) p. 22.

وأسنانًا تستطيعُ أن تُخرجَ أصواتًا مختلفة تصنعُ اللغةَ والحوارَ والتَّواصُل، ومخًّا معقَّدًا بصورةٍ تُتيحُ له أن يُجريَ كلَّ العمليَّات المادِّيَّة اللَّازمة «لتَجسيد» الأفكار من عالم المعاني إلى عالم ما هو مادِّيٌّ وملموس. ثمَّ في وقتٍ مُحدَّد، قرَّرَ الله أن يُنزِلَ على هذا الكائن نوعًا آخرَ من الوَعي يستطيعُ به أن يدركَ نفسَه ويقول: «أنا»، ويستطيع أن يخرجَ معنويًّا من نفسه، ويراها من نقطةٍ خارجيَّة، ويصفَها ويُراقبَها ويحاورَها، كما يمكنُه أن يعرفَ الله ويحكُمَ على الأُمور ويحدِّد منها ما هو حقيقيٌّ وجميلٌ وصالح، ويستطيعُ أيضًا أن يرتفعَ فوق الوقت ويستقبل مفاهيمَ زمنيَّةً مثل الحاضر والماضي والمستقبل".[٧٩]

وقد أنارَ هذا الوَعيُ الجديدُ كلَّ كِيان الإنسان وتسلَّط عليه، غامرًا كلَّ أجزائه بالنُّور. ولم يكن هذا الوعيُ مُحدَّدًا بجزءٍ واحدٍ من الجسد، أي المخّ، بل كان وعيًا يشملُ جسدَه كلَّه. ونحن نرى صورةً باهتةً لهذا في الطفل الصغير الذي يدركُ بِحَدْسه وبكلِّ جسده- حيث إنَّ مخَّه لم ينمُ بشكلٍ كامل- أمورًا لا يدركُها الكبارُ بتفكيرهم المعقَّد. لقد كان وَعيُ الإنسان في ذلك الوقت كاملًا بل ربَّما كان يتحكَّمُ في أمورٍ لا نستطيعُ نحن الآن أن نتحكَّمَ فيها، مثل الهضم والدورة الدمويَّة وغيرهما. لقد كان جسدُه بالكامل، بكلِّ ما فيه من عمليَّاتٍ عُضويَّةٍ ورغباتٍ جسديَّة، مستَجيبًا تمامًا لإرادته الحرَّة بحيثُ لا يفعلُ أمرًا رُغمًا عنه بكلِّ ما يريدُه فعلًا. ربَّما نرى الآن لمحاتٍ من قُدرةِ الإنسان على تَرويض الوُحوش وتدريبها. هذا كان طبيعيًّا بالنِّسبة إلى الإنسان الأوَّل آدم. ونرى أيضًا في سِيَر القدِّيسين، سواءٌ

79) C.S. Lewis, *The Problem of Pain* (London: Harper Collins, 1940-1996) p. 72.

- **حنونةٌ ورحيمة، تقبلُ الآخرين بسهولة.** ينبُعُ قبولُ الآخرين من قُبولِ النَّفس. فمَن يتقَبَّلُ نفسَه كما هي ولا يشعرُ بأنَّه مهدَّدٌ من الآخرين، يستطيعُ أن يتقَبَّلَهم ولا يتهدَّدُ بقوَّتهم أو مهارتهم؛ لأنَّه لا يشعرُ بأنَّه يعيشُ حالةً من التَّنافُس. فالنِّسبة إليه، يتَّسعُ الحبُّ والقبولُ للجميع. لماذا يتنافَسُ الناس؟ يأتي التنافسُ من فكرةِ أنَّ هناك مركَزًا أوَّلَ واحدًا أو مراكزَ خمسةً أولى. أمَّا عندما يكونُ الكلُّ محبوبًا بالدَّرجة نفسها، فَلِمَ التنافُس؟ مثلًا، في الأسرة التي يحصلُ فيها الأطفالُ على الحبِّ دونَ مُقارنةٍ ولا رَبْطٍ بالإنجاز، تَجِدُ الإخوةَ والأخواتِ يحبُّون بعضُهم بعضًا ويَحْنون بعضهم على بعض.
- **تحسُّ بكلِّ مَشاعِرها بتلقائيَّة.** في جوٍّ من القبول لكلِّ أنواع المشاعر دون إدانةٍ وتأنيب، يستطيعُ الناسُ أن يحسُّوا بكلِّ مشاعرهم ويعبِّروا عنها مهما كانت ودون أيَّة قيود. وفي الوقت نفسه الذي فيه يحسُّون بكلِّ مشاعرهم بحرِّيَّة، يستَطيعون أيضًا إدارةَ هذه المشاعر، ويتحكَّمون فيها بحسب قانون المحبَّة، فلا يجعَلون المشاعرَ تدفعُهم إلى سُلوكٍ فيه ضَرَرٌ لأنفسهم أو للآخرين.
- **قادرةٌ على تَوكيدِ حُقوقها بلُطْف.** ذلك الاتِّزانُ العجيبُ ما بين محبَّةِ النفس والآخرين هي ما يجعَلُنا نعاتِبُ بحُبٍّ عندما تُنتَهَكُ حقوقُنا، كما تجعلُنا في الوقت نفسه لا نعتَدي على حقوقِ الآخرين. عندما يوصينا السيِّدُ المسيح بالذَّهاب إلى الأخ ومعاتَبَتِه إذا كان مخطئًا (متَّى ١٨: ١٥) ومصالَحته إنْ كانَ صاحِبَ حقٍّ (متَّى ٥: ٢٤)، فإنَّنا نَجِدُ هذا صعبًا جدًّا، وهو ما يعكسُ مقدارَ ابتعادنا عن هذه الذات

الحقيقيَّة التي تستطيعُ أن تفعلَ ذلك بسهولة؛ لأنَّها تعيش اتِّزانًا دقيقًا ما بين محبَّة النفس ومحبَّة الآخر.

- **لـمَّاحة.** الذاتُ الحقيقيَّة تستطيعُ أن ترى الحقائقَ بسهولةٍ وحدسٍ بسيطَين ومباشرَين؛ لأنَّها تعيشُ دون أقنعةٍ زائفة. الأقنعةُ والدِّفاعاتُ التي نَرتَديها بشكلٍ تلقائيٍّ كَردِّ فعلٍ على الخوف والخزي تُعطِّلُ قدرتَنا على رؤية الأُمور كما هي، وتَحُدُّ من ذكائنا. عندما نتخلَّى عن هذه الأقنعة في جوٍّ من الحبِّ الكامل الخالي من أيِّ خَوفٍ أو خِزْي، فإنَّنا نستَعيدُ قدرتَنا على الإحساس المباشر بالأمور مثل الأطفال، الذين هم أقربُنا إلى الذات الحقيقيَّة.
- **تستطيعُ أن تستمتعَ بسهولة.** لكي نستمتع، ينبغي أن نكونَ أحرارًا من الخوف والخزي والرغبة في إثبات شيء أو الدفاع عن شيء. الاسترخاءُ والثقةُ هما شرطان للقُدرةِ على الاستمتاع. كما أنَّ العلاقةَ الجيِّدةَ بالنَّفس، والتَّصالحَ مع الجسد والآخرين والكَون هي من شُروط الاستمتاع بالحياة. وتعيشُ الذاتُ الحقيقيَّة المتصالحة هكذا مع نفسها ومع كلِّ البشر ومع الله والكَون.

الذاتُ الحقيقيَّةُ والطفل

يُعدُّ طبيبُ الأطفال الإنكليزيُّ دونالد وينيكوت (Donald Winnicott)، والذي عاش ما بين عامَي ١٨٩٦ و١٩٧١م، أوَّلَ مَن تكلَّمَ بمفهوم الذات الحقيقيَّة والذات المزيَّفة. لقد حسبَ وينيكوت أنَّ الطفلَ يولَدُ بذاتٍ حقيقيَّة (True Self) ملآنةٍ بالطَّاقات والإمكانات الإبداعيَّة الخاصَّة. وتظهرُ هذه الذاتُ الحقيقيَّةُ وتزدهرُ إذا تلقَّى الإنسانُ حبًّا وقبولًا غير مشروطَين من خلال أُبوَّةٍ وأُمومةٍ جيِّدين بما فيه

الكفاية (Good enough parenting). أمَّا إذا لم يحدُثْ هذا، فإنَّ الإنسانَ يكوِّنُ ما يمكنُ تسميَتُه الذات الدفاعيَّة أو الذات المزيَّفة (False Self)، وهي مجموعةٌ من الدفاعات النفسيَّة غير الناضجة مثل الإنكار والكَبْت والتَّبرير والإسقاط وغيرها من الدفاعات اللَّاواعية، وكما أنَّها مجموعةٌ من السلوكيَّات الدفاعيَّة مثل الهوس بالجنس أو بالمال أو بالشهرة أو بالنجاح أو غيرها من السلوكيَّات التي يظنُّ الإنسانُ أنَّها تساعدُه على التَّعايُش مع بيئةٍ فقيرةٍ في المحبَّة والقبول.

يقول وينيكوت أيضًا إنَّ الذاتَ الحقيقيَّة للطِّفل تَنالُ القوَّة عندما تختبرُ ما يمكنُ تَسميَتُه استمراريَّة الوُجود أو تواصُله (Continuity of being) دون أن يقطعَه شيءٌ أو يعكِّر صَفْوَه. وتعطي هذه الاستمراريَّةُ الإنسانَ إحساسًا بالقوَّة الكاملة والحيويَّة والقدرة على التجاوُب مع المثيرات دون أن يتأذَّى منها.[٧٨]

وإنْ كنَّا لا نتَّفقُ مع وينيكوت في أنَّ قوَّةَ الإنسان كاملةٌ، فإنَّ الإنسانَ الأوَّلَ الذي كان يعيشُ في تَصالُحٍ كاملٍ مع الله كان يملكُ قوَّةً، وإنْ لم تَكُنْ كاملة، فقد كانت تفوقُ بكثيرٍ قوَّتَنا البشريَّة الحاليَّة. في كتابه "مشكلة الألم" يَصِفُ سي. أس. لِويس هذا الإنسانَ الفردوسيَّ كما يلي:

> "لقُرونٍ عديدة، أتقنَ الله هذا الشكلَ الحيوانيَّ ليَكونَ في ما بعد الوعاءَ الجسديَّ للبشريَّة، والكِيانَ الذي سينفخُ فيه من روحه ويَضَعُ فيه صورتَه. أعطاه يَدَين يستطيع الإبهام فيهما أن يلمسَ كلَّ الأصابع الأُخرى، وهذا أتاحَ قبضةً أقوى وأكثر استقرارًا علَّمتْه الكتابةَ والفنَّ، وأعطاه فكَّين

78) Kathryn L. Rehberg, *D.W. Winnicott and the Dark Night of the Soul*: A Literature Review and Theoretical Analysis (Azusa, C.A.:UMI Microform, 2008) p. 22.

وأسنانًا تستطيعُ أن تُخرجَ أصواتًا مختلفة تصنعُ اللغةَ والحوارَ والتَّواصُل، ومخًّا معقَّدًا بصورةٍ تُتيحُ له أن يُجريَ كلَّ العمليَّات المادِّيَّة اللَّازمة «لتَجسيد» الأفكار من عالم المعاني إلى عالم ما هو مادِّيٌّ وملموس. ثمَّ في وقتٍ مُحدَّد، قرَّرَ الله أن يُنزِلَ على هذا الكائن نوعًا آخرَ من الوَعي يستطيعُ به أن يدركَ نفسَه ويقول: «أنا»، ويستطيع أن يخرجَ معنويًّا من نفسه، ويراها من نقطةٍ خارجيَّة، ويصفَها ويُراقبَها ويحاورَها، كما يمكنُه أن يعرفَ الله ويحكُمَ على الأُمور ويحدِّد منها ما هو حقيقيٌّ وجميلٌ وصالح، ويستطيعُ أيضًا أن يرتفعَ فوق الوقت ويستقبل مفاهيمَ زمنيَّةً مثل الحاضر والماضي والمستقبل".[٧٩]

وقد أنارَ هذا الوَعيُ الجديدُ كلَّ كِيان الإنسان وتسلَّط عليه، غامرًا كلَّ أجزائه بالنُّور. ولم يكن هذا الوعيُ مُحدَّدًا بجزءٍ واحدٍ من الجسد، أي المخّ، بل كان وعيًا يشملُ جسدَه كلَّه. ونحن نرى صورةً باهتةً لهذا في الطفل الصغير الذي يدركُ بِحَدْسه وبكلِّ جسده- حيث إنَّ مخَّه لم ينمُ بشكلٍ كامل- أمورًا لا يدركُها الكبارُ بتفكيرهم المعقَّد. لقد كان وَعيُ الإنسان في ذلك الوقت كاملًا بل ربَّما كان يتحكَّمُ في أمورٍ لا نستطيعُ نحن الآن أن نتحكَّمَ فيها، مثل الهضم والدورة الدمويَّة وغيرهما. لقد كان جسدُه بالكامل، بكلِّ ما فيه من عمليَّاتٍ عُضويَّةٍ ورغباتٍ جسديَّة، مستَجيبًا تمامًا لإرادته الحرَّة بحيثُ لا يفعلُ أمرًا رُغمًا عنه بكلِّ ما يريدُه فعلًا. ربَّما نرى الآن لمحاتٍ من قُدرةِ الإنسان على تَرويض الوُحوش وتدريبها. هذا كان طبيعيًّا بالنِّسبة إلى الإنسان الأوَّل آدم. ونرى أيضًا في سِيَر القدِّيسين، سواءٌ

79) C.S. Lewis, *The Problem of Pain* (London: Harper Collins, 1940-1996) p. 72.

الواردة في الكتاب المقدَّس أم في تاريخ الكنيسة، الذين اقترَبوا بنِعمةِ الله من حياة الذات الحقيقيَّة، كيف أنَّهم روَّضوا وحوشًا وأفاعيَ بكلمةٍ واحدةٍ ذات سلطان.

إنَّنا نولَدُ بهذه الذات الحقيقيَّة في عالمٍ ساقطٍ بعيدٍ عن الله، لذا فإنَّنا سُرعانَ ما نكتَسبُ من البشر والعالم من حَولنا ذواتٍ مزيَّفةً تختلفُ من واحدٍ إلى آخر بحسب نَوع شخصيَّته وطبيعتها، ووَفقًا لقدراته وخلفيَّته العرقيَّة والدينيَّة. ومع تَعاقُبِ الأجيال، صارَ بعضٌ من هذه السلوكيَّاتِ الدفاعيَّة متَوارثًا في الجينات والحمض النَّوَويِّ نفسِه. ولا يمكنُ أن نعيشَ بالكامل هذه الحالةَ الفردوسيَّةَ في هذا العالم. غير أنَّ الغريبَ هو أنَّنا نتوقُ إليها؛ لأنَّها مَوجودةٌ فينا مثل حُلُمٍ قديم نابع من الفردوس المفقود. يَصِفُ اللَّاهوتيُّ الوُجوديُّ پول تيليك هذه الذاتَ الحقيقيَّةَ بأنَّها طبيعةُ الإنسان الجوهريَّة، وحالةٌ من "البراءة الحالمة" وُجدَت تاريخيًّا (في جنَّة عدن) كما يَصِفُ لويس، أو هي موجودةٌ جوهريًّا فينا مثل حُلُم لم يتحقَّقْ أو لم يُفعَّلْ بعد. ربَّما نستطيعُ أن نلمحَ، ولو لمحةً بسيطةً، هذه الحالة الفردوسيَّة في سنواتِ الطفولة الأولى، لكنَّنا سُرعانَ ما نفقدُها.

الذاتُ الحقيقيَّةُ والسيِّدُ المسيح

الصفةُ الأهمُّ في هذه الذات الحقيقيَّة هي أنَّها تبحَثُ عن الله- تبحَثُ عن الله الحقيقيّ، مصدرِ الحبِّ الكامل والقبول غير المشروط، كما يبحَثُ جنينُ البذرة عن الماء الحيِّ لكي ينبتَ وينمو. لا يحتاجُ أحَدٌ لأنْ يُعلِّمَ هذا الجنينَ أنَّ حياتَه هي الماء. هذه الذاتُ تبحَثُ عن الصورة الحقيقيَّة لله. إنَّها تبحَثُ عن الله الذي أعلَنَ لنا نفسَه في يسوع المسيح الذي جاء لكي يعلنَ ملكوتَ الله- ملكوتَ

النعمة والمحبّة غير المشروطة. لكنَّ هذه الذاتَ الحقيقيَّةَ مأسورةٌ ومُستعبَدةٌ تمامًا للجَسَد الذي هو الطبيعةُ البشريَّة في استقلالها عن الله (الخطيَّة) والذي يُنتجُ ذاتًا مزيَّفةً (الإنسان العتيق) التي سنتكلَّم بشأنها بالتفصيل في الفصل التالي.

لذا فإنَّ الذاتَ الحقيقيَّة لا تستطيعُ أن تدخُلَ ملكوتَ الله إلَّا بعدَ أن يحرِّرَها الله، وتستجيبَ هي لهذا العمل المحرِّر فتشربَ من الماء الحيّ، وتمزِّقَ بنفسها قشرتَها المزيَّفة التي كانت تظنُّ أنَّها دفاعُها المثاليُّ في وجه الجفاف والحشرات، في بيئةٍ يَغيبُ عنها الحبّ، إلَّا أنَّها يجبُ أن تتمزَّقَ الآن لتَحيا الذاتُ الحقيقيَّة وتنمو.

وسنرى في الجزء الثالث من هذا الكتاب، مقابلاتِ السيِّد المسيح مع شخصيَّاتٍ لها نَوعيَّاتٌ مختلفة من الذَّوات المزيَّفة (الإنسان العتيق). وفي كلِّ مرَّةٍ كان السيِّدُ المسيح قادرًا أن ينفَذَ عبر هذه الدِّفاعات ليَرى ذواتهم الحقيقيَّة، ويدركَ جوعَها وعطشَها إلى الله والحبِّ والقبول.

- فها هو يقابلُ امرأةً سامريَّة عاشَتْ ذاتًا مزيَّفة من محاوَلاتِ الحصول على الحبِّ من خلال العلاقات العاطفيَّة والجنسيَّة، التي صارتْ زيجاتٍ متعدِّدةً لكنَّها ظلَّتْ عطشى، على الرُّغم من شربها الماء، كَمَنْ يشربُ ماءً مالحًا يُشبِهُ الماءَ العذب (الحيّ) في كلِّ شيء، غير أنَّ مَن يشربُه يعطشُ أيضًا ولا ارتواء. لم يواجِهِ السيِّد المسيح تلك المرأة بخطيَّتها قبل أن يواجِهَها بجوعها وعطشها وتَوقِ ذاتها الحقيقيَّة إلى الحبِّ الحقيقيِّ والماء الحيّ.
- ويقابل شابًّا غنيًّا مستعبَدًا لحبِّ المال والتديُّن الزائف، لكنَّه يرى ذاتَه

الحقيقيَّة التوَّاقة إلى ملكوت الله. وقبل أن يقولَ له أيَّ شيءٍ ويواجِهَه بذاته المزيَّفة، نظر إليه وأحبَّه. أحبَّ فيه تلك الحالة من عدم الرضا التي تجعَلُه يبحثُ عن الله والحياة الأبديَّة.

- ويقابلُ أيضًا عشَّارًا، بل رئيسَ العشَّارين، على الرُّغم من سلطته وغناه كان يشعر بحاجته إلى شيء ما. كانت ذاتُه الحقيقيَّةُ تتوقُ فيه إلى الحبِّ غير المشروط. وكان يدركُ في أعماقه أنَّ حبَّ الناس واحترامهم له هو نابعٌ من قشرته الخارجيَّة من المال والنفوذ.
- ونقرأ في الإنجيل أيضًا أنَّه قابَلَ ناموسيًّا ورأى أنَّه ليس بعيدًا عن ملكوتِ الله على الرُّغم من تديُّنه وتعلُّقه المريض بحرفيَّة الناموس. حيث إنَّ ذلك الناموسيَّ أعمَلَ عقلَه (أجاب بعقل) وأدركَ بفطرته (ذاته الحقيقيَّة) أنَّ ملكوتَ الله هو ملكوتُ المحبَّة وليس ملكوت الطقوس والتقاليد. وفي واقعنا، نرى كثيرًا "ناموسيِّين" منتَمين إلى الكثير من النَّواميس والأديان، لكنَّ ذاتَهم الحقيقيَّة المخلوقةَ على صورةِ الله تَنبضُ فيهم بالرَّغبة في دخول هذا الملكوت، وتشهَدُ أنَّهم بالحقيقة ليسوا بعيدين عن ملكوت الله. فالذاتُ الحقيقيَّة هي القلوب التي يقولُ عنها القدِّيس أوغسطينوس إنَّها ستَظلُّ قَلِقةً مضطربة إلى أن تَجِدَ راحتَها فيه.[٨٠]

لا يستطيعُ أن يرى هذه "الذاتَ" إلَّا السيِّدُ المسيح؛ لأنَّه "نور العالم" الذي

---

٨٠) "اعترافاتُ القدِّيس أوغسطينوس". St. Augustine's Confessions (Lib 1,1-2,2.5,5: CSEL 33, 1-5).

ليس فيه ظلمة. هو وحدَه الذي ليس لرئيس العالم فيه شيء، وهو وحدَه القادرُ أن يدعوَ هذه الذاتَ لتَخرجَ إلى الحياة. ونحن البشرَ نشعرُ بأنَّ عمليَّةَ الخروج هذه هي "موت"؛ لأنَّها مَوتٌ للذَّات التي ظننَّاها دائمًا ذاتَنا الحقيقيَّة، بينما هي في الواقع الولادة لبدء الحياة الحقيقيَّة.

الفصل ٨

الذاتُ المزيَّفة

مَوتُنا الذي نَظنُّه حياة

إنْ كانَ خَلْقُ الله للإنسان على صورته هو تاريخُ ميلادِ الذات الحقيقيَّة، فالسُّقوط هو تاريخُ ميلادِ الذات المزيَّفة.[٨١] يقدِّم لنا سفرُ التكوين قصَّة السقوط على النحو التالي:

"وكانَتِ الحيَّةُ أحيَلَ جميع حيواناتِ البرِّيَّة التي عملَها الربُّ الإلهُ فقالت للمرأة: «أحقًّا قال الله لا تأكُلا من كلِّ شجر الجنَّة؟» فقالت المرأةُ للحيَّة: «من ثمر شجر الجنَّة نأكُلُ وأمَّا ثمرُ الشجرة التي في وسط الجنَّة فقال الله: لا تأكُلا منه ولا تمسَّاه لئلَّا تَموتا». فقالَتِ الحيَّةُ للمرأة: «لن تَموتا! بل

٨١) لا نقصد بالذات المزيَّفة أنَّ هناك محاولةً من صاحبها لخداع الآخرين، بل نقصد أنَّها شيء ليس أصيلًا لأنَّها ليست من خليقة الله، وهي التي يشير إليها بولس الرسول بتعبيرَي «الجسد» و«الإنسان العتيق». ونحن نستخدم تعبير «الذات المزيَّفة» هذا لنؤكِّد أنَّهما ليسا من خلق الله الذي عمل كلَّ شيء حسنًا، وهو مصدر كلِّ عطيَّةٍ صالحة وكلِّ موهبةٍ تامَّة. إلَّا أنَّ الجسد والإنسان العتيق نتجا من تفاعل الذات الحقيقيَّة الصالحة المخلوقة من الله مع الأحوال والناس والله نفسه، وهي في حالة الاستقلال عن الله محاولةً التغلُّب على الخوف والحزي اللذين نتجا عن هذا الاستقلال. ولن يكون لهذه الذات المزيَّفة، التي لم يخلقها الله وجودٌ معه في الحالة الأبديَّة.

الله عالمٌ أنَّه يوم تأكُلان منهُ تنفتحُ أعيُنُكما وتكُونان كالله عارفين الخير والشَّرّ». فرأتِ المرأةُ أنَّ الشجرةَ جيِّدةٌ للأكل، وأنَّها بهجةٌ للعُيون، وأنَّ الشجرة شهيَّةٌ للنَّظر. فأخذَتْ من ثمرها وأكلَتْ وأعطَتْ رجُلَها أيضًا معها فأكل. فانفتحَتْ أعيُنُهما وعَلِما أنَّهما عُريانان. فخاطا أوراقَ تينٍ وصنعا لأنفُسهما مآزر. وسمعا صَوتَ الربِّ الإله ماشيًا في الجنَّة عند هُبوب ريح النَّهار، فاختبأ آدمُ وامرأتُه من وجه الربِّ الإله في وسط شجر الجنَّة. فنادى الربُّ الإلهُ آدم: «أين أنت؟». فقال: «سمعتُ صوتَك في الجنَّة فخشيتُ لأنِّي عُريانٌ فاختَبأت»".

(تكوين ٣: ١-١٠)

قصَّةُ المَصنَع المُغتصَب

كان هناك رجلُ أعمالٍ عصاميٌّ أسَّسَ مصنَعًا ضخمًا، وعَيَّن فيه موظَّفين، وأعطاهم المسؤوليَّات. وجاء إلى أكبر مُعاونيه وقال له إنَّه سيُسافرُ إلى بلادٍ بعيدة ليَستَريحَ بعد تأسيسه هذا المصنع، وسيُعطي المصنعَ لهذا الوكيل ليُديرَه بالكامل ويكونَ رَيعُه له هو وأبنائه. وبعد ذلك، حرَّر له "توكيلًا رسميًّا عامًّا" ليس فقط للإدارة، بل أيضًا بالبَيع والتَّوقيع أمام البنوك والمصالح الحكوميَّة وكلِّ شيء. والقَصْدُ هو أن يمنَحه الحرِّيَّةَ الكاملة للتصرُّف في المصنع كأنَّه مُلكُه. عندئذٍ لا يكونُ هناك ضمانٌ لصاحب المصنع إلَّا العلاقةَ الشخصيَّةَ بينه وبين هذا الوكيل، وأيضًا السلامةَ الروحيَّةَ والأخلاقيَّةَ للوكيل. ولكي يُساعدَ صاحبُ المصنع وكيلَه أن يتذكَّر هو ونسلُه من بعدِه أنَّهم ليسوا أصحابَ المصنع الحقيقيِّين، جعلَ غرفةً واحدةً صغيرة من غرفِ الإدارة وأطلقَ عليها اسم "غرفة المشورة"، وكان الوكيلُ يدخلُها

باستمرار، ومن هناك يتَّصلُ بصاحب المصنع ليَعرضَ عليه كلَّ الخُطَط والأهداف التي كان الوكيلُ يريدُ أن يفعلَها، ولم يكُنْ الوكيل ينفِّذُ هذه الخُطَط إلَّا بموافقة صاحب المصنع. كانت هذه الغرفة أغلبَ الوقت مغلقةً، وقد وُضعَتْ عليها تحت عنوان "غرفة المشورة" لافتةٌ باسْم صاحب المصنع: "فلان الفلاني- صاحب المصنع ومؤسِّسه". وكان صاحبُ المصنع قد حذَّرَ الوكيلَ أنَّه إنْ ألغى هذه الغرفة أو أزال هذه اللافتة، فإنَّ المصنعَ كلَّه سيَنهارُ ويفسدُ إنتاجُه بصورةٍ لن يستطيعَ الوكيلُ إصلاحَها.

بعد أن مارسَ الوكيلُ سلطانَه، ازدهرَ المصنعُ وتضاعَفَ إنتاجُه عدَّة مرَّات، وفتحَ فروعًا له في بلادٍ عديدة بسبب جِدِّ الوكيل وأبنائه واجتهادهم، وكسبوا ملايين، وأبرموا عقودًا للإنتاج من مختلف أنحاء العالم. وفي كلِّ مرَّةٍ يأتي مندوبٌ من دولةٍ ما ليَلتَقي إدارةَ المصنع في المقرِّ الرئيسيِّ ليُحرِّرَ عقدًا ما، كان يرى هذه الغرفةَ الموجودة أمام غرفة الوكيل (المدير) وعليها اسم صاحب المصنع ومؤسِّسه الأصليّ. في هذه المرَّات، كان يشعرُ المديرُ ببعض الحرج. وفي أحَد الأيَّام، وافاه شخصٌ غريبٌ من بلادٍ غريبة ليَقولُ له إنَّه الآن صارَ قويًّا بما يكفي، ولا يمكن أن تَنهارَ هذه المؤسَّسةُ إذا فتح هذه الغرفةَ وأزالَ تلك اللَّافتة؛ لأنَّه صار من غير المقبول بعدَ الآن أن تكونَ هناك غرفة كهذه في مثل هذه الإمبراطوريَّة الاقتصاديَّة العالميَّة، لا سيَّما بعد أن صارت شركةً "متعدِّدة الجنسيَّات" عابرةً للقارَّات.

فقال له الوكيل: "كيف إذًا سأستشيرُ صاحبَ المؤسَّسة؟ أنت تعرفُ أنَّ هذه الغرفةَ هي غرفة المشورة، ومن خلالها أحصلُ على موافقة صاحب المصنع".

- "وهل رفضَ صاحبُ المصنع أيًّا من خُطَطك في السابق؟"

- "لا، لم يرفضَها قَطُّ".

- "إذًا، فكلُّ آرائك صحيحة، وأنت لا تحتاجُ لأنْ تستَشيرَه وتعرفَ منه ما هو خيرٌ أو شرّ. أنت تعرف الخير من الشرّ بنفسك، فلماذا إضاعةُ الوقت؟"

- "لكنْ لا تنسَ أنّي أحصل من هذه الغرفة ليس فقط على المشورة، بل أنا أستمتع فيها بصحبته وتشجيعه. كما أنّي أحبُّه وهو يحبُّني. هذه الغرفةُ تمثّل علاقتي به، وأنا لا أستطيعُ أن أستغنيَ عنها. أنا فيها أتذكّرُ السنينَ الأولى، كما أتذكّرُ أنّي محتاجٌ إلى تلك القوّة العظيمة لكي أُديرَ هذا العملَ الضخم".

- "أظنُّ أنّك تخطّيتَ هذه المرحلةَ الطفوليّة. لكنْ أبقِ على الغرفة لكنِ ادخُلْها وقتَما تشاء، ومارسْ ما يحلو لك، وفي الوقت الذي تريدُ بحسب جدولك الذي صارَ الآن مزدحمًا جدًّا. لقد علمتُ أنَّ أفكارَكَ كلَّها صحيحةٌ، وأنت قادرٌ على معرفة الصواب من الخطأ بمفردك. فلا تُشغِلْ نفسَك بعرضِ كلِّ التفاصيل عليه؛ لأنَّ التفاصيلَ زادَتْ والشركةَ صارَتْ واحدةً من الشركات العالميّة المعروفة. أنت تحتاجُ إلى مرونةِ اتّخاذِ القرار بسرعة. تخيَّل مثلًا أنّه صار لديك ضغطُ عملٍ كبيرٌ، فعندها يمكنُكَ أن تؤجّلَ دخولَ غرفة المشورة يومًا أو يومَين أو أكثر. وعندما تشعرُ بالاحتياج، فادخُلْها في وقتِ فراغك، فأنت تعلَمُ أنّك لست محتاجًا إليها احتياجًا حقيقيًّا لتَعرفَ ما هو الصواب في كلِّ أمر. أنتَ تعرفُه بنفسك، وهو نفسُه شَهِدَ لك بذلك مِرارًا".

فكَّرَ الوكيلُ في الكلام ولاقى هذا الاقتراح هوًى في نفسه، لا سيَّما أنّه كان يشعرُ بغُصَّةٍ في حلقه كلَّما جاءَتْه الوُفودُ ورأى أعضاؤها اللافتة، فتتغيَّر مُعامَلتُهم معه بعد أن كانوا يُظنُّون أنّه صاحبُ المصنع ومؤسِّسه. ثمَّ إنّه لن يقولَ إنّه صاحبُ

المصنع ومؤسِّسه، بل هو فقط سيُزيلُ هذه اللافتة. فهذا ليس كذبًا، بل هو مجرَّدُ إخفاءٍ لحقيقةِ العلاقة الخاصَّة ما بينَه وبين صاحب المصنع الذي هاجَرَ إلى بلادٍ بعيدة منذ سنواتٍ طَويلة.

وهكذا سمعَ الوكيلُ نصيحةَ ذلك الغريب وأزالَ اللافتة من الغرفة وفتحَها، بل وضعَ أيضًا فيها مكتبًا لسكرتيرته الخاصَّة مع الاحتفاظ "بأيقونة" صغيرة في أحَدِ الأركان لمؤسِّس المصنع، وكتبَ تحتها كلامًا كثيرًا جميلًا عنه، لكنْ لم يُشِرْ إلى أنَّه المالكُ الحقيقيُّ للمصنع.

وبمرور الوقت، راحَ كلُّ شيء يتغيَّرُ ليس فقط في المصنع وأسلوب إدارته وإنتاجه، بل أيضًا في شخصيَّة الوكيل نفسه ومشاعره. حيث انتابَه خَوفٌ غريبٌ وانْهارَتْ ثقتُه بنَفسه وبدأ يتَّخذُ قراراتٍ مندفعةً كان أغلبُها خاطئًا، وخسرَ المصنعُ خسارةً فادحةً، كما أنَّ صحَّتَه تدَهوَرَتْ وراح يدمنُ على الخمر والمقامرات، وانهارَ زواجُه وتركَتْه زوجتُه وسافرت مع أحَدِ أصدقائه. أمَّا أولادُه فخاصَموا بعضُهم بعضًا، بل إنَّ الكبيرَ فيهم قتلَ الصغيرَ بسبب صراعٍ على صداقةِ إحدى عارضات الأزياء.

وهكذا كانَتِ النهايةُ المريرةُ التي رآها مالكُ المصنَع مُسبَّقًا، وخاف على وكيله منها.

السقوطُ الإنسانيّ

لا شكَّ أنَّ معظمَنا يستطيعُ أن يخمِّنَ أنَّ قصَّةَ "المصنع" هذه تمثِّلُ قصَّةَ الخليقة والسقوط. فصاحبُ المصنع هو الله الخالق مَصدرُ الوُجود كلِّه وصاحبُه، والوكيل هو الإنسان، وذلك الغريبُ الذي جاءَه بفكرةِ فَتْحِ الغرفةِ وإزالة اللافتة هو الشيطان.

أمَّا الغرفةُ فبالتَّأكيد هي شجرة معرفة الخير والشَّرّ. نسيَ آدمُ أنَّ معرفتَه الخيرَ والشرَّ كانت نابعةً من الله وليس من نفسه، وأنَّ تَطابُقَ رأيِه ورأي الله لم يكُنْ ناتجًا من أنَّ رأيَه الشخصيَّ سليمٌ دائمًا، ولكنْ لأنَّ قلبَه كان طائعًا خاضعًا لله.

في الأصحاحات الأولى من سفر التكوين، يتكلَّمُ الكتابُ المقدَّس بشأن خَلْقِ الله للإنسان بصورةٍ حَسَنةٍ وطاهرة، وأنَّ الله دعا الإنسانَ إلى الإثمار والإبداع وإلى الحياة مع الله في علاقة من التواصُل الحميم. ثمَّ جاءَتْ رغبةُ الإنسان في الاستقلال التي عبَّرَ عنها سفرُ التكوين بتعبير "انفتحَتْ أعينُهما". ودون شكّ، لم تكُنْ عَينا الإنسانِ مغلقتَين من قبل، غير أنَّ المقصودَ هو أنَّه صار يرى نفسَه بمعزلٍ عن الله بعد أن كان يرى "مع الله" دونَما صراع ما بين إرادته وإرادة الله مصدَرِ المحبَّة والقبول والأُبوَّة الحقيقيَّة، فراحَ الإنسانُ يشعرُ بالخوف "خَشيتُ"، وبالعار والخزي "عُريانٌ فَاخْتَبأتُ". فبدأ شعورُه بالأمان يتناقَصُ، وراحَ يحاولُ استخدام أساليبَ دفاعيَّة للسَّيطرة على واقعه وخَوفه وخِزْيِه. هذا ما أشارَ إليه الكتابُ المقدَّس رمزيًّا في صورة أوراق التِّين التي هي، في النهاية، محاوَلاتٌ للسَّيطرةِ حتَّى وإنِ اتَّخذَتْ صورةَ أعمالٍ صالحةٍ وتديُّنًا. هكذا ظلَّ الخوفُ والخزيُ يُورَّثان في البشر على مرِّ الأجيال، ويولَدُ الأطفالُ في كلِّ جيلٍ فيَنتقلُ إليهم دون أن يَدروا "قَيروس" الخوف والخزي. ويلتحفون بالذَّات المزيَّفة دون أن يشعُروا أو يختاروا، تمامًا كما أنَّ المولودَ في الأَسرِ يولَدُ أسيرًا رغمَ أنَّه هو نفسُه لم يَقَعْ في الأَسْر.

أوراقُ التِّين

الذاتُ المزيَّفة (والتي يُشيرُ إليها بولسُ الرَّسولُ بتعبير "الإنسان العتيق"[٨٢]) هي

٨٢) رومية ٦: ٦؛ أفسس ٤؛ كولوسّي ٢.

مثل أوراق التِّين الذي صنعَها آدمُ وحوَّاءُ ليُغطِّيا عُريَهما. هي قناعٌ أو قشرةٌ تدافعُ بها الذاتُ الحقيقيَّةُ عن نفسها في بيئةٍ فقيرةٍ بالحبِّ غنيَّةٍ بالخوف والخزي، ولا سيَّما الخوفِ من الله والخزي أمامه. وكما أنَّ هذه القشرةَ تحمي، فهي أيضًا تُعيقُ الحياةَ والنُّموّ. إنَّ لكلٍّ منَّا في هذه الحياة البعيدة عن الله ذاتًا مزيَّفة، لكنَّ نَوعَها يختلفُ بحسب نَوعِ البيئة والأُسرة والمجتمع، وأيضًا وَفقَ نَوع الشخصيَّة والمهارات والإمكانيَّات؛ فكلُّ واحدٍ يستخدمُ القناعَ الذي يُجيدُ استخدامَه ويحقِّقُ له القُبولَ "المشروط" ممَّن هم حَوله، فيُسكِّن به خَوفه وخِزْيَه وجوعَه العميقَ إلى القُبول غير المشروط والحبِّ الحقيقيّ. كما أنَّ "سُمكَ" الذاتِ المزيَّفة وقوَّتَها تختلفُ من شخصٍ إلى آخر بحسب شِدَّةِ الجوع إلى الحبِّ الذي كان يعانيه في نشأته: فكلَّما كان الجوعُ والجفافُ شديدًا، كانت الذاتُ المزيَّفةُ قويَّةً وسميكةً، وكان التمسُّكُ بها شديدًا، وشعَرْنا بأنَّها ذواتُنا الحقيقيَّة وأنَّنا من دونها نموتُ ونفنى. على العموم، تتميَّزُ الذاتُ المزيَّفة بِسِماتٍ عدَّة ربَّما تكونُ مشترَكةً فينا كلِّنا بدرجةٍ أو أُخرى:

- **غيابُ التلقائيَّة والبساطة.** قُلْنا إنَّ الذاتَ الحقيقيَّة تتميَّزُ باتِّزانٍ عجيبٍ ما بين البساطة النابعة من الثِّقة في المحبَّة من جانب، والحكمة النابعة من الرؤية الثاقبة والسليمة من جانبٍ آخر. ويشيرُ السيِّدُ المسيح إلى هذا الاتِّزان بالجَمْع ما بين وداعة الحمَام وحكمة الحيَّات. وتغيبُ عن الذات المزيَّفة المرونةُ الكافية لتَعيشَ هذا الاتِّزانَ فَنَجِدَ بساطتَها سذاجةً وحكمتَها شرًّا وخُبثًا. أمَّا كلُّ مَن يقتربُ من حياةِ الذات الحقيقيَّة التي هي "حياة الملكوت"، إنَّما يقتربُ من ذلك الاتِّزان ما بين البساطة والحكمة.
- **الخوفُ والانقباض.** نتميَّزُ، نحن البشرَ الساقطين، بذلك القَلقِ الوُجوديِّ

الدَّفين الذي يَظهَرُ بين الحين والآخر على السطح في صورةِ مَشاعرِ خَوفٍ محسوسة؛ وهذا لأنَّ ذواتنا المزيَّفة تمتلكُ تَرسانةً متنوِّعةً من الطُّرق الواعية وغير الواعية التي تحاولُ بها مراوَغةَ الخوفِ عبر أساليبِ السَّيطرةِ المختلفة، على المال أو على الناس، بل حتَّى على الله من خلال التَّدَيُّن.

- **الحقدُ والحَسَدُ والمقارَنات.** بسبب الشُّعور بأنَّ القبولَ مشروطٌ والحياةَ حلبةُ منافَسة، فإنَّ ذواتنا المزيَّفة التي نعيشُ منها دائمًا تكادُ لا تستطيع، أن تهربَ من دائرةِ المقارَنات والحسد والحقد. نشعرُ بفطرتنا وضمائرنا أنَّ هذا غيرُ مَقبول، لكنَّنا لا نستطيعُ إلَّا أن نفعلَه ونعيشَه.
- **أنانيَّةٌ أو اعتماديَّة.** أحَدُ التَّوازُنات الصعبة على الذات المزيَّفة، ومن ثَمَّ الصَّعبة علينا كلِّنا، نحن البشر، هو توازُنُ العطاء والأخذ[٨٣]: فإمَّا أن نأخُذَ ولا نُعطيَ بصورةٍ أنانيَّة، وإمَّا أن نُعطيَ ولا نأخُذَ بصورةٍ اعتماديَّة. وتعرفُ الذاتُ الحقيقيَّةُ البسيطة أن تطلُبَ وتأخُذَ دونَ طمع، وتعرفُ أيضًا أن تُعطيَ دون سَيطرة.
- **سلبيَّةٌ أو عنيفة.** اتِّزانٌ ثالثٌ صعبٌ على الذات المزيَّفة هو الاتِّزانُ ما بين القدرة على تَوكيد الحقوق، وفي الوقت نفسه، القدرةِ على تَرْكِها (متَّى ١٨: ١٥، ٣٥). من الصعب علينا أن نطالبَ بحقوقنا ونكونَ مستَعدِّين للتخلِّي عنها في الوقت نفسه. من الصعب أن نذهبَ ونعاتبَ ونكونَ مستعدِّين في الوقت نفسه لأنْ "نترُكَ" من قلوبنا كلَّ واحدٍ لأخيه زلَّاته. وتعبِّرُ صلاةُ السَّكينة التي وضعها اللَّاهوتي رينولد نيبور أيضًا

٨٣) أوسم وصفي، العلاقات- سلسلة ١٨٠ درجة، (عمَّان: أوفير، ٢٠٠٨) ص ٣٦- ٣٨.

عن هذا الاتِّزان، حيث تقول: "اللهمَّ امنحني السَّكينةَ لكي أقبَلَ الأشياءَ التي لا أستطيعُ أن أغيِّرَها، والشجاعةَ لكي أُغيِّرَ الأشياءَ التي أستطيعُ أن أغيِّرها، والحكمةَ لأعرفَ الفرقَ ما بينهما".

- **لا تَثِقُ بسُهولة.** كما قُلْنا من قبل، يطرحُ مُناخُ المحبَّة غير المشروطة الخوفَ والشَّكَّ إلى خارج، لكنَّ غيابَ المحبَّة يجعَلُ الشَّكَّ وعدمَ الثِّقة هو الأصل. ولأنَّنا نخافُ ولا نثق، فنحن نكذب. ولأنَّنا نكذب، فإنَّنا نعتقدُ أنَّ الآخرين أيضًا يكذبون، ومن ثَمَّ نخافُ ولا نثقُ ونظلُّ في هذه الدائرة المفرَغة من الخوف والشَّكّ.
- **تتظاهَرُ بالقوَّة ولا تقبَلُ الضَّعف.** ما يجعَلُنا نقبَلُ الضَّعفَ في أنفسنا ونواجِهُه هو مُناخُ الرحمة. عندما لا نستطيعُ أن نرحمَ أنفسَنا أو نرحمَ بعضُنا بعضًا، يكونُ الاعترافُ بالخطأ والضَّعف هو الموتَ بعَينه، لذا نميل إلى المراوَغة والتصنُّع.

لستُ أنا مَن يفعلُ ذلك

إنَّ هذه الذاتَ المزيَّفةَ هي التي صارتْ تسيطرُ وتسودُ بالكامل على كِيان الإنسان بسبب الخوف والخِزي الناتج من الانفصال عن الحبّ. وفي الأصحاح السابع من رسالته إلى أهل رومية، يَصِفُ بولس الرسول حالةَ الذات الحقيقيَّة بعد أن دَبَّتْ فيها الحياةُ بالولادة الجديدة وبدأ الصِّراع بينها وبين الذات المزيَّفة؛ حيث إنَّ الذاتَ الحقيقيَّةَ لا تستطيعُ أن تفعلَ ما تريدُ كأنَّ شيئًا ما مربوطٌ فيها. فنَجِدُ الرسولَ بولسَ يستخدمُ تعبيراتٍ مثل: **الجسد**، أو **الخطيَّة الساكنة**، أو **الشَّرّ**، أو **الموت** لِيَصِفَ هذه الذاتَ المزيَّفة. وعلى الجانب الآخر، يستخدمُ تعبيراتٍ مثل:

الذِّهن، أو **الإنسان الباطن** للإشارة إلى الذات الحقيقيَّة المخلوقة على صورة الله والمتَّجهة نحوه بالفِطْرة.[٨٤] ويستخدمُ تعبيراتٍ تُفيدُ الأَسْرَ الكاملَ وعبوديَّةَ الإرادة للخطيَّة، فيَقولُ مثلًا:

- "النَّاموسُ روحيٌّ، وأمَّا أنا فجَسَديٌّ مَبيعٌ تحت الخطيَّة".
- "لستُ أفعلُ ما أُريدُه، بل ما أُبغِضُه فإيَّاه أفعَل".
- "الإرادةُ حاضرةٌ عندي، وأمَّا أن أفعَلَ الحُسنى فلَسْتُ أجِد. لأنِّي لستُ أفعَلُ الصَّالحَ الذي أُريدُه، بل الشرَّ الذي لستُ أُريدُه فإيَّاه أفعَل".

وفي الوقت نفسه، فإنَّه بسبب عَمَلِ روح الله وناموسه يستَشعرُ أنَّ هناك ذاتًا حقيقيَّةً داخله ترفضُ ما يفعلُه وما يعيشه، فيقول:

- "فإنْ كُنتُ أفعَلُ ما لستُ أُريدُه، فإنِّي أصادقُ النَّاموسَ أنَّه حسنٌ. فالآن لستُ بعدُ أفعَلُ ذلك أنا، بل الخطيَّةُ الساكنةُ فيَّ".
- "فإنِّي أُسَرُّ بناموس الله بحسب الإنسان الباطن. ولكنِّي أرى ناموسًا آخرَ في أعضائي يُحاربُ نامُوس ذهني، ويَسبيني إلى ناموسِ الخطيَّة الكائن في أعضائي".
- "ويحي أنا الإنسانُ الشَّقيّ! مَن يُنقذُني من جَسَدِ هذا الموت؟ أشكُرُ الله بيَسوعَ المسيح ربِّنا! إذًا أنا نفسي بِذِهْني أخدِمُ ناموسَ الله، ولكنْ بالجسد ناموس الخطيَّة".

تشيرُ هذه العباراتُ إلى أنَّه بدأ يستَشعرُ وُجودَ ذاتَين فيه، إحداهما حقيقيَّةٌ تتوقُ

---

٨٤) "يا الله، لقد خلقْتَنا لذاتِك ونفوسُنا لن تجدَ راحتَها إلَّا فيك" - القدِّيس أوغسطينوس.

إلى ناموس الله الروحيّ والحياة مع الله. وفي كلّ عصرٍ وثقافةٍ ودينٍ نرى أُناسًا سَمِعوا بصورةٍ أو بأُخرى رسالةَ المحبَّة غير المشروطة، ودخلَتْ قطراتٌ منها إلى فِطرتهم الداخليَّة ووصلت إلى قلوبهم، ربَّما من وراء عقولهم، وتلامَسَتْ مع ذواتهم الحقيقيَّة المأسورة في الداخل، والتي تتوق إلى العلاقة بالله وحياة الملكوت، فصاروا كما يقولُ السيِّدُ المسيح للناموسيّ: "ليسوا بعيدين" عن ملكوت الله، لكنْ تَظَلُّ هناك ذاتٌ أُخرى تُسيطرُ عبر الخوف والخزي: الخوف من التغيير، والخزي من التخلّي عن أوراق التين التي احتمَتْ بها من الضعف والاحتياج. وتظلُّ هذه الذاتُ مُسَيطرةً لكنَّ الإنسان يعرفُ في عُمق أعماقه أنَّها مزيَّفة، وتظلُّ الذاتُ الحقيقيَّةُ، المخلوقةُ على شَبهِ الله والمتَّجهةُ بالفِطرة نحوه، تَئنُّ طالبةً الحرِّيَّةَ الحقيقيَّة.

الفصل ٩

رؤيةُ الله والنفس

من وقتٍ إلى آخر، تطالعنا الأخبار العالميَّة بفاجعةِ سقوطِ أحَدِ القادة الدينيِّين المشهورين[٨٥] في علاقةٍ جنسيَّةٍ مع مساعدته، أو مع سيِّدةٍ يقدِّم لها مشورةً نفسيَّةً أو روحيَّة. وغالبًا ما تؤدِّي تلك الفضيحةُ إلى اكتشافِ جانبٍ مظلمٍ كان مَوجودًا في حياة ذلك "الخادم"، لم يسمَحْ لله بأن يدخُلَ إليه، ويعملَ فيه للتَّطهير. وتَمُرُّ السنواتُ دون أن يحدُثَ شيء، ثمَّ فجأةً ودون سابق إنذار، يثور هذا البركان، أو يُكتَشَفُ هذا الجانبُ المظلمُ، فيقلبُ حياةَ ذلك "الخادم" وحياة كنيستِه رأسًا على عَقِب.

عندما لا نكون مستعدِّين لأن نواجِهَ الجوانبَ المظلمةَ من حياتنا، ظنًّا منَّا أنَّ تجاهُلَها سيجعَلُها تختفي بمرور الوقت، نكون مثل مَن لديه "جثَّةٌ" متعفِّنةٌ مَدفونةٌ في قَبوِ المنزل. كلَّما تصاعدَتْ رائحتُها، أفرطَ في رشِّ "مُعطِّرات الجوّ" من عِلمٍ

٨٥) تُنشرُ مثل هذه الفجائع في وسائل الإعلام الغربيَّة. أمَّا في شرقنا العربيّ، فلا تصلُ عادةً إلى الإعلام، لكنَّها مَوجودة بالمقدار ذاته تقريبًا، وفي كلّ الديانات والخلفيَّات.

وفَنٌّ ودين، وربَّما خدمةٍ وعملٍ اجتماعيٍّ لكي يُغطِّيَ على الرائحة. لكنْ يأتي وقتٌ تفشلُ فيه كلُّ هذه المحاوَلات، وتُطِلُّ الحقيقةُ بوجهها القبيح وتُنذِرُ بدَمار ذلك الإنسان ومَن هم حوله.

في كتابه الذي حقَّق نجاحًا باهرًا[٨٦]، كتب پيتر سكازيرو (Peter Scazzero):

"في الكنائس التي تتمتَّعُ بصحَّةٍ وِجدانيَّةٍ سليمة، نَجِدُ أعضاءَها يمتَلكون القدرةَ على فَحْصِ أعماقِ نفوسهم وقلوبهم، ونراهُم يتساءلون دَومًا: «ما الذي في داخلي ويريدُ السيِّد المسيح أن يغيِّرَه؟» وذلك لأنَّهم يدركون تمامًا أنَّ حياةَ الإنسان أشبَهُ بجبلٍ جليديّ، يطفو جزءٌ صغيرٌ منه فوق الماء، بينما يختبئ الجزءُ الأكبرُ والأهمُّ تحت السطح. ويُصلُّون دَومًا طالبين من الله إنارةَ أذهانهم، وتغييرَ ما يكمنُ داخلَ طبقاتِ حياتهم من أمورٍ تمنعُهم من أن يكونوا أكثر شبهًا بالسيِّد المسيح".

وتنبعُ من هذا الجزء الموجود تحت السطح أفكارٌ ومشاعرُ وردودُ فعلٍ يمكنُ أن تهدمَ حياتَنا كلَّها بينما لا نعرفُ نحن المكان الذي أتَتْ منه هذه الأمور، كما لا نعرفُ السببَ من وراء تصرُّفِنا بهذه الطريقة التي لا تتَّفق بتاتًا مع قِيَمنا الواعية وما نؤمن به ونريدُ أن نعيشَه.

---

٨٦) پيتر سكازيرو ووارين بيرد. "نضوج الكنيسة ونضوج قادتها" (The Emotionally Healthy Church)، ترجمة جين محيي. (القاهرة: دار النشر الأسقفيَّة، ٢٠١١م) ص. ٨٧.
سكازيرو هو راعٍ إنجيليٌّ في كنيسةٍ بمنطقةٍ شعبيَّةٍ في نيويورك، وقد ألَّفَ هذا الكتابَ بعد أن وصلَتْ كنيستُه وحياتُه الزوجيَّة وصحَّتُه الجسديَّة والنفسيَّة إلى حافَة الانهيار، وذلك بسبب عدم معرفته ما يكمنُ تحت السطح في شخصيَّته (ص. ٢٠-٤٠).

مَن أضاعَها يَجِدُها

وضعَ السيِّدُ المسيحُ العلاقةَ بالنفس والعلاقة باللهِ في عبارةٍ تبدو متناقضةً، لكنَّها شديدةُ العُمق والمغزى، وتحتاجُ لأن نقفَ أمامَها طويلًا لنتأمَّلَها: "مَنْ وَجَدَ حَياتَه يُضيعُها، ومَن أَضاعَ حَياتَه من أَجلي يَجِدُها".[٨٧] نلاحظُ أنَّ السيِّدَ المسيح لم يُقاوِمْ فكرةَ أنْ يحاولَ الإنسانُ أن يَجِدَ ذاته الحقيقيَّة أو أن "يُحقِّق ذاته" كما يقول علم النفس الوُجوديّ. لكنَّه يُقدِّمُ الطريقَ لتَحقيق الذات من خلال "إضاعة" **ما يَظُنُّ أنَّه حياتُه لكي يَجِدَ حياتَه الحقيقيَّة**. ويقولُ السيِّدُ المسيح بكلِّ بساطةٍ وقوَّة إنَّ الإنسانَ عندما يحاولُ تحقيقَ ذاته بالاستثمار فيها وفي تَنمِيَتها بمعزلٍ عن "ملكوت الله"- الذي هو خُطَّةُ الله للاستثمار في البشر- فإنَّ محاوَلاته لن تؤدِّي إلى عُمقِ "تحقيق الذات" الذي يُشبعُ بالفعل قلبَ الإنسان. أمَّا عندما يستَثمرُ الإنسانُ نفسَه في إطار ملكوت الله بالخضوع التامّ، فعندئذٍ يكتشفُ ذاتَه الحقيقيَّة، ويُشبعُ جوعَه الوُجوديَّ الدَّفين.

ويشيرُ إلى هذا اللَّاهوتيُّ الألمانيُّ ديتريش بونْهويفَر (Dietrich Bonhoeffer) قائلًا: "إنَّ الإنسانَ لا يستَردُّ طبيعتَه الحقيقيَّة، إلَّا من خلال الاتِّحاد ببِرِّ السيِّد المسيح".[٨٨]

هل يعني كلامُ السيِّد المسيح أنَّ على الإنسان فقط أن يعرفَ الله ولا يحاولَ معرفةَ نفسه؟ هل يقصد أنَّ معرفةَ الإنسان لله ستؤدِّي تلقائيًّا إلى معرفة نفسه؟ للإجابة عن هذين السؤالَين نقولُ نعم ولا.

- نقولُ أوَّلًا "نعم"؛ لأنَّ معرفةَ الله "في السيِّد المسيح" وليس "في الدِّين" تتضمَّنُ في ثناياها معرفةً "مُغيِّرةً" للنَّفس. لذا هو يقول: "مَن

---

٨٧) إنجيل متّى ١٠: ٣٩.

88) Dietrich Bonhoeffer, *The Cost of Discipleship*, (N.Y.: The Touchstone, 1995).

أضاعَ حياتَه من أجلي"، فعندما تعرفُ السيِّدَ المسيحَ بصِدقٍ وتَسيرُ في طريقه، فبالتَّأكيد سيتحدَّاك أن تعرفَ نفسَك بشكلٍ أعمقَ ممَّا كنتَ تعرفُها من قبلُ، كما أنَّك ستُواجِهُها كما لم تواجِهْها من قبل. عندئذٍ يكونُ متاحًا لك أن تصرخَ إليه ليُساعدَكَ أن تتغيَّرَ وتنمو. لكنَّ هذا لا يحدُثُ بطريقةٍ تلقائيَّة. فينبغي أن "توافق" أن تعرفَ نفسَك كما يريدُ السيِّدُ المسيح أن يعرِّفَك إيَّاها؛ فالسيِّد المسيح لا "يُرغمُ" أحَدًا. مَنْ لا يريدُ أن يعرفَ نفسَه؛ ومَن لا يتحمَّلُ ألمَ المواجَهة ومجهودَ التَّغيير، لن يحصُلَ على هذه المعرفة المغيِّرة. عندما جاءَ أبو الولد المصروع إلى يسوع بقلبٍ يتَصارع فيه الإيمانُ بعَدم الإيمان قائلًا: "**إنْ كنتَ تَستَطيعُ شَيئًا** فَتَحنَّنْ علَينا وأَعِنَّا". لم يُقدِّمْ إليه السيِّدُ المسيح عِظةً روحيَّة، ولم يَشفِ ابنَه قبل أن يواجِهَه بمشكلته الحقيقيَّة، فقال له بأسلوبه ذاته: "**إنْ كنتَ تَستَطيعُ أنْ تؤمن**". دائمًا ما يُميِّز المقابلةَ مع الله الحقيقيِّ في شخص يسوع المسيح مواجهةٌ حقيقيَّةٌ ومعرفةُ النفس على نحو أعمَق. واجَهَ يسوعُ هذا الرَّجلَ بعدم إيمانه، فاعترفَ حيث نقرأ: "لِلْوقتِ صَرخَ أَبو الوَلَد بِدُموعٍ وقال: «أُومنُ يا سيِّدُ، فَأَعِنْ عَدَمَ إيماني»". إنَّها خطوةُ معرفةِ النَّفسِ ومواجَهتها التي لم يَتَّخِذْها، مثلًا، الشابُّ الغنيُّ ليواجِهَ محبَّةَ المال الكامنة في قلبه.

- وهذا الذي يجعَلُنا نقولُ أيضًا "لا"؛ لأنَّ أغلَبَ المسيحيِّين اليوم في كلِّ أنحاء العالم لا يسيرون في طريق السيِّد المسيح، بل في ما يمكنُ أن نُسمِّيَه "الثقافة المسيحيَّة" وهم لا يَدرون. وممَّا يُميِّزُ هذه الثقافة المسيحيَّة أنَّها "نسخةٌ" مُخفَّفةٌ مُقلَّدة من معرفة الله دون أن تعرفَ النفسُ الله بشكلٍ

حقيقيّ[٨٩]، ودون مواجَهةٍ حقيقيَّة للنَّفس. ربَّما تسمَحُ لنا هذه النسخةُ بأن نتقلَّدَ أرفعَ "المناصب" الروحيَّة، ونتعلَّمَ عن أعمق القضايا اللَّاهوتيَّة ونُعلِّمَها للآخرين دون أن نواجِهَ عيوبَ شخصيَّاتنا الحقيقيَّة ونواجِهَها، ودون أن نواجِهَ فشلَنا الأخلاقيَّ، وننوحَ عليه، ونعملَ مع الله وبعضنا مع بعضٍ لكي نتغيَّر.

الحقيقةُ المجرَّدة

ربَّما تقول: "كيف يمكنُ الحكمُ على ذلك؟" والإجابةُ هي أنَّ البرهانَ العمليَّ هو ببساطةٍ أنَّنا "لا نتغيَّر" ولا تَظهَرُ ملامحُ السيِّد المسيح في شخصيَّاتنا بمرور الوقت، بل تَظَلُّ سلوكيَّاتُنا كما كانت، ولكنْ مع الكثير ممَّا يمكنُ أن نسمِّيَه: "الشكل الروحيّ" أو "صورة التقوى".

في دراسة موَسَّعة أجراها جورج بارنا[٩٠] (George Barna) في الولايات المتَّحدة على المؤمنين الذين يقولون عن أنفسهم إنَّهم مَولودون ثانيةً. ويعني هذا التعبير بالنسبة إليهم أنَّهم اعتَرَفوا بخطاياهم وطلَبوا غفرانَ الله، وآمنوا بالسيِّد المسيح مخلِّصًا شخصيًّا لهم ووثقوا بخلاصهم، وذلك فقط على حساب عمل السيِّد المسيح الكفاريِّ على الصليب. وخرجَ بارنا ببعض العلامات التي تشهدُ بشكلٍ مأساويٍّ عن حقيقة النموِّ الروحيِّ المتدنِّي لهؤلاء المؤمنين.

---

٨٩) "كثيرُون سيَقولون لِي فِي ذلك اليوم: «ياربّ، ياربّ! أليس باسْمك تنبَّأنا، وباسْمك أخرَجْنا شياطين، وباسْمك صنعنا قُوَّاتٍ كثيرةً؟» فحينئذٍ أُصرِّحُ لهُم: إنِّي لم أعرفكُم قطّ! اذهَبوا عنِّي يا فاعلي الإثم!" (متَّى ٧: ٢٢).

90) G. Barna, *Revolution*, (Wheaton: Tyndale, 2005).

في ما يتعلَّقُ بالعبادة:

- ثمانيةٌ من كلِّ عشرة يشعرون بأنَّهم لم يختَبِروا أيَّ تواصُلٍ روحيٍّ حقيقيٍّ مع الله خلال اجتماعات العبادة.
- ٥٠٪ من هؤلاء المؤمنين يقولون إنَّهم لم يشعروا بأنَّهم دخلوا محضَرَ الله واختَبَروا تواصُلًا حميمًا معه خلال السنة الماضية.
- واحد فقط من كلِّ أربعة قال إنَّه يشعرُ بأنَّ تسبيحَ الله هو لمجدِ الله فقط، وليس لكي يشعُرَ شعورًا طيِّبًا في أثناء العبادة.

في ما يتعلَّقُ بالاهتمام بالنموِّ الروحيّ:

- على الرُّغم من إيمانهم بِوَحي الكتاب المقدَّس، فإنَّ أغلبَهم قالوا إنَّهم يُمضون وقتًا في قراءة الكتاب المقدَّس أقلَّ بكثيرٍ ممَّا يمضونه في مشاهدة التلفزيون، أو الاستماع إلى الموسيقا، أو استخدام الإنترنت، أو غيرها من الهوايات.
- عندما يُسألون عن النجاح في الحياة، فإنَّ أغلبَهم يتكلَّمون بشأن النجاح من منطلق الإنجاز المِهْنيِّ والماديِّ والاستقرار الأُسَريّ، دون ذِكْر أيِّ شيء عن الحياة الروحيَّة.

في ما يتعلَّقُ باستخدام الموارد:

- أقلَّ من ١٠٪ منهم يدفَعون العشور.
- أقل من ٠,٥٪ أظهَروا فَهْمًا لمبدأ الوكالة المسيحيَّة بشأن الوقت والأفكار والعلاقات والمهارات.

في ما يتعلَّقُ بالخدمة:

- واحدٌ من كلِّ أربعة قال إنَّه يمكنُ أن يخصِّصَ بعضَ الوقت لخدمة آخرين خلال الأسبوع، وفي أغلب الأوقات تكون هذه الخدمة موجَّهةً لبرامج كنسيَّةٍ تخدمُ مؤمنين آخرين.
- نسبةٌ ضئيلةٌ جدًّا قالوا إنَّهم تَفاعَلوا بشكلٍ أو بآخرَ مع الفقراء أو المشرَّدين أو المهَمَّشين في المجتمع.

في ما يتعلَّق بالصَّداقات الروحيَّة:

- أقلُّ من واحدٍ من كلِّ ستَّة منهم قال إنَّ له علاقةً بمؤمنٍ آخرَ تتضمَّنُ أيَّ نَوع من المساءلة الروحيَّة.

وماذا بشأن الرعاة؟

في عدَّة دراساتٍ أُجريَت في الولايات المتَّحدة على أعدادٍ كبيرةٍ من رعاة الكنائس، ظهرَتْ نتائجُ كثيرةٌ مُقلِقة، سنختارُ فقط بعضًا منها[٩١]:

- ٢٣٪ فقط من رعاة الكنائس شعروا بأنَّهم سُعَداء وراضون عن حياتهم في السيِّد المسيح والكنيسة والبيت.
- ٧٧٪ منهم قالوا إنَّهم لا يتَمتَّعون بزيجاتٍ جيِّدة، ونحو ٥٠٪ من زيجات الرعاة تنتهي بالطَّلاق (نسبة الطلاق نفسها في المجتمع).
- ٣٠٪ من الرعاة اعترفوا بأنَّهم سَقَطوا في تجارِبَ جنسيَّةٍ مع إحدى عضوات الكنيسة سواء في صورة سقطةٍ جنسيَّةٍ واحدة أم علاقةٍ غير شرعيَّةٍ مستمرَّة.

91) Richard J. Kerjcir, Statistics On Pastors (Schaeffer's Institute) in www.intothyword.org

وفي كتابه المثير للقلق "**المستَقبَلُ الحاضر**"، يَصِفُ ريغي ماكنيل حالةَ مُرتادي الكنائس بهذه الكلمات:

"لقد نالوا الوعدَ بأنَّهم إذا كانوا أعضاء صالحين في الكنيسة المحلِّيَّة، فإنَّهم يكتَشِفون مواهبَهم، وينضمُّون إلى مجموعاتٍ صغيرة، وينخرطون في برامج الخدمة المختلفة ويتبرَّعون لمشروع المبنى الجديد. وبأنَّهم إذا كانوا يصفِّقون جيِّدًا، وربَّما يرقصون في أثناء العبادة، ويحضُرون كلَّ المؤتمرات والأيَّام الروحيَّة وغيرها، فإنَّهم سيختَبِرون حياةً غنيَّةً ذاتَ معنى. المشكلة هي أنَّنا لا نمتَلكُ بعدُ أدلَّةً كافيةً أنَّ كلَّ هذه الأنشطة الكنسيَّة قد أنتجَتْ أتباعًا ليَسوعَ أنضجَ. بل على العكس فهي تُنتجُ باستِمرارٍ أشخاصًا مُنهَكين جسديًّا ونفسيًّا وروحيًّا، عندما ينظُرون بأمانةٍ إلى حياتهم لا يجدونها تختلفُ كثيرًا عن حياة مَن حولهم الذين لا يفعَلون كلَّ ما يفعلونه. ينتظرُ هؤلاء المخلِصون بصمتٍ، أو ربَّما دون صمت، ويتساءلون عن الوقت الذي سيَختَبِرون فيه الحياة الفيَّاضة التي وعدَهم بها السيِّد المسيح والكنيسة".[٩٢]

لقد أُجريَتْ هذه الدراساتُ على مؤمني الولايات المتَّحدة وأُلِّفَتِ الكتب عنهم. تُرى هل المؤمنون المسيحيُّون والرعاة والقسوس والكهنة في بلادنا العربيَّة في حالٍ أفضل؟ الإجابةُ لك.

لماذا؟

والسؤالُ الآن هو "لماذا؟"- لماذا لم يستطعْ أغلبُ المسيحيِّين في العالم أن يَصِلوا

92) Reggie McNeal, *The Present Future. Six Tough Questions for the Church*, (San Francisco: Jossy-Bass, 2003) p. 8.

إلى التَّصالُح ما بين معرفة الله ومعرفة النفس بالصورة التي تجعَلُهم يَصِلون إلى الحياة الفيَّاضة التي يَعِدُ بها السيِّد المسيح؟ الإجابة هي أنَّ الكنيسةَ عبرَ العصور فقدَتْ بالتَّدريج رؤيةَ طريق السيِّد المسيح الحقيقيِّ **الذي فيه تتضافر معرفة الله العميقة بمعرفة النفس الفاحِصة**، وهي تحتاجُ دائمًا إلى مَوجاتٍ متكرِّرةٍ من الإصلاح لتَعودَ إلى هذا الطريق. ولعلَّ حالتَنا الآن التي تفضحُها الزيجاتُ المتهدِّمة، والعلاقات الفاشلة أو السطحيَّة غير المشبِعة، والكنائس المنقسمة والخدمات الحافلة بالصِّراعات- تؤكِّدُ مَقولةَ جي. كاي. تشسترتون: "لم يحدُثْ أنَّ المسيحيَّة جُرِّبتْ وَوُجِدَت فاشلة. الواقع أنَّ المسيحيِّين اكتَشَفوا أنَّ المسيحيَّة صَعبةٌ، فلم يجرِّبوها". [٩٣]

ويقول دالاس ويلارد في كتابه الثوريِّ "**الخُطَّةُ الإلهيَّة**"[٩٤]: "لقد فقدَتِ الكنيسةُ عبر العصور الطريقَ ما بين الإيمانِ بالسيِّد المسيح، والحياة الرائعة الطائعة في المسيح، بحيث مَن يَصِلُ إلى هذا النَّوع من الحياة أو حتَّى يقتربُ منه، هو فقط مَن يتشجَّعُ أن يحملَ حقيبتَه ويَهيمَ على وجهه في الصحراء، وربَّما يَصِلُ إلى أطراف المدينة. كان هناك طريقٌ لكنَّه تهدَّمَ ولم يُصَن. ربَّما يستكشفُه البعضُ من خلال المجهود الشخصيِّ وبعض الكتابات والعلاقات بأشخاصٍ مشوا فيه. لكنَّه لم يَعدْ طريقًا مُعبَّدًا تقطعُه يوميًّا الحافلات الملآنة بالمفديِّين".

كلُّ هذا يؤكِّدُ لنا أنَّنا في أمسِّ الحاجة إلى مَوجةٍ جديدةٍ من الإصلاح تُعيدُ إلينا المصالَحة ما بين معرفة الله ومعرفة النفس، ومواجَهتِها ثُمَّ التمخُّض مع الله والناس حتَّى يتصوَّرَ السيِّدُ المسيح فينا، وذلك بدلًا من الحياة التي نحياها وفيها نعرفُ عن الله القشور، وعن أنفسنا المظاهر. ولعلَّ كلماتِ المصلح واللَّاهوتي جون

93) G. K. Chesterton, *What's Wrong with the World.* (San Francisco: Ignatius Press, 1910-1994) p. 37.
94) Dallas Willard, *The Divine Conspiracy. Rediscovering Our Hidden Life in God.* (N.Y.: Harper Collins, 2005.

كالڤن تردَّدُ ذلك عندما كتبَ في مستَهَلِّ كتابه الجامع "**أساسيَّاتُ الإيمان**" أنَّه لا توجَدُ معرفةٌ عميقة لله دون معرفةٍ عميقةٍ للنفس، ولا معرفةٌ عميقةٌ للنَّفس دون معرفةٍ عميقة لله.[٩٥] ولعلَّنا نضيف: "ولا تغييرَ حقيقيًّا دون المعرفتَين كلتَيهما".

والفرضيَّةُ التي سنحاولُ في ما يلي أن نبرهنَ صحَّتها هي أنَّك حينما تنظرُ إلى السيِّد المسيح، فإنَّك ستَجِدُه ممسكًا بمرآةٍ يجعَلُك ترى فيها نفسك. يمكنُكَ أن تطيعَه وتنظرَ في المرآة وتصرخَ إليه كي يُغيِّرَ ما تراه، ويمكنُك أن تتجاهَلَ ذلك. يمكنُكَ أن تأخُذَ السيِّدَ المسيحَ إلى كلِّ غُرَفِ حياتك المغلقة لينظِّفَها، كما أنَّ في وُسعك أن تُبقِيَه في "حجرة الجلوس"، وتأكَّد دَومًا من أنَّه لن يذهَبَ إلَّا حيثُ تأخذُه؛ فهو لا يقتحمُ غرفَ حياتك، ولا يتَّخذُ قرارتِك عنك.

إنَّ معرفةَ السيِّد المسيح الحقيقيَّة تؤدِّي إلى معرفةِ النفس، ولكنْ ليس بالشَّكل التلقائيِّ السحريِّ الذي تكلَّمْنا بشأنه، حيث إنَّ الأمرَ يتطلَّب دَومًا "مواجَهةً" من الله يستخدمُ فيها أساليبَ عدَّة أهمُّها اللقاء الشخصيُّ والعلاقاتُ العميقة بالبشر، ثمَّ "اعتراف وموافَقة" من الشخص الذي يواجِهُه السيِّدُ المسيح. وليسَ فقط الموافَقة، بل أيضًا "العمل" مع السيِّد المسيح والآخرين على نحوٍ لا يخلو من تألُّم الإنسانِ وتعلُّمه. يستَنيرُ ويتغيَّر.

في الفصول التالية التي تشكِّل الجزءَ الثالث من الكتاب، سنتناوَلُ لقاءاتٍ للسيِّد المسيح وردَتْ في الإنجيل مع أشخاص من خلفيَّاتٍ متنوِّعة، وكيف كان يُصرُّ في هذه اللقاءات أن يجعَلَهم يتعرَّفون إلى الله بصورةٍ أعمَقَ من ثقافتهم "الدينيَّة" المعتادة، وأيضًا يتعرَّفون أنفسَهم بصورةٍ ليست فقط أعمقَ من الصورة

95) John Calvin, *Institutes of the Christian Religion,* 1536 ed., trans. Ford Lewis Battles (Grand Rapids, Mich.: Eerdmanns, 1995), p.15.

التي يُظهِرونَها أمام الناس، بل أيضًا أعمق ممَّا يعرفونه هم أنفسهم عن أنفسهم.

بينما نتناوَلُ هذه اللقاءات، سنُحاوِلُ أن نضَعَها في قالَبٍ روائيٍّ لإخراجها من حالة "النصِّ الكتابيّ"؛ وذلك لنَستَطيعَ أن نتخيَّلَ أنفسَنا نعيشُ هذه المواقفَ مرَّةً أُخرى بدلَ أن تكونَ مجرَّدَ "نصوص" مقدَّسة. فهذه لم تَكُنْ تعليمًا أو تنظيرًا، بل كانت لقاءاتٍ حيَّةً وحقيقيَّةً مع أشخاصٍ من دَمٍ ولَحمٍ مثلنا.

الجزء الثالث

رؤيةُ الله والنفس في وجه السيِّد المسيح

الفصل ١٠

عطشى عند بئر الماء

حوارٌ عقائديّ، وجلسةُ علاجٍ نفسيٍّ مع امرأةٍ مزواج فاسدةِ العقيدة

انتظرَتْ حتَّى الظَّهيرةِ لتتأكَّدَ أنَّ كلَّ النِّسوة قد ملأنَ جرارَهُنَّ وعُدْنَ إلى بيوتهنّ. عندئذٍ خرجَتْ وهي تتمنَّى أن تُنجزَ الـمَهمَّة في أسرع وقت. ارتَدَتْ ملابسَها، ولم تَنْسَ وَضْعَ بعض الحُلى، وشدَّتْ حزامًا حول خَصْرِها ليُظهِرَ تفاصيلَ جسدها قليلًا، ثُمَّ وضعَتْ بعض الألوان على وجهها. عاداتٌ لم تَعُدْ تشعرُ فيها بأيَّة سعادة. أتَمَّتِ استعدادَها للخُروج بشكلٍ تلقائيٍّ خالٍ من أيِّ تَفكير، مثل الجنديِّ الذي يرتَدي لباسَ الحربِ ويرتِّبُ الأسلحةَ في حزامه ليواجِهَ القتال. ثمَّ قبلَ أن تخرجَ نظرَتْ مرَّةً أُخرى في المرآة، فأدركَتْ أنَّ عينَيها حمراوان من أرَقِ الليلة السابقة، فزادَتْ من الكُحل حولهما لئلَّا يظهَرَ احمرارُهما. وقبل أن تَعبُرَ من الباب، أخذَتْ نفسًا عميقًا وارتَدَتْ قناعَ القوَّةِ مستَعدَّةً للهُجوم الذي أثبتَتْ لها التجاربُ السابقة أنَّه خَيرُ وسيلةٍ للدِّفاع.

لقد أثبتَتْ هذه الأسلحةُ نجاحَها على مرِّ السنوات، فكثيرًا ما ساعَدَتْها لباقتُها وروحُ مَرحِها المشوبة بالسُّخرية اللَّاذعة، أن تخرجَ من المواقف الصعبة وتتعايش مع أهل تلك القرية الصغيرة "سوخار" على الرُّغم من سمعتها السيِّئة. كان الجميعُ يتكلَّمون بشأنها ولكنْ من وراء ظهرها. لم يجرؤ أحَدٌ أن يوجِّهَ إليها أيَّ اتِّهامٍ أو هجومٍ واضح، وإلَّا تعرَّضَ لسَيلٍ جارف من سخريَتها وصار أضحوكةَ الصبيان والبنات في الحيّ. أمَّا خلف هذه الدفاعات، وعلى الرُّغم من مَظهَرِ القوَّة، كانت تبذلُ مجهودًا نفسيًّا بالغًا لتَبدوَ هكذا أمام الناس بينما قلبُها في الداخل ينزفُ ببطء شديد طَوال سنواتِ عمرها الثلاثين. لذلك كانت تتجنَّبُ الظُّهورَ أمامَ الناس كثيرًا محاولةً تَقليلَ العبء النفسيِّ الثقيل الذي كانت تبذلُه لتَظلَّ محافِظةً على مَظهرِها القَويّ.

تركَتْه نائمًا حتَّى الظَّهيرة، فقد كان يشربُ الخمرَ حتَّى الصَّباح بعد أن وصلَ عند الغروب مع قافلته التجاريَّة. وعدها بالزَّواج أكثر من مرَّة، لكنَّه لم يَجِدْ سببًا واحدًا يجعَلُه يَفي بوَعده وهو التاجر الذي يفكِّر في كلِّ شيءٍ بمنطق الرِّبح والخسارة. لماذا يدفَعُ أيَّ ثمنٍ في شيءٍ يأخذُه مجَّانًا؟ كلَّما حلَّت قافلتُه في السَّامرة في طريقه من دانَ شمالًا إلى مِصْر جنوبًا، كان يميلُ ليَبيتَ بضعةَ أيَّام عندها. كان هذا يحدُثُ مرَّتَين أو ثلاثًا فقط في السنة. حاولَتْ مِرارًا أن تُقنِعَه بالزَّواج حتَّى ترفعَ رأسَها قليلًا في قريَتها بدلَ أن تكونَ مجرَّدَ عشيقةِ التاجر المسافر، فكان يردُّ عليها قائلًا: "لماذا الزَّواج؟ وماذا أخذتِ من الزواج؟ لقد تزوَّجْتِ خمسَ مرَّات وكلُّهم تركوك. لعلِّي بهذه الطريقة لا أتركُك!" قالت في نفسها: "لا تتركُني؟ وهل أنت معي أصلًا؟ أنت تتوقَّفُ فقط للحصول على بعض المتعة في الطريق". كانت ترى بكلِّ وُضوحٍ حقيقةَ هذه "العلاقة" وتدركُها، لكنَّها لم تقوَ البتَّة على قَطْعِها. كانَتْ

تعرفُ جيِّدًا أنَّ كلَّ كلماتِ الحبِّ والغَزَل التي يقولُها هي فقط مقدِّمةٌ ليَنالَ منها ما يُريد، إلَّا أنَّها كانت "تعيش" على هذه الكلمات وكأنَّها نبتةٌ صغيرةٌ في الصحراء لا ترى المطرَ إلَّا مرَّتَين أو ثلاثًا في السنة.

خرجَتْ من الدَّار مُتَثاقِلةً وهي مُطمئنةٌ أنَّ مُعظمَ النِّسوة في بيوتهنَّ الآن قد استَقينَ وعُدْنَ ليُعِدْنَ الطَّعام لأزواجهنَّ وأطفالهنّ. وعلى ذِكرِ الأطفال قالتْ في نفسها: "آه الأطفال! لقد أخذَهم آباؤهم... خافوا عليهم من أن تُربِّيهم امرأةٌ مثلي". مسحَتِ الدمعةَ المتمرِّدة التي قفزَتْ فَوقَ دفاعاتِها وأضافت قائلةً في نفسها: "لا، ليس الآن. ليس هنا. كوني قويَّة. نحن الآن في الشارع- الشارع الذي لا يَرحَم".

وضعَتْ جرَّتَها على رأسها لتَحميَها قليلًا من شمس الظَّهيرة الحارقة بينما تُفكِّر: "لَكَمْ ستَكونُ مياهُ البئر ساخنةً الآن! لكنْ، ماذا أفعل؟ لقد تعبتُ من نظرات النِّسوة. صحيح أنَّ إحداهنَّ لن تجرؤ أن توجِّه إليَّ كلمةً واحدة ، لكنِّي أشعرُ في الداخل بأنِّي أقلُّ منهنَّ جميعًا".

في الليلة السابقة، لم يرحَمْها النَّومُ إذ وافاها مع خيوط الفجر الأولى، فقد أمضَتْ ليلتَها كلَّها تتابعُ شريطَ حياتها الذي بدأ منذ ثلاثين سنة عندما وُلدَت لتكونَ أوَّلَ بنتٍ غيرَ مرغوبٍ فيها لأحَدِ التجَّار دائمي السفر. وهنا فكَّرتْ قائلةً: "لعلَّ ذلك هو ما جعلَني أبحثُ عن التجَّار المسافرين والرجال اللَّاهين وأحاولُ أن أجعَلَهم يمكثون معي!" عندما خطرتْ لها هذه الفكرة، ظهرَتْ على طرف فمها ابتسامةُ سخريةٍ سوداء.

أبي غائب، وأمِّي حزينةٌ كئيبةُ القلبِ لا تكادُ تبرحُ فراشَها. أنا الصبيَّة ذات

العشرة أعوام كنتُ أفعلُ كلَّ شيء: أرعى المنزلَ وإخوتي الصغار وأخرجُ أيضًا للعمل. لكَمْ تمنَّيتُ أن تحتَضِنَني أُمِّي! ولكنَّها كانت إمَّا نائمة وإمَّا تبكي. وإذا استيقظَتْ، كانت تشكو لي همومَها وآلامَها وشكوكَها في خيانة أبي في البلاد التي يذهبُ إليها. كنتُ أواسيها وأخفِّفُ عنها ثمَّ "أضَعُها في سريرها" وأذهَبُ أنا إلى "شغل البيت". لقد كنتُ أنا- الطفلةَ الصغيرة- أُمًّا للجميع. لكَم كنتُ أشتاقُ إلى حِضْن أمِّي أو أبي، أو إلى أيِّ حِضْن! إلى أيَّة لمسةِ حنان! لكَم كنتُ أتوقُ لأنْ أتكلَّمَ فيَسمَعَني أحَد! لكَم اشتَقتُ لأنْ أبكيَ فتأخذَني أمِّي في حِضْنها! كنتُ أتمنَّى أن أنالَ الاهتمامَ و"الدَّلَع" الذي كنتُ أسمعُ أنَّ صديقاتي يحصُلْنَ عليه من آبائهنَّ وأمَّهاتهنّ!

عندما جاءَتني "العادة الشهريَّة" هُرِعْتُ إلى أمِّي خائفة: "ما هذه الدِّماءُ التي تتدفَّقُ منِّي يا أمِّي؟ هل سأموت؟" أجابَتْ بعَينَين متثاقلتَين: "لا، لن تموتي". ثمَّ ألقَتْ إليَّ ببعض قِطَع القماش القديم وهي تقولُ دون أن تتجشَّمَ حتَّى عَناءَ النَّظرِ إليَّ: "سيحدُثُ هذا كلَّ شهر. هذا طبيعيّ... لقد كَبُرتِ" ثمَّ عادَتْ إلى فراشها.

لا أذكرُ حنانًا أو اهتمامًا سوى اهتمامِ ابن عمِّي...

آه لماذا تأتي كلُّ هذه الذكريات الآن؟ لقد دفنتُها منذ سنوات.

كانت أمِّي تُرسِلُني إلى بيتِ عمِّي من وقتٍ إلى آخر لأقترضَ بعضَ الطَّعام- بعض القمح لنطحنَه أو قليلًا من الزَّيت. فقد كانت نُقودُنا تَنفَدُ دائمًا قبل أن يعودَ أبي من سفره الطويل. كم كنتُ أشعر بالخزي! لكنَّ صَرخاتِ إخوتي الصغار الجياع كانت سِياطًا تُلهِبُ ظَهري وتدفعُني إلى هناك. لكنْ بعدَ قليل، صرتُ أحبُّ الذهاب، بل كنتُ أنا التي أختلقُ الأسباب للذَّهاب.

ما الذي يجعَلُني أتذكَّرُ هذه الأمورَ الآن؟

حاولَتْ أن تنفضَ الذِّكريات عن رأسها المتعَب وتُواصِلَ مَسيرَها إلى البئر، لكنْ سُرعان ما عادَتْ الذكرياتُ متدفِّقةً كأنَّها حشراتٌ في أوَّل الربيع وقد عثرَتْ على طبقٍ من العسل.

كان ابنُ عمِّي هو الإنسانَ الوحيدَ الذي لمسَ جسدي في ذلك الوقت. لم تكُنْ لمساتُه هي بالتَّحديد ما أُريد، لكنَّها كانَتْ لمساتٍ على أيَّة حال. بالتَّاكيد، سُرعانَ ما تطوَّرَتْ لمساتُ الحنان إلى ما هو غير ذلك، وشيئًا فشيئًا صارت لديَّ "علاقةٌ جنسيَّةٌ كاملة" بِابْنِ عمِّي وأنا في سنِّ العاشرة. كانت هذه هي النهاية الرسميَّة لطُفولَتي. صرتُ "امرأةً" في سنِّ العاشرة. والحقيقةُ أنِّي لم أكُنْ أشعُرُ بأنَّ هناك شيئًا ما خطأً، فقد كان يُعطيني ما أريدُ وأعطيه أنا ما يُريد. كان يُعطيني بعضَ الحنان الذي كان يمدُّني بالقوَّةِ لأكمِلَ حياتي الصعبة، وأنا أُعطيه ما يجعَلُه يُطفِئ نارَ الذُّكورة المتأجِّجةِ في جسده حديثِ البلوغ. لا أستطيعُ أن أنكرَ أنِّي أيضًا شعرتُ ببعض اللذَّة وتعلَّقتُ بها، بل اعتمدتُ عليها تمامًا وكأنَّها صديقي الوحيد في حياتي الحافلة بالمسؤوليَّات.

هكذا مبكِّرًا في حياتي تعلَّمتُ أنْ لا حنانَ دون ثمن. الرجالُ لا يُعطون الحبَّ إلَّا في مقابل الجنس، وعليَّ أن "أدفع". لقد قبلتُ هذه الحقيقةَ بوصفها إحدى حقائق الحياة التي لا تُناقَش. وهكذا دفَعْتُ ودفَعْت. لكنَّهم كانوا دائمًا يأخذون ما يريدون ثمَّ يَمضون في طريقهم، طالَ الوقتُ أم قَصُر. حتَّى الزواج لم يمنعْهم من الرحيل. أخذوا الأطفال وتركوني أنوحُ وأبكي وليس مَن يمسحُ دموعي إلَّا تَتابُعَ الأيَّام الرَّتيبة غير المبالية.

مَن يصدِّقُ أنَّ هذه الدَّورة تكرَّرتْ خمسَ مرَّات؟ ربَّما اختلفَتِ السيناريوهات قليلًا، لكنَّها النهايةُ الحزينةُ ذاتُها كلَّ مرَّة. وفي كلِّ مرَّةٍ كنتُ أظنُّ أنَّ الحبيبَ الجديدَ سيكونُ مختلفًا وسيحترمُ الزَّواجَ والأُسرةَ. ما أغباني!

معه حقٌّ أليفاز. ماذا أفادَني الزَّواج؟ ربَّما كان سببُ بقائه معي حتَّى الآن- على حدِّ قَوله- هو أنَّنا لم نتزوَّج. ربَّما الرجالُ لا يحبُّون الالتزام. ولكنِّي واثقةٌ بأنَّ أليفاز أيضًا إذا ملَّ منِّي فسيَرحَل، بل إذا تغيَّرَ مسارُ قافلته بحيثُ لا يعودُ يمرُّ بسوخار، سيَنسى حتَّى أنَّه عرفَ امرأةً من السامرة. أعرفُ تمامًا أنَّه كاذبٌ، وكلُّ ما يريدُه هو الجنس. ولكنْ ماذا أفعل؟ لا أستطيعُ العَيشَ وَحدي. يا لَشَقاوَتي! فأنا كَمَن يشربُ ماءً مالحًا. ومع كلِّ شربة، يُمنِّي نفسَه بالارتواء، لكنْ لا يزيدُه الشربُ إلَّا عَطَشًا.

لم تُفِقْ من أفكارها إلَّا عندما وصلَتْ إلى البئر. أنزلَتِ الجرَّة وهمَّت بأن تدلِّيَها في البئر. وقبل أن تصلَ بها إلى مستوى الماء، سمعَتْ خلفَها صَوتًا عميقًا هادئًا يقول:

"أعطيني لأشرب".

التفتَتْ لتجدَ رجلًا جميلَ المظهر في الثلاثينيَّات من عمره، تَشي نظراتُه بحَنانٍ ممزوجٍ بالثِّقة الشديدة بالنَّفس. كما تدلُّ ثيابُه ولهجتُه أنَّه رجلُ دِينٍ يَهوديّ.

رجلُ دينٍ يَهوديٌّ هنا عند البئر يتحدَّثُ إليَّ دون سابقِ معرفة، ويطلبُ منِّي أن أُعطِيَه ليَشرب؟ ما أعجبَ هذا! هل هذه هَلْوَسةٌ بسبب قلَّة النَّوم؟

بسرعة حاولَتْ أن تُخفيَ ارتباكَها بكلماتٍ بدأتْ متعثِّرة، ثمَّ استَعادَتْ بالتَّدريج قوَّتَها وجُرأتَها المعتادة في الحديث. ولم تَنسَ أن تُضيفَ إلى الكلمات بعضَ نظراتِ الإغراء المثيرة التي صارَتْ تخرجُ منها بطريقةٍ عَفويَّةٍ معتادة:

"كيف تطلبُ منِّي أن تشربَ وأنتَ رجلٌ يهوديٌّ وأنا امرأةٌ سامريَّة؟"

بادرَها بعبارةٍ جعلَتْها تشعرُ أكثرَ فأكثرَ بأنَّها ليسَتْ أمامَ رجلٍ عاديّ.

"لو كنتِ تعلَمين عطيَّةَ الله، ومَن هو الذي يقولُ لكِ أعطيني لأشرَب، لطَلَبْتِ أنتِ منه فأعطاكِ ماءً حيًّا".

مَن هذا الرَّجُل؟ هل يُريدُ منِّي ماءً؟ أم يُريدُ أن يُعطِيَني ماء؟ أم فقط يحاولُ أن يتَجاذَبَ أطرافَ الحديث معي؟ لا أظنُّ أنَّه يُريدُ ما يُريدُه الآخرون. ثُمَّ الله؟ عطيَّةُ الله؟ أنا لا أحبُّ الكلامَ بشأن الله. ولكنْ مالي أشعرُ بأنَّ وَقْعَ كلمة "الله" على لسان هذا الرَّجل تحديدًا يأتي مختلفًا؟ عطيَّةُ الله؟ هل الله يُعطيني أنا؟ وماذا أعطيتُه في المقابل؟ ثمَّ ما علاقةُ الله وعطيَّته بهذا الرجل؟ وما له يتكلَّم بهذه الثقة: لو كنتِ تعلَمين مَن هو الذي يقولُ لكِ أعطيني لأشرب؟ مَن عساه يكون؟ ثمَّ ما الماءُ الحيُّ هذا؟

تذكَّرَتْ فجأةً أنَّها منذ لحظاتٍ كانت تفكِّرُ في نفسها أنَّها مثل الذي يشربُ ماءً مالحًا. ألعلَّ هذا الرجلَ سمعَ الفكرة التي دارَتْ في ذهني منذ لحظات؟ أم أنَّ عطشي وجفافي صارا واضحَين إلى هذا الحَدّ؟

منذ أوَّل وهلة، لاحَظَتْ أنَّه ليس مثل باقي الرِّجال. يكفي أنَّه ينظرُ إلى عَينَيها مباشرةً ولا تجولُ عيناه في أرجاء جسدها كما يفعلُ أغلبُ الرجال. ثمَّ إنَّ في نظراتِه شيئًا ما ينفَذُ إلى القلب، ليس القلب الذي أحبَّت به الخمسةَ السابقين ولا أليفاز الحاليّ، بل عميقًا إلى قلبِ القلب!

لم تَدْرِ لماذا شعرَتْ فجأةً بأنَّها أمامَه تلك الطفلةَ الصغيرةَ نفسَها ذات الأعوام العشرة، وكأنَّ السنوات العشرين التي مرَّتْ بها قد لَمَلَمَتْ ثيابَها وزيجاتِها وأطفالَها ووقفَتْ جانبًا تراقبُ هذا اللقاء.

إنَّه بالتَّأكيد لا يتكلَّمُ بشأن الماء الذي في هذه البئر، ولا في أيَّة بئرٍ أُخرى. شيءٌ ما في أعماقها أدركَ أنَّ هذا الرجلَ وَصَلَ إلى عَطَشِها الحقيقيِّ الذي حاولَتْ طَوال تلك السنوات العشرين أن ترويَه، لكنَّها لم تُرِدْ أن تُصدِّق.

سَيطَرَ الخوفُ المشوب بالفَرَح والترقُّب على كلِّ كِيانها. حاوَلَتْ أن تهربَ من هذه المواجَهة، في الوقت الذي كانت تشعرُ فيه بكلِّ كِيانها يندفعُ نحو ذلك "الماء" الذي يُشيرُ إليه دون أن تعرفَ ماذا يكونُ، ولا كيف يمكنُ لهذا الرجل أن يُعطِيَها إيَّاه، كما تساءلَتْ عن علاقة هذا بالله! أجابَتْ وكأنَّها لا تفهَمُ ماذا يقصد، لكي تُعطيَ نفسَها فرصةً لتستجمعَ نفسَها:

"يا سيِّد، لا دلوَ لك والبئرُ عميقة. فمِن أين لكَ الماءُ الحيّ؟"

ثمَّ استَعادَتْ روحَ السُّخريَة والتهكُّم المعتادة وأضافَتْ:

"ألعلَّكَ أعظمُ من أبينا يعقوبَ الذي أعطانا البئر، وشربَ منها هو وبنوه ومواشيه؟"

فَهِمَ أنَّها تراوغُ فتكلَّم بصراحةٍ أكبر:

"كلُّ مَن يشرب من هذا الماء يعطش أيضًا. ولكنْ مَن يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطشَ إلى الأبد، بل الماء الذي أُعطيه أنا يصيرُ فيه ينبوعَ ماءٍ ينبعُ إلى حياةٍ أبديَّة".

قَضَتْ هذه الكلماتُ على كلِّ محاوَلاتِها للفَهْم؛ فعلى الرُّغم من ذكائها الفطريِّ الحادّ، نجحَتْ كلماتُ هذا المعلِّم اليهوديِّ في تعطيل كلِّ برامج عقلها تمامًا. لكنَّ قلبَها كان يشعرُ براحةٍ غريبة. شعرَتْ فجأةً بالعَجْز وفقدانِ السيطرة على كلِّ كِيانها. ودائمًا ما يجعلُها هذا الشعورُ ترتَعبُ كثيرًا؛ فهي لم تفقِدِ السيطرةَ لِلَحظةٍ على عقلها أو مشاعرها أو حتَّى جسدها طَوال سنواتِ عمرها الثلاثين. حتَّى في

أثناء ممارسة الجنس، اعتادَتْ أن تكونَ مُسَيطرةً تمامًا على كلِّ ردود فعلها. وفي كلِّ العلاقات السابقة، كانت تُعِدُّ نفسَها للفراق منذ بداية العلاقة لئلَّا تتألَّم؛ فَفُقدانُ السيطرة للَحْظةٍ واحدةٍ يعني الموتَ المحقَّقَ بالنِّسبة إليها! لكنْ هذه المرَّة، شيءٌ ما جَعَلَها تتصالحُ مع شعورها بالعجز والاحتياج. وتزاحمَتْ أسئلةٌ كثيرةٌ في عقلها.

ثمَّ ما الذي قصدَه بالماء الحيِّ هذا؟ ومَن هذا الإنسانُ ليَقولَ بجسارةٍ كهذه إنَّه يستطيعُ أن يُعطيَ ماءً مَن يشربُه لا يعطشُ إلى الأبد؟ ولماذا أشعرُ بأنَّه صادق؟ لا ليسَتْ كلماتِه، بل عيناه. إنَّ فيهما حُبًّا وقبولًا لم أرَهُما من قَبلُ. عقلي لا يفهَمُ معنى القبول، لكنَّ شيئًا ما فيَّ يبدو كأنَّه يفهَمُ هذا الذي لا يفهَمُه عقلي. أشعرُ بأنَّ كِيانًا ما يَرتَوي في داخلي كلَّما نظرْتُ إلى عينَيه. لا أرى فيهما نظرةَ الرِّجالِ المتعالِيةَ على النساء، ولا فيهما حبَّ الرجال أو شَهوَتُهم، ولا احتقار اليهود لنا نحن السامريِّين. لا أرى في عينَيه كلَّ ما توقَّعتُ أن أجِدَه؛ حيث إنَّ فيهما أمرًا غريبًا! هذا فقط هو ما يجعَلُني أَميلُ إلى تصديق ما يقولُه هذا الرجلُ على الرُّغم من أنَّ كلماتِه تبدو مثل عَين الجنون. لو أنَّ نَظَراتِ عينَيه لا تقولان إنَّه أصدَقُ إنسانٍ في الوُجود، لحسبْتُ ما يقولُه هذيانَ مجنون من مجانين الهيكل.

مَهما كان هذا "الماء"، فأنا أريدُه بأيِّ ثمن. أنا أريدُ أيَّ شيءٍ يتحدَّثُ به هذا الرَّجُل. هناك شيءٌ ما في داخلي يصدِّقُه ويريدُ أن يطلُبَ منه هذا الماء، لكنَّ شيئًا آخرَ خائفٌ ومتردِّد. قالَتْ وكأنَّها تحاولُ أن تمنعَ طفلةً في داخلها تريدُ أن تُهرَعَ إليه وتَرتميَ في أحضانه:

"يا سيِّد، أعطني هذا الماء".

ثُمَّ أضافَتْ لكَي تُغطِّيَ الكلامَ مرَّةً أُخرى:

"لكي لا أعطشَ وآتي إلى هنا لأستَقي".

"اذهبي وادْعي زوجَكِ وتعالَي إلى هنا".

آه يبدو أنَّ ما شعرَ به قلبي من البداية كان صحيحًا. هذا الرجل حقًّا ليس رجلًا عاديًّا. أشعُرُ كأنَّ نظراتِه ترى حياتي كلَّها منذ بدايتها حتَّى نهايَتِها. قفزَ جوابُها إلى فَمِها دون أن تفكِّر:

"ليس لي زوج".

"حسنًا قلتِ ليس لي زوج؛ لأنَّه كان لكِ خمسةُ أزواج والذي لكِ الآن ليس هو زوجَك. هذا قلتِ بالصِّدق".

شعرَتْ كأنَّ قلبَها يغوصُ حتَّى قَدمَيها. انهارَتْ كلُّ دفاعاتِها في هذه اللحظة، وشعرَتْ بعَجزٍ وضَعْفٍ أكبرَ ممَّا يشعُرُ به الطفل الرضيع. لم تشعُرْ به حتَّى عند ولادتها. حاولَتْ أن تتكلَّم. لم تخرُجِ الكلمات. ثمَّ انسابَتْ بعضُ الكلمات منها دون أيِّ وعي.

"يا سيِّد أرى أنَّكَ نبيّ!"

وتابَعَتْ حوارَها مع "طفلةٍ" في داخلها بالقول:

"ماهذا الذي قُلتِ؟"

"لقد اعترفتُ بالحقيقة. ما يقولُه هذا الرجل هو الحقيقة".

"وكيف شَعرتِ بالأمان هكذا لتعترفي بالحقيقة؟"

"أنا أشعرُ معه بالأمان".

" كيف؟ ألم أعلِّمْكِ ألَّا تشعري بالأمان مع أيِّ إنسان، ولا سيَّما الرجال؟

"لا أدري. ولكنَّ هذا الرجلَ ليس مثل جميعهم؟"

"مَن أدراكِ يا غبيَّة؟"

"لا أدري. هكذا شعرت، فقُلتُ ما قلتُه".

"كم مرَّةً علَّمتُكِ ألَّا تقولي ما تشعرين به، بل عكسه تمامًا!".

"لم أستَطعْ".

ثمَّ استجمَعَتْ شجاعتَها المعهودة واستَدعَتْ بسرعةٍ أرشيفَها من المعلومات الدينيَّة؛ فلن تنفعَ في الغالب الحِيَلُ الأنثويَّةُ المعتادةُ مع رَجلِ الدِّين هذا. ثمَّ قالَت، وهي تحاولُ أن تبتعدَ بأسرع ما يمكنُ عن تلك النقطة التي وصلَ إليها الحديث:

"آباؤنا سَجَدوا في هذا الجبل وأنتم تقولون إنَّ في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يُسجَدَ فيه".

"يا امرأة، صدِّقيني أنَّه تأتي ساعةٌ لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تَسجُدون للآب. أنتم تَسجُدون لما لستُم تعلَمون. أمَّا نحن فنَسجُدُ لما نعلَم. لأنَّ الخلاصَ هو من اليهود. ولكن تأتي ساعةٌ وهي الآن حين الساجدون الحقيقيُّون يسجدون للآب بالرُّوح والحقّ. لأنَّ الآب طالبٌ مثل هؤلاء الساجدين له. الله روح. والذين يسجدون له، فبِالرُّوح والحقِّ ينبغي أن يَسجُدوا".

"صدِّقيني"؟ لم يَقُلْ لي أحَدٌ من قبلُ هذه الكلمةَ الحميمة. ثمَّ مَن هو هذا الآب؟ السجودُ هو لله. هل الله أب؟ هذا كلامٌ غريب. ما معنى الأُبوَّة؟ الأبوَّةُ بالنسبة إليَّ هي غيابٌ مُستَمرّ. ثمَّ ما معنى أنَّ الله روح؟ وهل يمكنُ السجودُ لله في أيِّ مكان؟حقًّا أنا أمامَ رَجُلٍ مختلفٍ يقولُ كلامًا مختلفًا. ويُشبهُ هذا الكلامُ ما تقولُه النُّبوَّاتُ عن الملكوت الآتي. كلامٌ ربَّما لن يتحقَّقَ إلَّا بعدَ أن يأتيَ المسيَّا نفسُه.

نحن لا نحبُّ اليهود، ولا هم يحبُّوننا. لكنَّنا جميعَنا ننتظرُ المسيَّا في نهاية الزمان. نحن كلُّنا نعرفُ أصلَه ومَصدرَه، ونعرفُ أنَّه سيُنصِفُنا جميعًا يهودًا وسامريِّين وكلَّ الآخرين. لكنْ متى يأتي؟ ألعلَّه يأتي أصلًا؟

"أنا أعلمُ أنا مسيَّا الذي يُقال له المسيح يأتي. فمتى جاءَ ذاك يخبرُنا بكلِّ شيء".

"أنا الذي أكلِّمُكِ هو".

دارَتِ الدُّنيا بها. أمسكَتْ بحافَةِ البئر لئلَّا تقعَ أرضًا. أنا أتكلَّمُ مع رجلٍ قال لي لتَوِّه إنَّه المسيَّا. لو لم تكُنْ عَيناه تُشِعَّان هذا الصِّدقَ العجيب، لضَحِكْتُ من أعماقِ قلبي.

المسيَّا أتى؟ وأتى إليَّ أنا؟ المسيَّا يأتي إلى الهيكل بمَجدٍ وقوَّة. لا يمكنُ أن يكونَ هذا هو المسيَّا. لكن لا يمكن أيضًا أن يكونَ هذا إنسانًا عاديًّا: فإمَّا أنَّه مجنون، وإمَّا أنَّه المسيَّا.

لكن كيف يكونُ هذا مجنونًا؟

المسيَّا يَظهَرُ على سحابِ السماء بمجدٍ في نهاية الزمان فيُخضِعَ الأرضَ تحت قدمَيه! المسيَّا لا يَظهَرُ لامرأةٍ متعدِّدةِ الأزواج على بئرٍ في سوخار بالسَّامرة.

عقلي يكادُ أن ينفَجر.

إنْ كان هو المسيَّا، فيجبُ أن يعرفَ الجميع. لا يمكنُ أن أحتفظَ بهذا الخبر لنفسي. إنَّه هو المسيَّا.

وسرعانَ ما تركَتِ المرأةُ جرَّتَها معه عند البئر، وهُرِعَتْ نحو المدينة التي كانت تهربُ منها وهي تردِّدُ عبارةً واحدةً فقط: "هَلُمُّوا انظُروا إنسانًا قال لي كلَّ ما فعلت. ألعلَّ هذا هو المسيح؟"

وقعَتْ كلُّ دفاعاتِها واحدًا تلوَ الآخر بينما كانت تجري. تسرَّبَ منها خِزيُها. لم تَعُدْ تبذلُ أيَّ جَهدٍ في مواجَهة الناس. لم تَعُدْ تحتاجُ إلى قناع القوَّة، أو حِيَلِ التفوُّق. شعرَتْ بأنَّ شيئًا ما يحتَويها أكبرُ منها وأكبرُ من الحياة نفسِها. شعرَتْ بقوَّةٍ وجرأةٍ لم تشعُرْ بهما من قبلُ.

قال لي كلَّ ما فعلتُ!

لقد صارَ عاري الذي كنتُ أُخفيه، برهانَ صِدْقِ بِشارَتي وحُجَّتي أنِّي وَجدْتُ المسيَّا الذي ينتظرُه الجميع. أنا السامريَّةُ المزواج الزانية التي تَعيشُ في الحرام، ظهرَ لي مَن تنتظرُه كلُّ الأجيال! يا لَها من كرامة! يا لَه من ردٍّ لاعتباري لم أكُنْ أتصوَّرُه!

وعندما سمعَ أهلُ المدينة هذه المرأةَ تحديدًا تقولُ هذا، هُرِعوا وراءَها وأتَوا إليه؛ فهي ليسَتِ امرأةً عاديَّة. الكلُّ يعرفُها ويعرفُ أنَّها لا تَنسى نفسَها هكذا إلَّا إذا كانَ ما تقولُه مُهِمّ. أخذوا يتكلَّمون معه ويكلِّمُهم بينما هي واقفةٌ وسطَ الصُّفوف تَنظرُ إلى أهل قريَتِها وتنظرُ إليه. علَتْ ابتسامةٌ غريبةٌ وجهَها، وجزءٌ من عقلها يُعِدُّ ما ستَقولُه لأليفاز لإنهاء العلاقة.

حينما التقَتِ المرأةُ السامريَّةُ يسوعَ، كان ذلك كافيًا ليَجعَلَها ترى نفسَها بوُضوحٍ لم ترَه من قبل، وتكتشفَ العلاقةَ بين سلوكيَّاتها وجوعها وعطشها إلى الحبِّ الحقيقيّ- الحبِّ الممزوج بالقبول والاحترام، وليس العواطف الغارقة في الشَّهوة والاستغلال. عندما نتقابَلُ وجهًا لوجهٍ مع احتياجنا الحقيقيِّ الأعمق، ينكشفُ أمامَنا الزيفُ ويَصيرُ التخلِّي عنه أمرًا مُمكِنًا، ليس دون صراع بالتَّأكيد؛ فللتَّعوُّدِ سُلطان، لكنَّه يصيرُ عندئذٍ سلطانًا منزوعَ الشرعيَّة.

الفصل ١١

قلبٌ منقسم

يبحثُ عن الله ويعبدُ المال

بعد أن وصلَ شمعي إلى سنِّ الثلاثين، وقعَ عليه الاختيار ليَكونَ أحَدَ أعضاء مجلس السنهدريم اليهوديّ. كانت لحظةُ الاختيار لحظةً مشحونةً بالمشاعر حيثُ تَذكَّرَ والدَه الذي تُوُفِّي وهو لم يزل في السابعة، حيثُ تركه مع أمِّه وطفلتَين، الصغرى بينهما كانت لا تزالُ رضيعة. حين وضعَ الشيوخُ عليه الأيادي وصَلُّوا، دارَ شريطُ ذكرياته كلُّه في مخيِّلَته، وكيف عاشَ حياةً طويلةً من الكفاح لكي يُثبتَ لأبيه أنَّه "تركَ وراءَه رجلًا". نَمَتِ التجارةُ التي ورثَها عن أبيه حتَّى إنَّه صارَ من أثرياء اليهوديَّة الكبار قبل أن يصلَ إلى سنِّ الثلاثين. لكنَّه كان دائمًا يشعرُ بأنَّ شيئًا ما ينقُصُه.

بالتَّأكيد، سَمعَ بالواعظ المتجوِّل ذائع الصيت الذي يُدعى يسوعَ الناصريَّ، والذي كان يأتي في رحلاتٍ خاطفةٍ من الجليل إلى اليهوديَّة ليُعَلِّمَ في المجمَع. سمعَ به واهتمَّ بتَعليمه، بل حضرَ أيضًا أحَدَ دروسه ذاتَ مرَّة. علمَ شمعي أنَّ يسوعَ

مَوجودٌ هذه الأيَّام في أورشليم، فذهبَ إلى حيثُ كان يُعَلِّم. وبعد انتهاء الدرس، تجمَّعَ بعضُ الأطفال حول يسوع وراحوا يتزاحَمون ليَقتربوا منه.

صاحَ أحَدُ تلاميذ يسوع: "ابتَعِدوا أيُّها الأولادُ عن المعلِّم، ولا تتقافَزوا حولَه هكذا".

فانتهرَه يسوعُ سامحًا للأطفال بأن يأتوا إليه، وعَلَّمَ تلاميذَه أنَّ الأطفال يُدركون بفطرتهم حلولَ ملكوتِ السَّموات، كما يُدرِكون أُبوَّةَ الله ويُهرَعون إليها عَطِشين إلى نَبع المياه. ومَن لا يعودُ كالطِّفل عَطِشًا إلى الآب السماويِّ ومقبلًا إليه، فلن يرى ملكوتَ السمواتِ أبدًا، ولن ينالَ الحياة الأبديَّة.

زادَتْ سرعةُ ضَرباتِ قلبِ شمعي عندما سمعَ هذه الكلمات، وقد كان يقفُ من بعيدٍ ويراقب. سالَتْ دمعتان ساخنتان على خَدَّيْ شمعي، ولم يمدَّ يدَه لمسحهما، ولم يهتمَّ بأن يراه الناس. لقد كانت عيناه تُتابِعان المشهدَ بتركيزٍ بالغ، وقلبُه يتمنَّى لو كان طفلًا مثل هؤلاء الأطفال الذين يتسلَّقون كَتِفَ يسوعَ ويحتَضِنون رأسَه بأذرعهم الصغيرة بصورةٍ رأى فيها تلاميذُ يسوعَ انتقاصًا من وَقاره.

أخيرًا، اصطفَّ الأطفال وهم يتَضاحَكون ويتزاحمون، فَراحَ يسوعُ يَضَعُ يَدَه عليهم واحدًا فواحدًا ليُباركَهم. وكلَّما كان يَضَعُ يدَه على رأس واحدٍ منهم، كانوا يحاولون أن يكتِموا ضحكاتِهم احترامًا لِوَقار اللَّحظة. بعد أن باركَ يسوعُ الأطفال، همَّ باستِكْمال المسير مع تلاميذه. جاءَ شمعي راكضًا وهو يرفعُ يدَيه لكي يراه يسوعُ وتلاميذُه، فوقفَ يسوعُ والتلاميذ.

اقتربَ شمعي وهو يلهَث...

"عذرًا سيِّدي! دقيقة من فضلك".

التفَتَ يسوعُ نحوه وأشارَ إليه أنْ يُهدِّئ من خطواته، وقال له:

"تمهَّلْ يا بُنيّ. لن نمشيَ، فنحن ننتظرك".

وصلَ شمعي إلى حيثُ كانوا يَقِفون عند بداية طريق السفر، ودونَ مُقدِّماتٍ دخلَ في الموضوع قائلًا:

"أيُّها المعلِّم الصالح. سمعتُكَ تتكلَّمُ بشأن الحياة الأبديَّة. أيَّ صلاح أعملُ لتَكونَ لي الحياة الأبديَّة؟".

شعرَ يسوعُ في قلبه بأنَّ شمعي بدأ يستخدمُ أسلوبَه في النِّفاق الذي استَخدمَه طَوالَ السنين الماضية ليَصِلَ به سريعًا إلى الثَّروة التي حقَّقَها، بالإضافةِ إلى عضويَّة السنهدريم، فردَّ قائلًا:

"لماذا تدعوني صالحًا؟ ليسَ أحَدٌ صالحًا إلَّا واحدٌ وهو الله. ولكنْ إنْ أردتَ أن تدخُلَ الحياةَ فاحْفَظِ الوصايا. أنت تعرفُ الوصايا: لا تَزنِ. لا تَقتُلْ. لا تَسْرِقْ. لا تَشهَدْ بالزُّورِ. لا تَسْلُبْ. أَكْرِمْ أَباكَ وأُمَّك". وهمَّ يسوعُ بالمسير.

شعرَ شمعي ببعض الخوف وبمسحةٍ من غضب. لماذا يكلِّمُني بهذه الطريقة الجافَّة؟ ليس هذا يسوع الذي كان يتكلَّمُ لتَوِّه بحنانٍ مع الأطفال. ثمَّ... ثمَّ ألم يَقُلْ من قبلُ عن نفسِه إنَّه "الراعي الصالح"؟ من المؤكَّد أنَّه يقصِدُ شيئًا آخر. عندئذٍ بدأ حوارٌ داخل شمعي:

"لماذا تُكلِّمُه بهذه الطريقة التي تُكلَّم بها التجَّار ورجال الدين؟ ألن تكفَّ؟"

"يجب أن أربحَه كما ربحتُ غَيرَه من رجال الدِّين والتجَّار، فوصلْتُ إلى ما أنا عليه.

"ولكنَّه مختلف. ألا تَرى؟ ألا تَرى ذلك؟"

"مختلفٌ بأيِّ طريقة؟"

"إنَّه الأبُ الذي طالما انتظرتُه. أريدُ أن أُهرَعَ إليه ليَحتَضِنَني كما كان يحتضنُ الأطفال".

"توقَّف! لا تُحرجْني. أنا عضوٌ في السنهدريم".

"عذَّبتَني بسنهدريمك وبرغبتك المحمومة في المال والسُّلطة والجاه. أنا أريدُه. أنا أريده. هو فقط. هو ما أبحثُ عنه. سأكلِّمُه!"

"يا مُعلِّم. هذه كلُّها حفظتُها منذ حداثَتي".

قال شمعي هذه العبارة بعينَين أُخريَين، وبِوَجهٍ آخرَ كان شبيهًا بِوُجوه الأطفال الذين كانوا يتَقافَزون حولَ يسوع منذ دقائق. عندئذٍ نظرَ إليه يسوعُ أيضًا نظرةً "أُخرى"، وظهرَتْ على وجهه ابتسامةُ محبَّةٍ عريضةٌ رجفَ لها قلبُ شمعي. ثمَّ سادَ صمتٌ لبِضع ثوانٍ دارَ فيها صراعٌ مريرٌ ما بين شمعي ونفسه. كان جزءٌ منه يريدُ أن يَجريَ ويتركَ كلَّ شيءٍ ويرتَمي في حضن المعلم الناصريّ، وجزءٌ آخرُ يخافُ على ما صرفَه في السنوات العشر الماضية من عمره بينما كان يجمعُ ثروَتَه ويبنيها. ودارَ حوارٌ آخرُ في داخله:

"أنت تعرف. ليست «الوصايا» هي ما نحتاجُ إليه. أنا أشعرُ بأنِّي أحتاجُ إلى أمرٍ آخر".

"وما الأمرُ الآخر؟ لقد حصَلْنا على كلِّ شيء".

"لا، لم نحصُلْ على أيِّ شيء".

"كيف؟ لدينا المالُ والسُّلطةُ والجاهُ والدِّين والاحترامُ من الجميع كبارًا وصغارًا".

"لا، أنا أريدُه هو. هو الأبُ الذي كنتُ أبحث عنه دائمًا. هو الحياة. هذا هو

الملكوتُ. هذه هي الحياة الأبديَّة التي يتكلَّمُ بشأنها. الملكوتُ ليس جاهًا وقوَّةً وسُلطة، إنَّه «هو» الملكوت. إنَّه «هو»الحياة الأبديَّة".

"ما هذه الهرطَقات التي تقولُها؟"

"لا أعرف. هذا ما شعرتُ به حين كان يحتَضنُ الأطفال. شعرتُ بأنَّ الكَون كلَّه كان يدورُ حولَ هذا المشهد. أنا مستَعدٌّ لأنْ أتركَ كلَّ شيء وأظلَّ طولَ عمري حولَه مثل هؤلاء الأطفال".

"اصمت!"

عادَتْ ملامحُ شمعي إلى ما كانت عليه في البداية من صرامةٍ وتجهُّم وجِدِّيَّة.

"ماذا يُعوِزُني بعدُ؟"

"يُعوِزُكَ شَيءٌ واحدٌ: اذْهَبْ بِعْ كلَّ ما لكَ وَأَعطِ الفُقراء، فَيكونَ لكَ كَنزٌ في السَّماء، وتَعالَ اتْبَعنِي حامِلًا الصَّليبَ".

نَفذَتْ كلماتُ يسوعَ مثل سَيفٍ طويلٍ ذي حدَّين في قلبِ شمعي وكأنَّها شطرَتْه نصفَين- النصفَين اللَّذين كانا يتصارَعان فيه، فزادَ صراعُهما واحتَدمَ حوارُهما:

"أبيعُ كلَّ ما لي؟ أبيعُ نفسي؟ أبيعُ كلَّ ما شَقيتُ لأجله وتحمَّلتُ ليالِيَ دون نوم، وعناءَ سفرٍ بالأسابيع في قوافل التِّجارة؟ أبيعُ تجارتي وتجارةَ أبي وجدِّي؟ هل يُعقل هذا؟ هل يريدُ الله هذا؟ الله هو الذي باركَني بهذا، ولو لم أكُنْ متديِّنًا وحافظًا الناموسَ، لَما باركَني. لم أكسِرْ سبتًا، ولم أترُكْ ربحًا إلَّا ودفعْتُ عُشرَه للهَيكل. وإذا صرتُ فقيرًا، هل سيُبقونَني عضوًا في السنهدريم؟ لا وألفُ لا. هذا الرجلُ يهذي".

"بل يقولُ الحقّ. هذه التي تَظنُّها نفسَك، ليسَتْ هي نفسَك. أنا نفسُك. أنا نفسُك التي تحبُّ يسوع وتريدُ الحياة الأبديَّة، ولا تُقيمُ وزنًا لكلِّ هذه الأُمور التي

أفنَيتُ فيها أفضلَ سنواتِ عمري وعمرك. هو لا يريدُ مالَكَ، بل يُريدُ أن يستَردَّ قلبَكَ من المال الذي استَحوَذَ عليه. ألَا تقولُ الشريعةُ، التي تَدَّعي أنَّك حَفِظْتَها، أن تحبَّ الربَّ إلهَك من كلِّ قلبك؟ أنت لا تحبُّ من كلِّ قلبك إلَّا مالَك وجاهَك وسلطانَك. أنت كاذبٌ كبير".

"وهل تعني محبَّتي لله بالضَّرورة أن أكونَ فقيرًا؟"

"لا، بل تعني أن تقاوِمَ حبَّ المال. قُل له إنَّك تحبُّ المال. اعترفْ له بصِراعِكَ واترُكْه يساعدك".

"لا، لن أقول. ثمَّ اسمَعْ ما يقوله أيضًا: إنَّه يطلبُ أن أتبعَه «حاملًا الصليب». سيَقودُني إلى الموت".

"بل إلى الحياة".

"كيف؟ ألَم تسمَعْ؟ هل الصليبُ أداةُ حياة؟"

"أجل".

"كيف ذلك أيُّها الطفلُ المعتوه؟ أنا المخطِئ إذ أقبَلُ أن أستمعَ إلى طفلٍ مثلك. كان تلاميذُ يسوعَ على حقٍّ؛ لأنَّهم لم يُريدوا تَضييع وقتِ الخدمة مع الأطفال".

"استمع أنت. الصليب الذي يتكلَّمُ بشأنه هو ما يريدُ أن يقتلَ به حبَّك للمال الذي ستقتلُ به نفسَك وتقتُلُني. لم تُعطِني لحظةَ راحةٍ في سَعيِكَ المحموم نحو المال. إنَّه يريدُ أن يُميتَ «مَوتَك» فتَحيا. أجل، الصَّليبُ هو أداةُ حياة. هيَّا اسجُدْ أمامَه وقُلْ له عن دائِك العُضال. اعترفْ له أنَّك تحبُّ المالَ من كلِّ قلبِك، وأنَّك لم تحفَظِ الوصيَّةَ العُظمى التي تلخِّصُ كلَّ الوصايا".

"لا، لن أفعَلَ ذلك بتاتًا".

"أرجوك".

"لا، أنا رجلٌ أربحُ مالي بعَرقِ جبيني، وسأنالُ الحياةَ الأبديَّة أيضًا بِعَرقِ جبيني؛ لأنّي رجلٌ متديِّن. لم أسرقْ ولم أقتُلْ ولم أشهَدْ زورًا. لقد حفظْتُ الوصايا ولا أحتاجُ إلى هذا المعلِّم المهووس".

"أرجوك! ستُهلِكُنا".

"اصمتْ".

"افعَلْ ما شئت، لكنَّك ستَبقى حزينًا طَوال عمرك، ولن يسعدَك مالُكَ ولا دِينُك المزيَّف. أنت لا تعرفُ الله، ولا تعرفُ نفسَك، وستَظلُّ تائهًا وستَقتلُني معك".

"اصمتْ تمامًا! لا أريدُ أن أسمعَ صوتَك بعدَ الآن".

في اللقاءين السابقَين، تقابَلَ يسوعُ مع امرأةٍ ورجلٍ كانت رغبتُهما في معرفة الله ومعرفة نفسَيهما قابعةً خلفَ دفاعاتٍ وأكاذيبَ دينيَّةٍ واجتماعيَّةٍ وعِرقيَّةٍ وغرورِ المال والسُّلطةِ والجاه. وفي هذين اللقاءَين، حَرَصَ يسوعُ في الوقت ذاته الذي يعرِّفُهما فيه إلى الله ويدخلُهما في علاقةٍ شخصيَّةٍ به، أن يجعَلَهُما يتعرَّفان مساحاتٍ عميقةً غير معروفةٍ من نفسَيهما. لقد كان ذلك مؤلمًا، لكنْ كان يسوعُ يعلَمُ أنَّ هذا هو الطريقُ إلى الحياة في ملكوت الله؛ فالحياةُ في الملكوت ليسَتْ فقط نوالَ خلاصٍ ونجاة، بل هي أيضًا تغييرٌ ونُضجٌ وتطوُّر. وتجعلُ تلك الحياةُ معرفةَ الله ومعرفة النفس تعمَلان معًا لكي تُثمِرا تغييرًا حقيقيًّا في الإنسان. ولعلَّ المفارَقةَ هي أنَّ المرأةَ السامريَّةَ البعيدةَ فاسدةَ العقيدة، قَبِلَتْ هذه العطيَّة، بينما رفضَها الشابُّ اليهوديُّ المتديِّن سليمُ العقيدة. لم يُرِدْ ذلك الشابُّ الغنيُّ أن يواجِهَ نفسَه بأمانةٍ وجرأةٍ و"يَصلِبَ" زَيفَها ويُميتَ موتَها فيَحيا.

الفصل ١٢

اليومَ حصلَ خلاص

رئيسُ العشَّارين يواجِهُ الحقيقة

"يا زكَّا! أسرعْ وانزلْ؛ لأنَّه ينبغي أن أمكُثَ اليومَ في بيتك!"

غالبًا، قالَ يسوعُ هذه العبارةَ بصوتٍ عالٍ حتَّى يسمعَه زكَّا الذي تسلَّقَ شجرةَ جُمَّيزٍ كبيرةً وسطَ صَخَبٍ جماهيريٍّ هائل. بعد أنْ قالَها يسوع، سادَ صمتٌ لثَوانٍ لم تَقطَعْه سوى همهماتِ اعتراضٍ وصلَ بعضُها إلى أذنَي يسوع وآذان تلاميذه:

"لقد دخلَ ليَبيتَ عند رجلٍ خاطئ!"

"هو لم يَدعُه، لكنَّ يسوعَ اختارَ أن يبيتَ عندَه. بالتَّأكيد سيفعلُ هذا؛ فهو غنيٌّ وسيَمُدُّ له مائدةً فاخرة".

"لو كان هذا نبيًّا، لَعَلِم أنَّ زكَّا هذا رئيسُ العشَّارين".

"هو يعلَمُ أنَّه رئيسُ العشَّارين. هذا عَيبُ يسوع. تعليمُه جميل، وفي كلامه سلطان، ومعجزاتُه لم يعمَلْها نبيٌّ قبله، لكنَّ عيبَه الوحيد هو تساهُلُه مع الخطاة".

"أنا محبَطٌ منه جدًّا. كنتُ أظنُّ أنَّه بارٌّ نقيٌّ لا يختَلطُ بالخطاة".

"هذا رجلٌ مخادع".

"إنَّه يعلَمُ أنَّ زكَّا غنيّ. ويعلَمُ أنَّه سيُعِدُّ له وليمةَ عشاءٍ فاخرة. عيبُ يسوعَ أنَّه يحبُّ الولائم والطعام الشَّهيّ. كيف يتصوَّرُ أحَدٌ أنَّ مَن بدأ خدمتَه بالصِّيام أربعين يومًا يكونُ هكذا أكولًا وشرِّيبَ خمر، محبًّا للعشَّارين والخطاة؟".

نزلَ زكَّا من على الشجرة والفرحةُ لا تَسَعُه، وصارَ يمشي وسطَ الناس بفخرٍ وخَيلاء؛ فقد صارَ في غفلةٍ من الزمن مُضيِّفَ يسوعَ لهذه الليلة. اصطحَبَ زكَّا يسوعَ وتلاميذَه إلى بيته وهو يُمنِّي النفسَ أن تراه الدُّنيا كلُّها يمشي متأبِّطًا ذراعَ يسوع. أجل، إنَّه يسوع الذي تتمنَّى كلُّ اليهوديَّة والسامرة والجليل، بل أيضًا كلُّ سورية أن تنعمَ بنَظرةٍ من عينَيه.

صُوَرٌ من الماضي تقتحمُ ذاكرةَ زكَّا بينما هو يمشي مع يسوع.

مجموعةٌ من الأطفال الصغار العنيفين يلتَفُّون حولَ زكَّا القصير، ويُعايِرونه لقِصَرِ قامَتِه ضاحكين، والغبار يملأ الجوَّ حول مجموعة الأطفال.

خلال تلك اللَّحظات، تاهَتْ نظراتُ زكَّا وكأنَّه يرى ما لا يراه أحَد. ثمَّ فجأةً يعودُ بنفسه إلى الحاضر وينظرُ إلى يسوعَ بابتسامةٍ عريضة محاوِلًا أن يَجِدَ أيَّة معلوماتٍ دينيَّةٍ أو فِقراتٍ كتابيَّة يتجاذَبُ بها أطرافَ الحديث مع هذا المعلِّم ذائع الصِّيت، لكي يشعُرَ ببعض "الاستحقاق" أن يكونَ هذه الليلة مُضيِّفَه هو وتلاميذه.

"أيُّها المعلِّمُ يسوع، عَلِمْتُ أنَّك تقولُ إنَّ ملكوتَ السموات قدِ اقترب. هل يعني هذا أنَّ أيَّامَ الرُّومان قد صارَتْ مَعدودةً بيننا؟ لقد سمعتُ أنَّك تَتْلو كثيرًا نبوَّاتِ إشَعياءَ عن اقترابِ الملكوت. أنت تعلَمُ دون شكٍّ أنَّ إشَعياءَ عاصَرَ أربعةَ

ملوكٍ كان آخرَهم حزقيا الملكُ الـمُصلح".

نظر يسوع إليه وابتسمَ بحنان، ولم يَقُلْ شيئًا.

عادَتْ نظراتُ زكّا إلى الأفق، وكأنَّ روحًا غريبًا تملّكه...

يرى نفسَه طفلًا يعودُ وحيدًا من "كُتّاب" أريحا وعلى خَدَّيه خطّان بفعل الدُّموع التي جفّت، وقد جعلَهُما التّرابُ خطّينِ من طين. أمّا قلبُه الصغير فيَشهَدُ تحوّلًا بالتّدريج من الخِزي إلى الألم، ثمَّ من الألم إلى الغضب، وبعده إلى المرارة، من ثَمَّ القرار والتّصميم.

اندمجَ في تيّار ذكرياته حتّى إنّه شدَّ قبضةَ يمينه وهو يمشي مع يسوع.

تَذَكّر زَكّا أنّه اتّخَذَ قرارًا، وهو عائدٌ إلى البيت في ذلك اليوم منذ أربعين سنة:

"أحلفُ بالسّماء والأرض إنّه سيأتي يَومٌ فيه أجعَلُ كلَّ هؤلاء يجثون لي ويستَعطِفوني. لا أعلمُ كيف، لكن أعلَمُ أنّي سأفعل ذلك".

عادَ ذهنُ زكّا إلى الحاضر قليلًا وتعجّب. كيف استَطاعَ يسوعُ أن يرى جسدي الصّغير مُعلّقًا على تلك الجُمّيزة الهائلة وسط هذه الجماهير الغفيرة. لماذا قال إنّه "ينبغي" اليوم أن يمكثَ في بيتي. لعلّه كان يرى ما يدورُ في داخلي؟ ألعلّه يعرفُ شريطَ الذكرياتِ الذي تأتي صُوَرُه متدافِعةً في ذهني الآن؟

لم يكُنْ زكّا سوى طفلٍ صغيرٍ وُلِدَ منذ خمسين عامًا في قريةٍ مجاورةٍ لأريحا لا يرغبُ من الحياة سوى أن يُحِبَّ ويُحَبّ، لكنّه اضطُرَّ مثل الكثيرين، عندما لم يَجِدِ الحبّ، لأن يبحَثَ عن بدائلَ له. لقد وصَلَتْ إلى زكّا مثلَما وصلَتْ إلى الكثيرين، رسالةٌ مَفادُها أنْ لا مكانَ ولا حبَّ ولا احترامَ في هذه الحياة إلّا للجريئين والجميلات، طِوالِ القامة ممشوقي القَوام، فإنْ لم تستَطِعْ أن تكونَ من

طِوال القامة، فَلْتَكُنْ من نخبة القَوم. وإنْ لم تستَطعْ أن تكونَ من أقوياء الجسد، فَلْتَكُنْ من أصحاب المال. لا بدَّ أن تفعَلَ شيئًا يستَحقُّ الاهتمام ليَكونَ لكَ مكانٌ بين الجموع. لكي يلحَظَكَ الناسُ، يجب أن تَعتَليَ برجًا أو شجرةً، أو أن تَقِفَ فوقَ كومةٍ من المال أو وسط "شلَّةٍ" من الأصدقاء.

فكَّرَ زكًا في قلبه...

لكنَّ مالي ونفوذي لم يجتَذِبا يَومًا نَوعيَّةَ يسوع، بل على العكس، كان هؤلاء يَنفرون منِّي وينعتوني بالسَّارق الخائن. لم أُعجِبْ يومًا طائفةَ المتديِّنين ولا حتَّى طائفةَ السياسيِّين الثوَّار الراغبين في تغيير الأمور. كان المنتَمون إلى تَينِك الطائفتَين هم الوحيدين الذين لا يتَملَّقوني. ولَكَمْ تمنَّيتُ أن أضمَّهم أيضًا إلى مجموعة المنتفعين من صداقتي الخاطبين وُدِّي! وها أنا الآن قد ظفرتُ بأفضل مَن فيهم وأكثرهم شُهرةً ومجدًا، حتَّى إنَّ مُدُنًا بأكملها تخرجُ لتَمشيَ وراءَه. هو الآن يمشي بجانبي ذاهبًا إلى بيتي. لقد حصلْتُ على كلِّ شيء، وحقَّقتُ أمَلي القديم، بل ما هو أكثر منه.

لكنْ... لكنْ لا يزالُ هناك شيءٌ صغيرٌ في أعماقِ قلبي لا يُريحُني تمامًا. عندما التَقَتْ عيناي عينَيه وأنا فوق الشجرة، رأيتُ شيئًا لم يسبقْ لي أن رأيتُه. لم أرَ الغَيرةَ ولا الحسدَ ولا الإعجاب، وأنا مَن يستطيعُ أن أميِّزَ هذه الأمور جيِّدًا في عيون الناس لكثرة ما رأيتها. كما لم أرَ الضِّيقَ والدَّينونةَ والاحتقار، وهي أمورٌ اعتدتُ رؤيَتَها في عيون المتديِّنين. رأيتُ شيئًا لم أرَه قطُّ من قبل. سَهْمان من عينَيه اخترقاني وكأنَّهما يعرفان طريقَهما جيِّدًا إلى داخل القلب. ربَّما كان هذان السهمان هما اللَّذين فَتَحا عليَّ خِزانةَ الذكرياتِ والصُّوَرِ القديمة التي توافيني من غَياهِبِ الطُّفولة.

لا يَهُمُّ كلُّ هذا الآن، فكلُّ ما يعنيني هو أن أحتفظَ بِيَسوع حتَّى يدخُلَ تحت سقفي. أتمنَّى ألَّا يُصادفَه مريضٌ أو مسكونٌ بروحٍ شرِّير، فيُمضيَ الأمسيَّةَ معه ويعتذرَ لي بلباقةٍ عن عدم قدرتِه على المجيء إلى بيتي. كما أتمنَّى ألَّا يبدأ في تعليم هذه الجموع حتَّى تَغيبَ الشمسُ أو ينصرفَ عنِّي في منتصف الطريق ويذهب إلى الجبل ليُمضيَ الليلَ كلَّه في الصلاة. أنا أعلَمُ أنَّ سلوكيَّاتِه غير متوقَّعةٍ دائمًا.

هل يُعقَلُ أن يفعلَ ما قالَه؟ هل يَبيتُ تحت سقفي، ويأكلُ في بَيتي؟ هل يُعقَلُ أن يكونَ بَيتي، الذي يَنعتُه الفَرِّيسيُّون بالنَّجاسة، هو مكانَ إقامته في أثناء زيارته إلى أريحا؟ لا أظنّ. أغلبُ الظنِّ أنَّه سيعتَذرُ لي في منتصف الطريق خَوفًا على سُمعتِه وخدمته. ولكنِّي لن أتركَه يمضي، ولن أتركَه إلَّا تحت سقفي وأمام مائدتي.

رتَّبَ الخدمُ المائدة.

ربَّما كانَتْ أفخرَ الموائد التي مُدَّتْ في أريحا في الآونة الأخيرة. لم ينقُصْها شيءٌ من أطايبِ الطَّعام والشَّراب.

الجميعُ سعداء، ورائحةُ الشِّواء اللذيذةُ تتصاعَدُ من خروفٍ متوسِّطِ العمر اتَّخذَ مكانَه المميَّزَ وسط المائدة.

كان زكَّا سعيدًا للمرَّة الأولى منذ فترةٍ طويلة. كان سعيدًا بحَقّ. لكنَّ شيئًا ما قويًّا كان يحدُثُ في أعماقه ويُلهِبُ قلبَه كما ألهبَتْ نارُ الشِّواء ذلك الخروفَ الذي سينشغلُ الجميع بالتِهامِه بعد دقائق.

تلك النظرة.

يا لَها من نظرة!

لقد قلبَتْ كِياني. ليسَتْ نظرةً عاديَّة. لقد أعلَنَ استعدادَه لأنْ يدخُلَ بَيتي دون أن أتوب. لم يسألْني إنْ كانَتْ أموالي التي سأستَضيفه بها "حلالًا" أم "حرامًا". لم يهتَمّ. سيأكُلُ طعامي، ويَبيتُ تحت سقفي. ألا يعلَمُ أنّي رئيسُ العشّارين؟ ألا يعلَمُ مَصدرَ تلك الوليمة وذلك البيت؟ هل سيَملأ معدتَه الطاهرة بهذا المال الحرام، الذي يقولون عنه إنّه لا يُشبعُ بل يُلهِبُ الجوف؟ أيَّ محبَّةٍ ملأتْ قلبَه من نحوي حتّى صارَ مستَعدًّا لأنْ يأكُلَ من مالي الحرام دون أن يَدينَني أو يُحرجَني؟ هل أستَحقُّ أنا هذا الحبّ؟ وما الذي يستحقُّ فيَّ مثلَ هذا الإكرام؟

نظرَ زكّا إلى الأفق بعيدًا، وبدا أنّه يحادثُ نَفسه دونَ كلمات.

عندما كنتُ أرجعُ إلى البيت مُعذَّبًا من تعييرات الأطفال، كنتُ أَركضُ لاهثًا باحثًا عن حِضْن أمّي لكي أُطفئ فيه نيرانَ ألمي وخَوفي. لكنّي كنتُ أجِدُها دائمًا جالسةً أمامَ الفُرن. عاشَتْ ستّين سنةً جالسةً أمامَ الفُرن. كنتُ أركضُ لأرميَ نفسي في حضنها فتَنفرَ وتصرخ: "أفسدْتَ العجين يا غبيّ! هل نَجِدُ القمحَ في الشارع؟ اذهَبْ لإبدال ملابسَك واغتسل لكي «تتسمَّمَ» ثمَّ تنام. لقد مللتُ منك ومن أبيك ومنكم جميعًا".

كنتُ أذهَبُ لأبدِّلَ ملابسي خالعًا أحزاني مع حذائي، واضعًا على قلبي جدارًا سميكًا لئلّا يَئِنَّ أو يشعر. وبالفعل، كنتُ «أتسمَّم». لقد تسمَّمَتْ كلُّ حياتي. أغلقْتُ على قلبي بجدارٍ سميكٍ لئلّا أتألَّم. لم أكُنْ أشعر: فلَم أشعُرْ بالألم، كما لم أشعُرْ قطُّ بالسعادة، ولم يرقَّ قلبي لأحَد، لا للأرملة ولا لليَتيم. انتزعْتُ اللُّقمةَ الوحيدةَ عن فم الفقير لأقتسمَها مع هيرودس الرومان. جمعْتُ لنفسي أكثرَ فأكثر، وتَباعَدَ عنّي قلبي أكثر فأكثر.

بنيتُ هذا البيتَ على فدَّان كاملٍ من الأرض، وألحقتُ به حظائرَ للغَنَم والماشية، ومعصرةً تُنتجُ أفخرَ أنواع النَّبيذ. بعد دقائقَ سيشربُ يسوعُ من نبيذي. أجل، نبيذي الذي صنعتُه من دم الفقراء والمساكين.

ما الذي جرى لي؟ ما هذا الذي أقولُه؟ أشعرُ بشيءٍ ما يتغيَّرُ في قلبي. ذلك الجدارُ الحجريُّ يتحرَّك، ويَرِقّ. أنا لم أبكِ منذ سنِّ العاشرة. ما للدَّمع يتجمَّعُ في مُقلتَيَّ ويقفزُ فوق دفاعاتِ قلبي الذي قرَّرَ منذ زمنٍ ألَّا يشعر؟ فيَّ شخصًا آخرَ يثورُ عليَّ ويريد أن «يقلبَ نظام الحُكم» في حياتي. ما لي أرى الناس وكأنِّي قد استبدلتُ بعَينَيَّ عينَين أُخرَيَين؟ كيف أريدُ أن أحتضنَ الجميع وأملأَ الدُّنيا حبًّا وقُبُلات؟ ما لي أشعرُ للمرَّة الأولى بانسجامٍ بين قلبي وعقلي؟ ما للألوان قد صارَتْ أكثرَ تلوُّنًا؟ وما للشَّمسِ أكثرَ إشراقًا؟ ما لي أشعرُ بأنِّي أملأُ كلَّ جسدي، وأفتَخرُ بِقِصَر قامتي؟ إنِّي أرى عينيَّ في مستوى عيون الناس نفسِه للمرَّة الأولى. ليسَتْ فَوقَهم أو تحتَهم. لا أريدُ أن أكونَ فوق الجميع... ولا أن أشعرَ بأنِّي أقلُّ منهم.

ماذا فعلَتْ بي نظرةُ يسوعَ؟

كيف قلبَ حالي وهو لم يَقُلْ سوى إنَّه ينبغي أن يمكُثَ في بيتي؟

لم يعِظْني.

لم يُطالِبْني بِرَدِّ المسلوب.

لم يربطْ ما بين دخوله تحت سقفي وتنظيفي بيتيَ من الحرام.

إنْ كان هذا البارُّ قد قبَّلني هكذا بِوَسَخي وعاري، فعليَّ إذًا أن أنظِّفَ نفسي.

وقفَ زكَّا وسطَ وليمةِ العشاء... ورفعَ الكأس.

ظنَّ الجميعُ أنَّه سيقترحُ نخبًا ويتاجِرَ بالأقوال، لكنَّه فاجئ الجميع إذا قال:

"أنا لصّ. أنا واشٍ محتال. وسأردُّ الأموالَ".

تَهاوى آخِرُ حَجَرٍ من جدارِ القلب السَّميك. لقد اعترفْتُ. رفعْتُ عن قلبي هذا الحِمْلَ الهائلَ الذي أثقلَ كاهلي على مدى ثلاثين سنة. تساقَطَ كلُّ إحساسٍ بالذَّنب والعار عندما سردْتُ أسوأ جزءٍ من قصَّةِ حياتي أمام الجميع. لم يحلَّ الليلُ بعدُ، ولكنّي أشعرُ من الآن بأنّي سأنامُ الليلةَ مِلء جفنَيَّ. أشعرُ بأنَّ قلبي قد صارَ الآن قطعةً واحدةً بعد أن كان لزمنٍ طويلٍ متشَرذِمًا منقسمًا.

عاجَلَه يسوعُ بالتَّشجيع قائلًا:

"اليومَ حصلَ خَلاصٌ في هذا البيت، إذ هو أيضًا ابنٌ لإبراهيم؛ لأنَّ ابنَ الإنسان قد جاء لكي يطلُبَ ويخلِّصَ ما هلك".

إذًا، كنتَ ستَدخُلُ بيتي وأنت تعلَمُ من أين جئتُ بكلِّ هذا. كنتَ تعلمُ كلَّ الوَقتِ أنّي هالكٌ وأحتاجُ إلى الخلاص، ومع ذلك قلتَ إنَّه ينبغي أن تمكُثَ في بيتي. كنتَ تعلَمُ أنَّ خلاصي لا يأتي بمجرَّد الاعتذار والنَّدم. كان عليَّ أن أردَّ المسلوب، ولم تطلُبْ منّي أن أفعلَ ذلك. أنا ابن إبراهيم. أنا أعرفُ الشَّريعة. لقد وصلَتْ إلى مسامعي بعضُ أركان الشريعة وأنا في الكُتَّاب قبل أن أتحوَّلَ إلى "العمل العامّ" هه... "العمل العامّ"، أقصدُ "السرقة العامَّة".

لم يتكلَّمْ يسوعُ لأنَّه يعرفُ أنَّ نظرتَه قامَتْ بالعَملِ كلِّه، وقبولَه استَطاعَ أن ينفَذَ إلى ذلك الطفل القابع داخل زكّا العطشان إلى الحبِّ والقبول. فيَسوعُ ليس مثل المتَديِّنين، وهو لا يتعامَلُ بالدَّينونة، ولا يَدين. يسوعُ لا يعرفُ سوى لُغةِ الحبّ.

الفصل ١٣

يَنبوعٌ يتوقَّف وآخرُ ينفَجِر

السيِّدُ المسيحُ يشفي امرأةً بنَزْفِ دمٍ ونَزْفِ كرامة

كانت صَفُّورة قد أنفقَتْ آخرَ ما معَها من نقود- بعدَ بَيع السِّوار الذهبيِّ الأخير التي كانت تملكُه- على آخر الأطبَّاء الذي قالَتْ لها صديقاتُها عنه إنَّه يستطيعُ شفاءَ يَنبوع دمِها الذي صارَ له أكثرُ من اثنتَي عشرةَ سنةً الآن. وعادةً ما كان يطرأُ تحسُّنٌ طفيفٌ في البداية، ثمَّ ما يلبثُ أن يتدفَّقَ النَّزْف- الذي بلا تفسير- ثانيةً. كما وصلَ شحوبُها وهُزالُها إلى درجةٍ صار فيها منظرُها أقربَ إلى الموتى منه إلى الأحياء.

بدأ النَّزْفُ عندما كانت في الثلاثين من عُمرِها لسبب غير معروف، ولم تَمرَّ سنةٌ قبل أن يتركَها زَوجُها بسبب ذلك النزيف المتدفِّق الذي كان يمنعُه من ممارسة حياته الزوجيَّة معها. وبحسب ناموس موسى، أعطاها "كتابَ طلاقها"، فذهبَتْ لتَعيَش مع أختها الوحيدة التي لم تتزوَّجْ، وعكَفَتْ على تربية أطفالها معها بينما تزوَّجَ طليقُها بامرأةٍ أُخرى.

تجرَّعت صفُّورة مَرارةَ المرض والهَجْر معًا، أمَّا ما كان يؤلمُها أشدَّ الألم، وهي امرأةٌ تقيَّة، أنَّها لم تستَطعْ أن تذهبَ إلى الهيكل بتاتًا، ولا أن تُقدِّمَ أيَّةَ ذبيحةٍ بسبب نجاستها الطقسيَّة. حتَّى إنَّها لم تستطعْ أيضًا أن تلمسَ الكُتُبَ المقدَّسة بسبب يَنبوع دَمِها الدائم، فكانَتْ مثلَ امرأةٍ طامث (حائض) بشكلٍ مستَمرّ. وهكذا شعرَتْ ليس فقط بأنَّها مَرفوضةٌ من الزَّوج، بل أيضًا من الله الذي يَبدو أنَّه يُريدُها لا أن تقتربَ من بَيتِه، أو أن تمسَّ مقادِسَه.

حتَّى ابنتُها الشابَّةُ التي تزوَّجَتْ حديثًا بأحَدِ شبابِ الفَرِّيسيِّين، لم تستَطعْ أن تزورَها إلَّا سرًّا؛ لأنَّ زَوجَها كان يمنعُها لاعتقاده أنَّ أمَّها امرأةٌ خاطئةٌ ملعونةٌ من الله، لذا أصابَها ذلك النَّزيفُ الذي لا يُشفى.

"كيف حالُكِ اليومَ يا صفُّورة؟"

"حمدًا لله يا أُختاه".

"لِمَ لا تأكلين شيئًا؟ لقد زادَ شحوبُك هذه الأيَّامَ كثيرًا يا أختي".

"أعلَمُ ذلك. لكنْ ليسَتْ عندي شهيَّة للطَّعام. شكرًا لك".

"لا يُمكِنُ أن تواصِلي على هذا النحو يا صفُّورة، لا بدَّ، على الأقلّ، أن تعوِّضي الدَّمَ الذي تَفقِدينَه كلَّ يَوم".

"ليسَتْ عندي رغبةٌ في الحياة أصلًا، وأتمنَّى لو أموت. ماذا لي لأعيشَ من أجله؟ لقد اقتنعْتُ أنِّي إنسانٌ نجس. أنا عديمةُ الإيمان مَرفوضةٌ من الله".

"لماذا تقولين هذا يا صفُّورة؟"

"الجميعُ يقولون هذا: يهوذا زَوجي، أعني زوجيَ السابق، وزكريَّا زَوجُ ابنتي، وكلُّ الأهل والجيران. لم تُصَبِ امرأةٌ بهذا النَّزيف لسنين طويلةٍ مثلما أصابَني.

لا بدَّ أنَّ لعنةً ما أصابَتْني، كما أنّي لا أستطيعُ أن أذهبَ إلى الهيكل لأُقدِّمَ ذبيحةَ كفّارة؛ فأنا خاطئةٌ وتوبَتي أيضًا غيرُ مقبولة".

لم تحتَملْ أليصابات هذا الكلامَ ولم تعرفْ ماذا عليها أن تقول. وفي صمتها، سالَتْ دموعُها واقتربَتْ من أُختها واحتَضنَتْها. فتابعتْ صفُّورة كلامَها باكيةً، ووجهُها مَدفونٌ في حضن أليصابات، حتّى إنَّ كلماتِها خرجَتْ مثل غَمغَماتٍ مكتومة:

"كُلُّهُم تركوني إلّا أنتِ يا أختي، فإنَّك تحتَملينني وتحتَملين رائحتي ونجاسَتي المستمرَّة. لا أدري ماذا أقول لك".

"أنتِ أُختي الوحيدة يا صفُّورة، والله يعلمُ كم أُحِبُّك، وكم أتألَّم لِمَا أنتِ فيه".

كان البيتُ الذي تقيمُ فيه الأختان في كفرناحوم، قريبًا من البحر، وكانت أليصابات تعمَلُ في بَيع السَّمك. تذهَبُ كلَّ صباح إلى بحر الجليل (بحَيرة طبريَّة) لتُقابِلَ الصيَّادين وتحصُلَ منهم على بعض السَّمك بالثَّمن الآجِل (برَسم البيع)، لتَبيعَه خلالَ النَّهار في شوارع كفرناحوم، ثُمَّ تعودُ قُبَيلَ الغروب لتَدفعَ ثمنَه للصيَّادين، وبعد ذلك تَبتاعُ عشاءَها وتعودُ لتَتَناوَلَه مع أختها صفُّورة التي كانَتْ في الغالب تُمضي معظمَ يومها في الفراش بسبب ضَعفِها، وفَقْرِ الدَّم الشديد الذي صارَتْ تعانيه بعد اثنتَي عشرةَ سنةً متواصِلةً من النَّزيف.

وذاتَ يَوم، رجعَتْ أليصاباتُ إلى المنزل بعدَ ساعةٍ واحدة من خروجها...

"مَن هناك؟"

"أنا يا صفُّورة، أنا أليصابات".

"أليصابات؟ لماذا عُدتِ باكرًا هكذا؟ ألَمْ تَجدي صَيدًا لتَبيعيه؟"

قالَتْ أليصابات، بحماسٍ شديد وهي تلهث، فقد جاءت راكضةً من شاطئ البحر:

"لا يا صفُّورة، دَعْكِ من الصَّيد والسَّمك. قومي حالًا وارتَدي ملابسَك".

"ما الأمر؟"

"سأقولُ لَكِ بينما تَرتَدين ملابسَك، فأنت تحتاجين إلى وقتٍ طويل".

"بسبب تَعَبي يا أليصابات".

"أجل! أعلَمُ يا حبيبتي. قومي إذًا".

قامَتْ صفُّورة بصعوبةٍ وهي تتأوَّه من ألم العضلات، وراحَتْ ترتَدي ملابسَها بينما كانت أليصابات تحكي بحماسةٍ وسرعةٍ وهي تُصارِع لاستجماع أنفاسها.

"ذهبْتُ في الصباح كالعادة عند شاطئ البحر، فوجدْتُ جمعًا غفيرًا من بعيد. وما إنِ اقتربْتُ، سألْتُ عن سبب الجمع، فقالوا لي إنَّ يسوعَ يُعلِّمُ عند البحر، والتفَتُّ حَولي فوجدْتُ كلَّ الصيَّادين الذين أتعامَلُ معهم بين الجموع يستَمِعون إلى يسوع وقد تركوا سمكَهم في شباكه. وقال لي أحَدُهم إنَّ يسوعَ وتلاميذَه عادوا لتوِّهم من كورة الجدريِّين حيثُ شفى يسوعَ ذلك المجنونَ الذي كان يسكنُ القبور، ويُرعبُ الجميع".

"اللجئون؟ اللجئون يا أليصابات؟ شفاه؟ وهل مثل هذا يُشفى؟ هذا فيه فرقةٌ من الأرواح النَّجِسة. لقد سمعْتُ أنَّ أحَدًا لم يقدِرْ أن يَربطَه ولا حتَّى بسلاسلَ حديديَّة، فكان يقطَعُ السَّلاسِلَ بقوَّةٍ شَيطانيَّة تفوقُ قدرة البَشر".

"تخيَّلي؟ يقولون إنَّ هذا المجنونَ لـمَّا رأى يسوع من بعيدٍ رَكَضَ وسَجَدَ له، وصرخَ بصوتٍ عظيم قائلًا: «ما لي ولكَ يا يسوع ابنَ الله العليّ؟» وفي النهاية، شفاه يسوعَ وقال له أن يذهَبَ إلى بيته وأهله ويخبرَهم بِكَم صنعَ الربُّ به ورحمَه".

"ومَن يكونُ يسوعُ هذا؟ هذا غير معقول!"

"لذلك جئتُ إليك بسرعةٍ لتَأتي معي ليَشفِيَك".

"دون شكّ، مَن يقدرُ أن يشفِيَ ذلك المجنونَ الذي كان يُجرِّحَ نفسَه بالحجارة، يمكنُ جدًّا أن يَشفِيَني. لقد سمعتُ عن يسوع، لكنْ لم تكُنْ لديَّ ثقةٌ بأنَّه يستطيعُ أن يشفِيَني، أو ربَّما لا يريدُ ذلك. أمَّا بعدَ ما سمعتُه منك، فأنا واثقةٌ بأنَّه قادرٌ على شفائي. لقد شفى مَن يَئِسَ الجميعُ من شفائه. وحاوَلوا أن يقتلوه ولم يستَطيعوا. إنْ كانَتْ لمثل ذلك الإنسان قيمةٌ عند يسوع، فربَّما تكونُ لمثلي أنا أيضًا قيمةٌ عنده. لكنْ..."

"لكنْ ماذا يا صفُّورة؟"

"أخجلُ أن آتيَ هكذا وسطَ الجموع والرِّجال، فيَسألني عمَّا بي أمامَهم. لن أستطيعَ أن أقولَ له".

"صفُّورة! هل ستَسمَحين للخَجَل بأن يحرمَك الشفاءَ. كوني عاقلة".

"على أيَّة حال، فلنَذْهَبْ ونرَ ماذا في وُسعنا أن نفعل".

قالَتْ صفُّورة هذا وكأنَّ روحًا جديدًا قد تقمَّصَها، وسَرَتْ قوَّةٌ جديدةٌ في روحها وجسدها، فنَسِيَتْ ألمَ العضلاتِ والعِظام الذي كان يُبقيها طريحةَ الفراش طَوال اليوم، وأسرعَتْ مع أليصابات.

من فَرطِ الحماسة، بدا أنَّهما تركضان في الطريق، وكان الركضُ أيضًا يزيدُ من تدفُّقِ النزيف منها حتَّى إنَّ لفافةَ القماش التي وضعَتْها قبل مغادرة المنزل قد تشبَّعتْ بالدَّم تمامًا، وراحَ الدَّمُ يسيلُ منها، فيزيد من خَجَلها وخِزْيها. كما أنَّه كانت للدَّم المتخثِّر رائحةٌ نَتِنة تفوحُ حولَ صفُّورة على نحوٍ يفوقُ رائحةَ الطِّيب التي كانَتْ

تضعُ الكثيرَ منه لتُغطِّيَ رائحةَ النَّزيف، حتَّى إنَّها وضعَتْ كلَّ ما تبقَّى من طيبٍ لديها قبل أن تخرجَ أمام جَمع كبيرٍ كهذا. وفي أثناء سَيرها، كانت تشعرُ بألمٍ شديدٍ في صدرها كلَّ بضع دقائق من جرَّاء الجري؛ حيث إنَّها مُصابةٌ بفَقْرِ دمٍ شديد، لذا كانت تتوقَّفُ قليلًا لتَلتقطَ أنفاسَها، ثُمَّ تواصِلُ مسيرَها. وظلَّتِ الأختان على هذا المنوال حتَّى اقتَربتا من طرفِ الجمع المجتمع حول يسوع، والذي كان قد تضاعَفَ منذ أن كانَتْ أليصابات هناك.

اجتازتا الجمع، وكان أغلبُ الناس يُفسِحون لها المجال. بعضُهم كان بسبب الرائحة، وبعضهم بسبب رغبتهم في عدم لمسها لئلَّا يتجنَّسوا، والبعض الآخر كان سعيدًا أنَّها جاءَتْ لربَّما يَشفيها يسوع. من ثَمَّ شقَّتا طريقَهما حتَّى وصلَتا إلى مكانٍ بالقرب من يسوع. وما إنْ وصلتا حتَّى كان أَحَدُ رؤساء مجمَع كفرناحوم، واسمُه يايرُس، قد جاء ومعه بعضٌ من خُدَّام المجمَع يُفسِحون الطريقَ أمامه حتَّى يَصِلَ أمام يسوع.

لَمَحَتْ أليصابات أَحَد الشَّباب الذين كانوا مع يايرس، ومالَتْ إلى صفُّورة لتسألَها:

"هل ترينَ هذا الشابَّ الذي مع يايرُس؟ أظنُّ أنَّه زكريَّا زَوجُ ابنتَكِ".

"أجل، إنَّه هو. يا لَمُصيبَتي!"

سمعَتْ يايرُس يقول:

"يا مُعلِّم، ابنَتي الصغيرةُ على آخر نسمة. ليتَك تأتي وتضعَ يَدَكَ عليها لتُشفى فتَحيا".

عندما سمعَتْ صفُّورة عبارة "تضع يَدَكَ عليها" شعرَتْ بغُصَّة في حَلقِها، لكنَّها تابعَتْ باهتمام ردَّ يسوع:

"لا بأس يا يايرُس. سآتِ معك".

دُهِشَت صفُّورة من ردِّ فعل يسوع. يتركُ كلَّ هذا الجمع ويذهَبُ مع شخصٍ واحد. ربَّما لأنَّه من رؤساء المجمَع. لا يمكنُ أن يتوقَّفَ يسوعُ هكذا لأيِّ إنسان. وربَّما لأنَّ البنتَ على وَشَك الموت.

فتحرَّكَ يسوعُ ويايرُس، أخذَ الجمعُ يزحمون يسوع بينما يسير الجميعُ في طريق بيت يايرُس. شعرَتْ صفُّورة بالمزيد من الإحباط، وقالَتْ في نفسها: "لقد ضاعَ أملي في الشفاء. سيذهبُ الآن إلى بيت ذلك الرجل المرموق ولا يُمكن أن يتركَ ابنتَه على آخر نسمة، كما كان أبوها يقول، ليَهتمَّ بامرأةٍ نجسةٍ مثلي. يبدو فعلًا أنِّي ملعونة، والله لا يُريد شفائي".

"ماذا بك يا صفُّورة؟"

"لا شيء يا أليصابات. يبدو أنْ لا فائدة تُرجى". بعدها صمتَتْ صفُّورة قليلًا، ولَمَعَتْ عَيناها وقالت في نفسها:

"لن أطلُبَ منه أن يضَعَ يدَه عليَّ، فربَّما أسبِّبُ له حَرَجًا أمامَ رئيس المجمَع. وإذا رآني زكريًّا وافتُضحَ أمري أمامَ الجمع، سينتقمُ من ابنتي الحبيبة. لكنِّي لن أسمحَ لليأس بأن يوهنَني. أشعرُ في قلبي بأنِّي إنْ مسَسْتُ ثَوبَه دون أن يدريَ- حتَّى إنْ لم يَقِف- سأشفى".

"هيَّا يا صفُّورة، ستُشفَين بإذن الله".

فأسرعَتْ صفُّورة في سيرها قدرَ استطاعَتِها بينما تلهث ويكادُ قلبُها أن يتوقَّفَ لتَصِلَ بالقُرب من يسوع. وبعدَ عدَّة محاوَلات، تمكَّنَتْ من لَمسِ هُدبِ ثَوبه من بعيد، وسقَطَتْ أرضًا.

بعد سقوطها مُنهَكةً من جرَّاء الركض، شعرَتْ فجأةً بأنَّ يَنبوعَ دَمِها قد تَوقَّفَ وبأنَّ قوَّةً تسري في جسمها لم تشعُرْ بها منذ أكثر من اثنتَي عشرةَ سنة، كما بدأ شحوبُها يصيرُ حُمرةً ونضارةً، وتمكَّنَتْ من السَّير دون تَعب.

"صفُّورة. لقد شُفيتِ. مجدًا لله. مجدًا لله".

"اصمتي يا أليصابات! لا نُريد أن نعملَ جَلَبة. فلنخرجْ منسَلِّين من وَسَطِ الجمع، وبعدها سنذهبُ إلى الهيكل بسرعةٍ لأُقدِّمَ مُحرقةً حمدًا لله. أشتاقُ لأنْ أدخُلَ الهيكل".

ثُمَّ استَدارتا لتَنصَرِفا. وبعد بضع خطوات، شعرَتا بأمرٍ غريب، والتفَتَتا إلى الوراء لتَجِدا الجمعَ الذي كان يسيرُ بخُطى حثيثة إلى بيت يايرس قد تَوَقَّف، ثمَّ رأتا أربعةً من تلاميذ يسوع يتحرَّكون وسط الجموع بسُرعة وجِدِّيَّة سائلين بصوتٍ عالٍ: "أين الشخصُ الذي لمسَ يسوع؟ أين الشخص الذي لمس يسوع؟"

ارتاعَتْ صفُّورة، لكنَّها لم تُرِدْ أن تكذبَ أو تُخفيَ الأمر، فرفعَتْ يدَها وأطلقَتْ صَوتها من بعيد.

"أنا يا سيِّدي. أنا المرأة".

"تعالَي معنا. يريدُ يسوعُ أن يراكِ".

تحرَّكَتْ صفُّورة وأليصابات مع تلاميذ يسوع نحو الجمع. وكان قلبُ صفورة يخفقُ بشِدَّة حتَّى يكادُ ينخلعُ من صدرها. تُرى ماذا سيَحدُث؟ هل سيوبِّخني؟ هل سيَسألُني عن دائي؟ بكلِّ تأكيدٍ سيَراني زكريًّا. ربَّاه، أنقِذْني. خُذْ حياتي الآن قبل أن أذهبَ أمام الناس. يَكفيني أنَّك شفَيتَني، وعرفتُ أنِّي لستُ ملعونةً منك كما كانوا يقولون. خُذْ حياتي، رجاءً يا إلهي.

وصلَتْ صفُّورة أمام يسوع، وهي تنظرُ نحو الأرض لئلَّا ترى الجموعَ المزدحمين حول يسوع، وتشعرَ بالمزيد من الخِزي والعار. أرسَلتْ فقط نظرةً سريعةً إلى السيِّد يايرُس الذي وقفَ وَسَطَ الجموع مرتاعًا غاضبًا بسبب توقُّفِ يسوع في الطريق، بينما كانوا ذاهبين بسرعةٍ ليُنقِذوا ابنته. عندما رأتْ صفُّورة يايرُس، زادَ خوفُها وشعورُها بالعار والذَّنب من جرَّاء ما فعَلَتْه.

أمَّا يسوع، فكان ذا وجهٍ هادئٍ مُطَمْئِن. نظرَ إليها نظرةَ عطفٍ عميقة، فهدَأ قلبُها. لم يسألها شيئًا، ولم يطلُبْ منها أن تقولَ أيَّ شيء، لكنَّها تكلَّمَتْ بعد أن هدأ قلبُها واطمأنَّتْ من نظرته الحانية.

"يا مُعلِّم، كان عندي نزفُ دمٍ منذ اثنتَي عشرةَ سنةً، وتألَّمتُ كثيرًا من أطبَّاءَ كثيرين، وأنفقْتُ كلَّ ما عندي ولم أنتفع شيئًا، بل صرتُ إلى حالٍ أردأ. ولمَّا سمعتُ بكَ جئتُ إلى هنا. ونظرًا إلى حسَّاسيَّة موقفي؛ ولأنِّي رأيتُك مُتَّجهًا إلى بيت السيِّد يايرُس، قلتُ في نفسي إنِّي لن أُعطِّلك، ولن أفضحَ نفسي أمام الناس، فجئتُ من ورائك وجاهَدْتُ حتَّى مَسَسْتُ ثَوبَك؛ لأنِّي قلتُ إنِّي إنْ مَسَسْتُ ولو ثيابَك فإنِّي سأُشفى. ففعلْتُ ذلك، وبمجرَّد أن لمستُ ثَوبَك، جَفَّ يَنبوعُ دمي، وعَلِمتُ في جسدي أنِّي قد بَرِئْتُ من الداء".

"شعرتُ بقوَّةٍ عظيمةٍ تخرجُ منِّي. يا ابنة إيمانُكِ قد شفاك. اذهَبي بسلامٍ وكوني صحيحةً من دائك".

لم تستَطِعْ صفُّورة أن تقولَ كلمةً واحدة، إذ وقعَتْ عليها كلماتُ يسوعَ كحَمَّامٍ دافئٍ غسلَ دماءَها قبل أن تذهبَ إلى بيتها لتَغتَسل.

إيماني؟ إيماني شفاني؟ لم يَقُلْ إنَّه هو الذي شفاني. لم يَقُلْ إنَّ الله شفاني؟

قال لي إنَّ إيماني هو الذي شفاني. إيماني أنا؟ أنا النَّجِسةُ الملعونة؟

أذهبُ بسلام؟ لقد نسيتُ السلامَ منذ سنين.

ثمَّ يقولُ لي أيضًا "يا ابنة". أنا أعلَمُ أنَّه أصغرُ منِّي بنحو عشر سنوات. فكيفُ يدعوني ابنتَه؟ أشعرُ بأنَّ الله قد تَبنَّاني اليوم.

كُنتُ مُتَعجِّبةً أنَّه تركَ الجمعَ وذهبَ مع يايرُس، وقلتُ إنَّه فعلَ ذلك لأنَّه من رؤساء المجمَع، أو لأنَّ ابنتَه كانت تُحتَضَر، وها هو الآن يترُكُ يايرُس نفسَه وابنتَه المحتَضَرة ويتوقَّفُ ليَشفِيَني من عاري ونظرتي الحقيرة إلى ذاتي بعدما شفاني من داءِ جسدي. ما هذا المعلِّم؟ إنَّه حقًّا المسيَّا كما يقولون عنه.

لم تُفِقْ صفُّورة من أفكارها التي أخذتْها خارجَ المكان والزمان إلَّا بعد أن سمعَتْ الذين جاءوا من دار رئيس المجمَع يقولون: "ابنتُكَ ماتَتْ. لماذا تُتعِبُ المعلِّم بعدُ؟"

للوقتِ انهارَ يايرُس على الأرض باكيًا.

شعرَ يسوعُ به بعد أن كانَتْ عيناه متعلِّقتَين بصفُّورة وهي تقبَلُ كلامَه، فاستَدارَ وانحنى إليه على الأرض وأقامَه.

"لا تخَفْ! آمِنْ فقط". وربَّما كان يسوعُ يقول في نفسه: "آمِنْ فقط مثل تلك المرأة النازفة!"

عادَتْ صفُّورة إلى بيتها وهي تشعرُ بسلامٍ عجيب. فيسوعُ شفاها ليس فقط من نزيفِ دمائها، بل أيضًا من نَزيفِ الكرامة، الذي توقَّفَ بتَوقُّفِ نزيفِ دمها، بل شعرتَ بِيَنبوعٍ آخرَ، من الإيمان والقوَّة، ينفجرُ في داخلها.

تُرى هل سمعَ زكريَّا كلماتِ يسوع؟

هل سمعَ كلُّ الناس كلماتِ يسوع بشأني؟

على أيَّة حال، لا يُهمُّني كلُّ هذا؛ فكلُّ ما يعنيني الآن هو معرفةُ أنّي لستُ ملعونةً وأنَّ الله يُحبُّني.

لو أنَّ يسوعَ سمحَ بأنْ آخُذَ شفائي وأمشي، لـمَا توقَّفَ النزيفُ الآخر ذاك. لقد أرادَ أن يردَّ لي كرامَتي أمام كلِّ الناس، ويُغيِّر فكرتي السَّقيمة عن نفسي.

أنا لستُ نجسة.

أنا لستُ ملعونة.

بل إنَّ نزيفَ الدم ليس نجاسةً ولا لعنة، بل هو مجرَّدُ مرضٍ يُشفى.

إنَّ الله يُريدُني، وهو لا يرفضني.

من الآن فصاعدًا، يَكفيني أنَّه يقبَلُني، وإنْ رفضَني كلُّ الناس.

من العجيب أنَّ صفُورة لم تشعُرْ بالذَّنب لأنَّها أوقَفَتْ يسوعَ لكي يشفيَها وجعلَتْه يتأخَّرُ حتَّى ماتَتِ ابنةُ يايرُس، فقد آمَنَتْ أنَّ يسوعَ قادرٌ على إقامَتِها من الموت، وازدادَ إيمانُها هذا عندما علمَتْ في ما بعد أنَّ يسوعَ بالفعل ذهبَ وأقامَ الصبيَّة من الموت.

الجزء الرابع

النموُّ الروحيّ

(النموُّ في معرفة الله والنفس)

الفصل ١٤

الإيمانُ بالسيِّد المسيح

التَّصديقُ والتَّوبةُ والطَّاعة

"فَوَقفَ بولُسُ في وَسط أَريُوسَ بَاغُوسَ وَقَالَ: أَيُّهَا الرِّجالُ الأَثينويُّونَ! أَرَاكُم من كُلِّ وَجهٍ كأَنَّكُم مُتَدَيِّنونَ كثيرًا، لأَنَّني بَينَما كُنتُ أَجتازُ وَأَنظُرُ إِلَى مَعبُودَاتكُم، وَجَدتُ أَيضًا مَذبَحًا مَكتُوبًا عَلَيه: «لإِلهٍ مَجهُول». فالَّذي تَتَّقُونَه وَأَنتُم تَجهَلُونَه، هذَا أَنا أُنادي لَكُم به. الإِلهُ الَّذي خَلَقَ العَالَمَ وكلَّ ما فيه، هذا، إذ هو ربُّ السَّماء وَالأَرض، لا يَسكُنُ في هَياكلَ مَصنوعةٍ بالأَيادي، وَلا يُخدَمُ بأَيادي النَّاس كأَنَّه مُحتاجٌ إِلى شَيء، إذ هو يُعطي الجميعَ حَياةً ونَفْسًا وكلَّ شَيءٍ. وصَنَعَ من دَمٍ وَاحدٍ كلَّ أُمَّةٍ من النَّاس يَسكُنُونَ عَلَى كُلِّ وَجه الأَرض، وحَتَمَ بالأَوقَات المعيَّنة وَبحُدود مَسكَنهم، لكَي يَطلُبُوا الله لَعلَّهُم يَتَلَمَّسونَه فَيَجدُوه، مَعَ أَنَّه عَن كُلِّ وَاحدٍ منَّا لَيسَ بَعيدًا. لأَنَّنا به نَحيَا وَنَتَحَرَّكُ وَنُوجَد. كَما قَالَ بَعضُ شُعَرَائكُم أَيضًا: لأَنَّنَا أَيضًا ذُرِّيَّتُه. فَإذ نَحنُ ذُرِّيَّةُ الله، لا يَنبَغي أَن نَظُنَّ أَنَّ اللَّاهُوتَ شَبيهٌ بذَهَبٍ

أَو فضَّةٍ أَو حَجَر نَقش صناعَة وَاختراع إنسَانٍ. فَالله الآنَ يَأمُرُ جَميعَ النَّاس في كُلِّ مَكانٍ أَن يَتُوبُوا، مُتَغَاضيًا عَن أَزمنَة الجَهل. لأَنَّه أَقَامَ يَومًا هو فيه مُزمعٌ أَن يَدينَ المسكُونَةَ بالعَدل، برَجُلٍ قَد عيَّنَه، مُقَدِّمًا للجَميع إيمَانًا إذ أَقَامَه من الأَموات".

(أعمال ٢٢:١٧-٣١)

يمكنُ أن نستَخلصَ من هذا الخطاب ثلاثةَ مفاهيمَ أساسيَّةً أرادَ بولسُ الرسولُ تَوصيلها إلى فلاسفةِ أثينا:

- المفهومُ الأوَّل هو أنَّ الإنسانَ يعيشُ علاقةً وُجوديَّةً بالله سواءٌ أدركَ ذلك أم لم يُدرك. وأشارَ بولسُ إلى هذا مستَخدِمًا أكثرَ من تعبير. فيَقولُ مثلًا: "عَن كُلِّ وَاحدٍ منَّا لَيسَ بَعيدًا"، وهذا تَعبيرٌ يُشيرُ إلى عُنصرٍ من عناصر هذه العلاقة الوُجوديَّة وهو **القُرب**. الله قريبٌ من كلِّ إنسانٍ أكثرُ ممَّا يَظنُّ الإنسان. التعبير الثاني هو: "لأَنَّنا به نَحيَا وَنَتَحَرَّكُ وَنُوجَد"، ويُشيرُ هذا التَّعبيرُ إلى عُنصرٍ آخرَ من عناصر العلاقة الوُجوديَّة وهو **قوَّةُ الوُجود والحياة**، فوُجودُنا وقوَّةُ حياتِنا مستَعارٌ من الله بشكلٍ مستَمرّ؛ فهو الذي يُمِدُّنا في كلِّ لحظةٍ بقوَّةِ الوُجودِ سواءٌ طَلَبْنا هذا منه أم لم نطلُبْه. أمَّا التعبير الثالث، فهو "لأَنَّنا أيضًا ذُرِّيَّتُه"، وهو تعبيرٌ يُشيرُ إلى **المشابَهة**. فقَدْ وضعَ الله صورتَه في الإنسان وهذا أمرٌ لن يتغيَّرَ مَهما كان ما يؤمنُ به الإنسانُ أو لا يؤمن، ما يقوله أو لا يقولُه، ما يفعلُه أو لا يفعلُه.
- المفهومُ الثاني هو أنَّ بعضَ الناس يتَخطَّون هذه العلاقةَ الوُجوديَّةَ اللَّاواعية إلى حالةٍ من العلاقة الواعية، وهي في أغلبها علاقةُ أفعالٍ وطقوسٍ تُفعَلُ

لخدمة الله أو ابتغاءَ مَرضاتِه أو اتّقاءً لعقابه أو طمعًا في مكافأة في الحياة الأُخرى. وربَّما يُشعِرُ هذا النَّوع من الدِّين الإنسانَ لدى ممارسته أنَّه في علاقةٍ شخصيَّةٍ بالله، لكنَّها ليست علاقةً بحسبِ ما رسمَ الله من خلال إعلانه عن نفسه في يسوع المسيح. ويُشيرُ بولس إلى هذا بتَعبيراتٍ مثل: "مُتَدَيِّنون" و"تَتَّقونه" و"يُخدَم بأيدي النَّاس".

- المفهومُ الثالث الذي يُقدِّمُه بولسُ الرسول هو أنَّ الله يَظَلُّ يَدعو الإنسانَ إلى علاقة أعمَقَ وأوعى وأقرب من مجرَّد العلاقة الوُجوديَّة، أو العلاقة الطقسيَّة الدينيَّة. هذا هو مفهومُ **التَّوبة** الذي يتكلَّم بولس بشأنه. فالتَّوبةُ هنا لا تعني، بحسب المفهوم الشائع، التَّوقُّفَ عن ممارسة الأفعال، بل التَّوقُّف عن تَجاهُلِ الله أو عن محاوَلةِ الاقترابِ منه بطريقةٍ ليسَتْ هي الطَّريقة التي يُقدِّمُها الله نفسه.[٩٦] التَّوبةُ تَعني تغييرَ المفاهيم ومن ثَمَّ تغييرَ التَّوجُّهات، وأخيرًا تَغييرَ أُسلوبِ الحياة. المفاهيمُ التي تُغيِّرُها المناداةُ بالسيِّد المسيح هي أن الله يُخدَم بالأيادي. هذا هو المفهوم الدِّينيُّ عمومًا. فالدِّين يَعني أنَّك تفعلُ أمورًا لكي تُرضيَ الله أكثرَ ممَّا يعني أن تكونَ في علاقةٍ شخصيَّةٍ بالله. ويتميَّزُ الدِّينُ أيضًا بتَنزيه الله إلى درجةِ "المجهوليَّة". في هذه الحالة يستَمدُّ الله عَظَمَتَه من ابتعاده ومجهوليَّته، وليس من قربه وحميميَّته وإعلانه الواضح عن نفسه، فيبقى إلهًا مجهولًا غيرَ مأمونِ الجانب، فيمكنُ أن يفعَلَ أيَّ شيء في أيِّ وقت، وعَلَينا أن نفعلَ ما في وُسعِنا لنُبقِيَه راضيًا لئلَّا يَبطشَ بنا. وأشارَ بولسُ إلى هذا

٩٦) يوحنّا ١٠: ٩، ١٤: ٦.

بتَعبير: "الَّذي تَتَّقُونَه وَأَنتُم تَجهَلُونَه".[٩٧] هذا الاتِّقاءُ مع المجهوليَّة والقَدَريَّة هو سمةٌ أساسيَّةٌ من سِماتِ الدِّين في مقابِلِ العلاقة الشخصيَّة التي يقدِّمُها الله بتَنازُلِه في يسوع المسيح.

لذا، فإنَّ الدِّينَ يحوِّلُ العلاقةَ الروحيَّةَ الواعيةَ بالله إلى كثيرٍ من الأمور المادِّيَّة التي نحاولُ بها أن نُطمئِنَ أنفُسَنا أنَّنا نفعَلُ شيئًا يَحمينا من بَطْشِ هذا الإله الذي لا نستطيع توقُّعَ أفعاله.

هذه هي الدَّعوة التي قدَّمَها بولسُ للأثينيِّين، ولا يزالُ الله يُقدِّمُها إلى الجميع: أنَّ الله صنعَ هذه "المبادَرةَ" العظيمةَ لكي يُغيِّرَ مفهومَنا عن الله، ويحوِّلنا من العلاقة الوُجوديَّة أو العلاقة الدِّينيَّة إلى العلاقة الروحيَّة الشخصيَّة.

قيامةُ السيِّد المسيح

إذا كان السيِّدُ المسيح يقدِّمُ مفهومًا ثوريًّا جديدًا، فعلى أيِّ أساسٍ يُطالِبُنا أن نُصدِّقه؟ وإذا كان السيِّدُ المسيح يقدِّمُ هذه الدَّعوة التي تُعدُّ نقلةً نَوعيَّةً كبيرةً في مفهومنا عن الله والعلاقة به، فينبغي أن تكونَ دَعوَتُه هذه مشمولةً بالقوَّة المعجزيَّة، وبالبرهان الذي يجعَلُنا نُصدِّقها. بالفعل كانت هناك قُوَّةٌ فائقة صاحبَتْ دعوةَ السيِّد المسيح. لم تكُنْ هذه القوَّة من أنواع القوى الموجودة في الحياة الإنسانيَّة بشكلٍ طبيعيٍّ مثل القوَّة العسكريَّة أو قوَّة الإقناع العقليِّ أو اللُّغويّ. كما أنَّها لم تكُنْ قوَّةً سحريَّةً تهدفُ فقط إلى الإثبات والإفحام. لقد كانت القوَّةُ التي صاحبَتْ رسالةَ السيِّد المسيح هي قوَّةٌ نابعةٌ من طبيعةِ الرسالة نفسها. فإذا كانت الرِّسالةُ تعلنُ

٩٧) أشارَ السيِّدُ المسيح إلى هذا النَّوع من العبادة في حديثه مع المرأة السامريَّة عندما قال لها: "أنتم تَسْجُدونَ لِما لستُمْ تَعلَمون، أمَّا نحن فنَسجُد لِما نَعلَمُ. لأنَّ الخلاصَ هو من اليهود" (يوحنا ٤: ٢٢).

ظُهورَ نَوعٍ جديدٍ من الحياة، فيَنبَغي أن تُثبتَ هذه الرِّسالةُ لنا أنَّ ذلك النَّوعَ الجديدَ الفائقَ من الحياة يمكنُ أن يبزغَ بصورةٍ معجزيَّةٍ من النَّوع القديم ويَستَنفِدَه تمامًا.

إذا تصوَّرْنا مثلًا أنَّ دودةَ قزٍّ جاءَتْ إلى رفيقاتها وقالَتْ لهُنَّ: "توقَّفْنَ عن قَضْمِ أوراقِ التُّوت. أنتنَّ مدعوَّاتٌ إلى ما هو أكثر من ذلك!" وعندما سألْنَها: "كيف؟"، أخبرتهنَّ بأنَّهنَّ مُدعُوَّاتٌ للتحوُّل إلى فراشاتٍ تَطيرُ، ثُمَّ أشارَتْ إلى أحَد العصافير الطائرة فوق شجرةِ التوت وقالت: "تمامًا مثل هذا". عندما لا تُصدِّقُ الدُّوداتُ هذا الكلام فهُنَّ مَعذوراتٌ بالتَّأكيد. كيف يمكنُ تصديقُ أمرٍ كهذا؟ ولكي تُقنعَنَهنَّ الدُّودة بهذا، عليها أن تُقدِّمَ إليهنَّ البُرهان. لا بأن تَقومَ ببعضِ الألعابِ السحريَّة بهدف الإبهار، بل فعلَتْ تمامًا أمامهنَّ ما كانَتْ تَدعوهنَّ إليه. توقَّفَتِ الدُّودةُ عن أكْلِ ورقِ التُّوت، وراحَتْ تُخرجُ من فمها خُيوطًا غريبةً برَّاقةً وتنسجُ حول نفسِها "قبرًا" دفنَتْ فيه نفسَها وأغلقَتْ على نفسها مستخدمةً الخيوط الحريريَّة ذاتها. راحَتِ الدُّوداتُ في دهشةٍ يدفَعْنَ هذه "الشرنقة" إلى الأمام والخلف، وكنَّ يُنادينَ على صديقتهنَّ بأعلى أصواتهنّ. لكنَّ الشرنقةَ كانت أمامهنَّ جسمًا جامدًا بلا حياة. وعندما نظرْنَ من ثقوبها، شاهَدْنَ منظرًا مؤلمًا؛ حيث صارَتِ الدُّودة البيضاء الجميلة، شيئًا أسوَدَ مَيِّتًا داخل الشرنقة اسمُه "العذراء" (Nymph)، بعد أن كانت مُفعمةً بالحياة منذ ساعات فقط. بكَتِ الدُّوداتُ صديقتَهنَّ التي ماتت بسبب فكرةٍ مجنونةٍ انتابَتْها، فضحَّتْ بحياتها من أجلها. مرَّتِ الساعات، ونَسيَتِ الدوداتُ الأمرَ وعُدْنَ إلى التجوُّل على ورقات التوت الغضَّة. وبعد ثلاثة أيَّام، فوجِئنَ بهذه الشرنقة فارغةً وهناك فراشةٌ جميلة تطيرُ حولهنَّ وتتكلَّمُ بصَوتِ صديقتهنَّ الدودة التي ظنُّوا أنَّها ماتَتْ. راحَتْ صديقتهنَّ الفراشةُ، التي كانت دودة، تحكي لهنَّ كيف يمكنُ أن يَصِرْنَ هنَّ أيضًا فراشاتٍ جميلات.

لقد ماتَ يسوع المسيح مَوتًا تامًّا كما يموتُ أيُّ إنسان. وقام بالفِعْل في اليوم الثالث بجسدٍ جديدٍ يدخلُ ويخرجُ والأبوابُ مغلَّقة، ويظهرُ ويختَفي بحسب إرادته وفي الوقت الذي يريد.[٩٨] ويمثِّلُ هذا الجسدُ المَمَجَّد الجديدُ نَوعيَّةَ حياةٍ جديدةٍ مثلَما تموتُ الدُّودةُ في شَرنقَتِها وتخرجُ إلى الحياة فراشةً تَطير. ليس هذا أمرًا غريبًا في الحياة؛ فنحن نرى هذه "المعجزات" تحدُثُ كلَّ يَوم حولنا لكنْ لِكَونها متكرِّرةً، فقدِ اعتدناها. وإذا كانَ آدمُ الأوَّلُ بدايةَ نَسلٍ جسديٍّ يموت، فآدمُ الأخيرُ هو بدايةُ نسلٍ روحيٍّ جديدٍ لا يموت.[٩٩]

أهمِّيَّةُ القيامة ودلالتُها

كانت عقيدةُ "قيامة الأموات" عقيدةً مهمَّةً بالنِّسبة إلى اليهود، لكنِ اكتنَفَها الغموض وما يزالُ الجدلُ يَدورُ حولَها. فالصدوقيُّون مثلًا لم يؤمنوا بالقيامة، بينما آمَنَ بها الفَرِّيسيُّون. وكان تعليمُ السيِّدُ المسيح منحازًا بشكلٍ واضح إلى إيمان الفَرِّيسيِّين بهذا الشأن (متَّى ٢٢: ٢٣-٣٣)، فالله، كما عَلَّمَ السيِّدُ المسيح "ليسَ إلهَ أمواتٍ بل إلهُ أحياء". في هذه الفِقرة من إنجيل متَّى كان السيِّد المسيح يشيرُ إلى القيامة التي يَنتظرُها كلُّ المؤمنين بالله في كلِّ أنحاء العالم، ونُسمِّيها في ثقافتنا الشعبيَّة "يوم القيامة". وكانت هذه القيامة، طبقًا لمفهومهم، مُرتَبطةً أساسًا بتَغييرِ شكلِ العالم عندما يقومُ الأشرارُ إلى الدَّينونة، والأبرارُ إلى حياةٍ أبديَّةٍ لا تنتهي. لكنَّ التَّاريخَ والعقيدةَ اليهوديَّة لم يعرفا البتَّة أيَّةَ إشارةٍ إلى قيامةِ شخصٍ واحدٍ قبل هذا الوقت. يُمكنُ أن تحدُثَ معجزاتُ إقامةٍ من الموت (٢ملوك ٤: ١٩-٣٧؛

---

٩٨) يوحنَّا ٢٠: ١٩ و٢٦، ٢١: ١-١٤؛ أعمال ١: ٣.

٩٩) ١كورنثوس ١٥.

يوحنّا ١١: ٢٤و٤٤، ١٢: ١٠)، لكنْ كان القائمُ من الموت يموتُ ثانيةً. أمّا أن يقومَ إنسانٌ إلى القيامة النهائيّة (أي أن يقومَ ولا يموتَ ثانيةً) قبل "يوم القيامة"، فلم تَكُنْ هناك أيّةُ إشارةٍ واضحةٍ لذلك في العهد القديم.[١٠٠] لذا فإنْ كان السيّدُ المسيح قد قامَ وصَعِدَ، تكونُ قد بدأت "القيامة من الأموات"[١٠١]، أو بكلماتٍ أُخرى، جاء "يوم القيامة" بالفعل. لذا يُشيرُ العهدُ الجديد إلى أنَّ السيّد المسيح هو "باكورة الرّاقدين" (١كورنثوس ١٥: ٢٠). والباكورة (First Fruit) هي جزءٌ من المحصول، ينضجُ قبل الأوان، ويتبعُه المحصولُ الكاملُ بعد حين. هذا يعني أنَّ قيامةَ السيّد المسيح من الأموات هي أعظمُ بُرهانٍ على أنَّ القيامة بدأتْ بالفِعل، وننتظرُ اكتِمالَها عند مجيء المسيح الثاني، تمامًا كما أنَّ باكورةَ المحصول هي البداية "الباكرة" للحصاد والتي تُنبئ الفلّاحَ بحقيقةِ المحصولِ ونَوعِيَّتِه.

ولعلَّ أفضلَ ما قيل في ذلك هو هذه الفِقرة من الأصحاح الخامس عشر من رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس:

> "لكنْ ما دُمنا نبشِّرُ بأنَّ المسيحَ قد أُقِيم من الموت، فكيفَ يقولُ بعضٌ من الذين بينكم إنَّه لا توجَدُ قيامةٌ للأموات؟ فإنْ لم تَكُنْ هناك قيامةٌ للأموات، فمعنى هذا أنَّ المسيح لم يُقَم من الموت... فإنْ كان الأمواتُ لا يقومون حقًّا، فإنَّ المسيحَ لم يَقُمْ من الموت!... وإنْ كان رجاؤنا في المسيح مرتَبِطاً بهذه الحياة فقط، فنحن أكثرُ الناس استحقاقًا للشَّفقة.

---

١٠٠) وردَتِ الإشارةُ الغامضةُ إلى ذلك في سفر المزامير، واستخدَمها بطرسُ الرسولُ في عِظَته في يوم الخمسين للتّدليل على أنّه سبَقتِ الإشارة إلى قيامة السيّد المسيح (ابن داوُد) في العهد القديم (مزمور ١٦: ١٠ وأعمال ٢: ٢٧).

101) Ted Peters, *God-The World's Future. Systematic Theology for a New Era*, (Minneapolis: Fortress Press), 2000.

لكنَّ الحقيقةَ هي أنَّ المسيحَ قد قامَ بالفعل من بين الأموات، وهو أوَّلُ حصاد الذين ماتوا. فبما أنَّ الموتَ جاءَ بإنسانٍ [آدم الأوَّل]، كذلك جاءت قيامةُ الأموات بإنسان [آدم الأخير]. الجميع يموتون بسبب ما فعلَه آدم، وكذلك يَحيا الجميعُ بسببِ ما فعلَه المسيح".

(١كورنثوس ١٥: ١٢-١٣، ١٦، ١٩-٢٢- الترجمة العربيَّة المبسَّطة)

البرهانُ المنطقيُّ على القيامة

كلامٌ جميلٌ جدًّا، لكنْ يَبقى السُّؤال: "هل حدثَتِ القيامةُ بالفِعْل؟ هل القيامةُ حقيقةٌ تاريخيَّة؟" يتَّفقُ كلُّ دارسي الكتاب المقدَّس على أنَّ الفَرَضيَّةَ الأساسيَّةَ للمسيحيَّة التي تقومُ بقيامها وتسقُطُ بسُقوطِها، هي تاريخيَّةُ قيامة السيِّد المسيح، وحقيقة حدوثها كما يَصِفُ الإنجيل. فإنْ كان السيِّدُ المسيح قد قام كما يقولُ العهدُ الجديد، وكما يؤمنُ المسيحيُّون، تكونُ كلُّ "فرضيَّات" المسيحيَّة سليمةً، وإنْ لم يكُنْ قد قام، فلا قيمةَ للإيمان به وبصليبه كما يقولُ الرسولُ بولس في رسالة كورنثوس.[١٠٢]

يتَّفقُ جميعُ البشر على أنَّ يسوعَ المسيح شخصٌ فريدٌ كان له تأثيرٌ عميقٌ في مَن كانوا حَوله، فصدَّقوه. قال لهم إنَّه ابن الله فصدَّقوه، وقال لهم إنَّه سيَموتُ ويقوم في اليوم الثالث، فصدَّقوه. لم يكُنْ غريبًا أن يؤثِّرَ فيهم ذلك الشخصُ صاحبُ "الكاريزما" القويَّة، حتَّى لو لم يَكُنْ صادقًا، ولو كان واهمًا مُضَلِّلًا، فكم من شخصٍ مختَلٍّ عقليًّا أثَّرَ في جماعاتٍ كبيرةٍ من الناس وأقنعَهم ليُصدِّقوه. أيضًا، ليس كافيًا لنؤمنَ بالقيامة أن نرى استِمْرارَ تلاميذِ السيِّد المسيح في تَصديقِها حتَّى

---

١٠٢) ١كورنثوس ١٥: ١٣-١٥.

بعد مَوته؛ لأنَّ الضلالةَ ربَّما تكونُ "زُرِعَت" بالفِعْل في أذهانهم وتتحكَّمُ فيهم حتَّى بعد اختفاء السيِّد المسيح من الصورة. أو ربَّما لم يَقُلْ لهم كلَّ هذا الكلام، وهم مَن أَلِفوه بسبب تعلُّقِهم الشديدِ به وصَدْمَتِهم الناجمة عن مَوته، ممَّا أصابَهم بحالةٍ ذهانيَّة لاواعية، راحوا بها يختَرعون قصَّةَ قيامتِه هذه؛ لأنَّهم رَفَضوا فكرةَ مَوتِه، فالصَّدمةُ والإنكارُ يَفْعَلان أكثرَ من ذلك.

كما لا يكفي لنؤمنَ بالقيامة أن نَجِدَ أنَّ هؤلاء التلاميذ لا يكتَسِبون شيئًا من هذا الإيمان الذي ينادون به، فلا هم صاروا قادةً عسكريِّين، ولم يفتَحوا بلادًا، ولا اقتَنَصوا غنائمَ من مالٍ أو جَوارٍ، بل ماتوا جميعًا من أجل إيمانهم. فكم من أشخاصٍ مضَلَّلين ماتوا أيضًا دون أن يكتَسِبوا شيئًا في سبيلِ ضَلالاتٍ كانوا يَظنُّون أنَّها الحقيقة.

يكمُن البرهانُ المنطقيُّ للقيامة في شيءٍ واحدٍ هو أنَّ التَّلاميذَ مرُّوا بفترةٍ من عدم التَّصديقِ عندما صُلِبَ السيِّد المسيحُ ومات. كان هؤلاء التلاميذ، بحسب إيمانهم اليهوديِّ يعتَقدون أنَّ السيِّدَ المسيح لا يموتُ متى جاء، وهم لم يُدركوا النبوَّات التي تقولُ إنَّه سيأتي ويموتُ أوَّلًا ثُمَّ يقومُ ويصعَدُ إلى السماء باعتباره الله المتَّحِدَ بالإنسان، وذلك ليَرفعَ ذلك الإنسانَ من وُجوده المتواضع إلى درجة أعلى من الوُجود في الحياة الأُخرى، وأنَّه لكي يفعلَ ذلك سيَموتُ ويقومُ ليَكونَ باكورةَ هذا الوُجود الجديد. لم يدركِ التلاميذُ كلَّ هذا وقتَ الصَّليبِ وبعدَ القبر.

من الطبيعيِّ والمتوقَّع بعد وفاة القائد الدِّينيِّ أن تكونَ هناك رِدَّةٌ واسعةُ النِّطاق، وحدثَ هذا أيضًا بعد صَلْبِ السيِّد المسيح. إذِ ارتَدَّ عنه كلُّ تلاميذه، ويحكي لوقا في إنجيله (أصحاح ٢٤) عن هذه الواقعة:

"وإذا اثْنانِ مِنهُم كَانا مُنْطَلِقَينِ في ذَلكَ اليَوم إلى قريةٍ بعيدةٍ عن أُورُشليم ستِّين غلوةً اسمُها «عمواسُ». وكانا يتكلَّمان بعضُهُما مع بعضٍ عن جميع هذه الحوادث. وفيما هُما يتكلَّمان ويتحاوران اقتربَ إليهما يسوعُ نفسُه وكان يمشي معهُما. ولكنْ أُمسِكَتْ أعيُنُهُما عن معرفته. فقال لهُما: «ما هذا الكلامُ الذي تتطارحان به وأنتُما ماشيان عابسَين؟» فأجابَ أَحَدُهما الذي اسمُهُ كليوباسُ: «هل أنت مُتغرِّبٌ وحدَك في أُورُشليم ولم تعلَم الأُمُور التي حدثَتْ فيها في هذه الأيَّام؟» فقال لهُما: «وما هي؟» فقالا: «المختَصَّةُ بيسُوعَ الناصريِّ الذي كان إنسانًا نبيًّا مُقتَدرًا في الفعل والقَول أمام الله وجميع الشَّعب. كيف أسلَمَه رُؤساءُ الكهنة وحُكَّامُنا لقَضاءِ الموت وصلبُوه. ونحنُ كُنَّا نرجُو أنَّه هو المزمعُ أن يفدِيَ إسرائيل. ولكنْ مع هذا كُلِّه اليوم له ثلاثةُ أيّامٍ مُنذُ حدثَ ذلك»".

(لوقا ٢٤: ١٣-٢١)

مَن هذان الاثنان؟ أَحَدُهما اسمُه كليوباس والثاني لم يُذكَرِ اسمُه. ويتَّفقُ أغلَبُ الدَّارسين على أنَّ مَن لم يُذكَرِ اسمُه هو نفسُه لوقا كاتب الإنجيل، الذي يقولُ في مقدِّمة إنجيله إنَّه تتبَّعَ بنَفْسِه كلَّ شيءٍ بالتَّدقيق. على أيَّة حال، لنَهتمَّ بالذي ذُكِر اسمه. مَن **كليوباسُ** هذا الذي ذُكِرَ اسمُه صراحةً؟ من المهمِّ أن نعرفَ أنَّ هذا الشخصَ ليس من التلاميذ البعيدين عن يسوع، بل هو من أقربِ المقرَّبين. كليوباس هو الترجمة اليونانيَّة للاسم الآرامي كالافاي (Chalaphai)، يمكنُ أيضًا ترجمتُه إلى "هالافايوس" (Halphaios) أي "حلفى"، ويمكنُ أيضًا اختصارًا أن يُدعى كليوبا أو كلوبا أو كليو.[١٠٣]

١٠٣) للمزيد يمكن البحث عن كلمة "حلفى" في موقع ويكيبيديا الموسوعة العربيَّة.

إذاً كليوباس هو حَلفى أبو يعقوبَ الصغيرِ، وزَوجُ مريَم التي وقفَتْ بجانب صليب يسوع. ويقول المؤرِّخ يوسيفوس (القرن الرابع) إنَّ كلوبا الذي فقدَ إيمانَه بالسيِّد المسيح بعدَ مَوتِه، هو أخو يوسُفَ النجَّار، الأبِ الشرعيِّ ليَسوع المسيح. أي أنَّه- شرعيًّا- عمُّ يسوع، وأبو أحَدِ تلاميذه الاثنَي عشر، وزوجته هي "عديلة"، وأمُّه مريَم التي وقفَتْ عند صليب المسيح. فما أهمِّيَّة أن نعرفَ كليوباس وقربَه من يسوع؟ تكمنُ الأهمِّيَّة في إدراكنا كيف أنَّ أقرَبَ المقرَّبين ليَسوع تشكَّكوا، بل فَقَدوا إيمانَهم به عندما مات، ثمَّ فجأةً نَجِدُهم يعودون إلى الإيمان به. إذا كانوا لم يَفقِدوا إيمانَهم، لَقُلْنا إنَّ تأثيرَ يسوعَ "السحريَّ" فيهم امتَدَّ حتَّى بعدَ مَوتِه. أمَّا أن يَفقِدوا إيمانَهم به ثُمَّ يستَعيدوه بعد ثلاثةِ أيَّامٍ على نحوٍ أقوى حتَّى من إيمانهم به عندما كان بينهم، فلا بدَّ أنَّ شيئًا عظيمًا قد حدثَ ليَصنَعَ هذا التَّغيير. فإيمانُهم عادَ، وعلى نحوٍ أقوى من السابق. حيث كان الإيمانُ الأوَّل بيسوعَ غير كافٍ ليَقِفوا معه في صلبه (في ما عدا يوحنَّا)، فهَرَبوا جميعًا، وأنكرَه أحَدُهم، وهو بطرس، أمَّا إيمانُهم الثاني فجَعَلَهم جميعًا يموتون شهداءَ من أجله (في ما عدا يوحنَّا أيضًا، الذي عاش منفيًّا!).

عندما يَفقِدُ الأتباعُ إيمانَهم ثمَّ يعودون، فلا بدَّ أنَّ شيئًا ما قد حدث. إذًا، ما الذي حَدَث؟ لم تَنْدلعْ حروبُ رِدَّةٍ تُعيدُ المؤمنين بيسوع إلى الإيمان به مرَّةً أُخرى، ولم تحدُثِ استمالةٌ لقلوبهم بمالٍ أو مكاسِبَ أو غنائم، بل على العكس، حيث واجَهوا المؤسَّسةَ الدينيَّةَ اليهوديَّة، ثمَّ الإمبراطوريَّةَ الرومانيَّةَ الوثنيَّة، وعومِلوا على نحوٍ غايةٍ في القَسوة ممَّا أدَّى إلى موتهم شهداءَ إيمانهم، دون أن يكسبوا من هذا الإيمان فِضَّةً أو ذهبًا أو جواريَ.

إنَّ ابتعادَهم عن الإيمان به لفترةٍ تَصِلُ إلى ثلاثةِ أيَّام، لهو دَليلٌ قَويٌّ على أنَّهم لم يكونوا مُغيَّبين أو مغسولي المخّ، فقد كانوا أشخاصًا منطقيِّين لا يصدِّقون إلَّا ما

تَراه عيونُهم. هم أشخاصٌ يهودٌ متعمِّقين في الدِّين، ويَعيشون في الثقافة اليونانيَّة التي تُعلي من شأنِ الفَلسَفةِ والعقل. عِندما مات يسوع ودُفِنَ أمامهم، فَقَدوا إيمانَهم بأنَّه المسيَّا المنتَظَر، فلا بدَّ أنَّ هناك شيئًا ما شديدَ القوَّةِ حدث، وتأكَّدوا منه حتَّى إنَّهم عادوا إلى إيمانهم بيسوع المسيح. الإجابة التي يقدِّمُها الكتاب المقدَّس هي أنَّ السيِّدَ المسيحَ قام بالحقيقة وظهر لتلاميذه![١٠٤] ليَكونَ "باكورةً" لوُجودٍ إنسانيٍّ جديدٍ يبدأ في هذا العالم ويستمرُّ في العالم الآتي. ويُسمِّي الكتابُ المقدس هذا الوُجودَ الإنسانيَّ الجديد "الخليقة الجديدة في المسيح يسوع". ومع أنَّه يصعبُ إثباتُ هذه الحقائق والأحداث تجريبيًّا؛ ومع عدم وجود أحداثٍ مشابهةٍ في خبرتنا الإنسانيَّة، فإنَّ الكتابَ المقدَّس يُقدِّمُ إلينا براهينَ منطقيَّةً أكثرَ ممَّا يُقدِّمُ أيُّ دينٍ أو كتابٍ آخرَ على صِدْقِ الأحداث التي يُفترَضُ حدوثُها، أو الأقوال التي يَنسبُها إلى الله.

ليس فقط البرهانَ التاريخيّ

ليس هذا البرهانُ التاريخيُّ لقيامةِ السيِّد المسيح هو البرهانَ العقليَّ والعمليَّ الوحيدَ على صِدْقِ رسالة الإنجيل. فالنُّبواتُ العديدةُ، التي امتَلأ بها العهدُ القديم، تحقَّقتْ بحذافيرها في السيِّد المسيح، وأهمُّها النبوَّات التي لا نستطيعُ أن نقولَ إنَّ السيِّدَ المسيحَ "قلَّدَها" وجعَلَها تتمُّ في نفسه، مثل مكان ولادته[١٠٥] وما حدث في

---

١٠٤) "فإنِّي سلَّمتُ إليكم في الأوَّل ما قبلتُه أنا أيضًا: أنَّ المسيح ماتَ من أجل خطايانا حسب الكتب [نبوَّات العهد القديم]، وأنَّه دُفِن، وأنَّه قامَ في اليوم الثالث حسب الكتب، وأنَّه ظهر لصَفا [بطرس] ثمَّ الاثني عشر، وبعد ذلك ظهرَ دفعةً واحدة لأكثر من خمس مئة أخ، أكثرُهم باقٍ إلى الآن. ولكنَّ بعضهم رقَدوا. وبعد ذلك ظهرَ ليعقوب، ثمَّ للرُّسلِ أجمعين" (١كورنثوس ١٥: ٣-٧).

١٠٥) متَّى ٢: ١-٦.

أثناء صلبه من أشخاصٍ ليسوا من تلاميذه، مثل الجنود الرومان.[١٠٦] بالإضافة إلى ذلك، فالذين آمنوا بالإنجيل منذ ذلك الحين وإلى يَومنا هذا ظلُّوا يشهَدون لرسالة الإنجيل، وظلَّ الله "يشهَدُ معهم" بآياتٍ وعجائبَ ومواهبِ الرُّوح القدس.[١٠٧] ممَّا كان يؤيِّدُ رسالةَ الإنجيل ويجعَلُ الناسَ من كلِّ أُمَّةٍ وشعبٍ ولسانٍ يصدِّقونها، على غرابَتِها، وذلك بقوَّةٍ مُعجزيَّةٍ دون ترغيبٍ بالمال ولا ترهيبٍ بالقوَّة.

والأهمُّ من كلِّ ذلك هو حقيقةُ الاختبار المسيحيِّ المغيِّر للحياة الذي يختبرُه كلُّ إنسانٍ بنفسه وفي حياته إذ يحبُّ حياتَه والناسَ جميعًا، ويحبُّ الحياةَ ويختبرُ علاقةً بالله تُدخِلُه في بُعدٍ آخرَ من أبعاد الوُجود لم يكُنْ يَدري البَتَّة أنَّه موجود. يمتلئُ التاريخُ بِقِصَصٍ وشهاداتِ أشخاصٍ تَغيَّرَتْ حياتُهم تمامًا بسبَبِ إيمانهم بالسيِّد المسيح، ودخولِهم في علاقةٍ شخصيَّة به. وأودُّ أن أختارَ من هذه الأمثلة تاجرَ الرَّقيق التائبَ جون نيوتن (John Newton) الذي عملَ في تجارةِ الرَّقيق، ثُمَّ تقابَلَ مع السيِّد المسيح روحيًّا، وصار خادمًا مسيحيًّا وأحَدَ الذين عملوا على مُقاوَمةِ تجارةِ العبيد حتَّى انتهَتْ من العالم. وها هي إحدى الترانيم التي ألَّفَها:

أن أرى وجهَه ففي هذا رضاي — وسعادتي المرتجاة
قلبي ولحمي وكلُّ دنياي — أعطيها لِمَن منحَني النَّجاة

١٠٦) "لأنَّه قَد أَحاطَت بي كلابٌ. جَماعَةٌ من الأَشرار اكتَنَفَتني. ثَقبوا يَدَيَّ ورجلَيَّ. أُحصي كلَّ عظامي، وَهُم يَنظُرون وَيتفَرَّسونَ فيَّ. يَقسمُونَ ثيَابي بَينَهُم، وَعَلَى لبَاسي يَقتَرعُون" (مزمور ٢٢: ١٦-١٨) قال داوُدُ هذا المزمور بينما لم تحدُثْ هذه الأمورُ لداوُد بتاتًا، ولكنَّه قالَ ذلك بِروح النبوَّة عن السيِّد المسيح الذي سيأتي من نسله. وبالفعل، ثُقِبَتْ يدا يسوع ورجلاه، وتعرَّى أمام الناس لينظُروه ويتفرَّسوا فيه. كما قسمَ الجنودُ الرومانُ ثيابَه بينهم واقترعوا على ردائه الذي كان منسوجًا من قطعة واحدة (يوحنَّا ١٩: ٢٣-٢٤).

١٠٧) "فَكَيفَ نَنجو نَحن إنْ أَهمَلنا خَلاصًا هذَا مقدَارُه؟ قد ابتَدَأَ الرَّبُّ بالتَّكَلُّم به، ثُمَّ تَثبَّتَ لَنا من الَّذينَ سَمعوا، شاهدًا الله مَعَهم بآياتٍ وعجائبَ وقُوَّاتٍ مُتنوِّعةٍ ومَواهب الرُّوح القُدُس، حَسَبَ إرادَته" (عبرانيِّين ٢: ٣).

ومهما تقلَّبتِ الفصول — وتغيَّرَتْ تفاصيلُ الحياة
سُبحُه في قلبي لا يزول — وفي عقلي لا زلتُ أهواه
في نوره تَصيرُ القصور — مثل ألعابِ الأطفال
وتصيرُ السُّجون قصورًا — إنْ فيها صُحْبَتَه أنال.[١٠٨]

التَّسليمَ بدلَ السَّيطرة

ليس الإيمانُ بالسيِّد المسيح هو فقط التَّصديقَ العقليَّ بالقيامة، وإنْ كان هذا مُهِمًّا، غير أنَّ الإيمانَ به يتضمَّنُ أمرَين آخرَين غايةً في الأهمِّيَّة العمليَّة: التسليم والتَّوبة عن السيطرة، ثمَّ الطاعة والجهاد. وقضيَّةُ "التسليم" هنا ليسَتْ بسيطةً بل هي عميقةٌ جدًّا. فالتَّسليمُ هنا ليس فقط تسليمَ الإيمان بمعنى القرار بقبول عقيدة أو الانضمام إلى فكر أو الانضواء تحت لواء طائفة، بل هو قرارٌ عميقٌ بتَغيير نَوعيَّة الحياة. ولنفهمَ المقصودَ من "تسليم الحياة" إلى السيِّد المسيح بصورته الوُجوديَّة العميقة، نحتاجُ لأنْ نعودَ إلى الوراء قليلًا لنَعرفَ المصدرَ الذي تأتي منه السيطرة، وما تفعَلُه بنا، والكيفيَّة التي يحرِّرُنا التَّسليمُ وَفقها.

تأتي السَّيطرةُ من الخوف، والذي يأتي بِدَوره من غياب الحبّ.[١٠٩] فيَقولُ علماءُ نفسٍ كثيرون إنَّ هناك شعورَين أساسيَّين لدى الإنسان تنبعُ منهما كلُّ المشاعر الأُخرى: الخوف والحبّ. ويُنشئُ الخوفُ التوتُّرَ والغضبَ والكراهِيةَ والحزنَ واليأسَ والخِزْيَ والذَّنبَ والإحباط، فيما يُنشئُ الحبُّ السعادةَ والرِّضى والحماسةَ والفرحَ...إلخ. هذا من جهةِ المشاعر، أمَّا من جهةِ السُّلوك، فإنَّ رَدَّ الفعلِ

108) John Newton, *How Tedious and Tasteless the Hours, in The Boardman Hymnal* (Nashville, TN: Broadman Press, 1940), no. 24.

109) Raymond A. Kane, *From Fear to Love. Overcoming the Barriers to Relationships.* (Chicago, Illinois: Moody Publishers, 2002).

الأساسيَّ للخَوف هو السَّيطرة (Control)، أمَّا ردُّ الفعل الأساسيُّ للمحبَّة فهو التَّسليمُ (Letting go). عندما نخافُ ونتوتَّرُ فإنَّنا نحاولُ أن نتحكَّمَ ونُسَيطر. أمَّا عندما نشعرُ بالحبِّ فإنَّنا نُرخي قَبضَتَنا ونَثقُ بمَن نحبّ.[110] وعندما نصادفُ الحبَّ الحقيقيَّ غير المشروط، فإنَّنا نستَسلمُ له ونتمتَّعُ به؛ لأنَّه المصدرُ الحقيقيُّ للسَّعادة وكلِّ المشاعر الطيِّبة التي تجعَلُنا نفسيًّا وجسديًّا نعمَلُ بكاملِ الطاقة التي فينا ونحقِّقُ ما خُلقْنا لأجله.

الطاعةُ والجهاد

ليسَتِ الطاعةُ زرًّا سحريًّا نضغَطُ عليه فنَطيع. نعرفُ جميعًا أنَّنا في مرَّاتٍ كثيرة نريدُ أن نُطيعَ لكنَّنا لا نستطيع. وهنا يأتي دَورُ الجهاد. والجهادُ هنا يشيرُ إلى التَّدريب، أي أن تَبذلَ جَهدًا لتُغيِّرَ أشياءَ في طبيعتك وطريقة حياتك لتَستَطيعَ أن تُنجزَ أفعالًا لم تكُنْ تستطيعُ القيام بها، أو تمتَنعَ عن أفعالٍ لم تكُنْ تَستطيعُ الامتناعَ عنها دونَ أن يَحدُثَ هذا التَّغيير.

إذًا، فالإيمانُ بالسيِّد المسيح هو حياةٌ تبدأ من تصديق حقيقةِ القيامة التي من خلالها نُصدِّقُ كلَّ ما يقدِّمه إلينا السيِّدُ المسيح من تعليم وحياة، وكلَّ ما يَعِدُنا به من خلاصٍ من نَوعيَّةٍ دُنيا للحياة والانتقال إلى نَوعيَّةٍ عُليا. هذه الحقيقةُ، وإنْ كانَتْ صعبةً على فهمنا البشريِّ المحدود، فإنَّنا عندما نصدِّقُها ونعيشُ أكثرَ فأكثرَ حياةَ الثِّقة والتَّسليم، فإنَّنا نحصُلُ، بروح الله، على الحبِّ والقوَّةِ والنُّصح، فنتحرَّرَ بهذا أكثرَ فأكثرَ من الخوف والخِزي، ثمَّ نستَسلمَ أكثرَ، فنختبرَ قَدْرًا أكبرَ من الثِّقةِ والحبّ، وهكذا دوالَيك. وأيضًا، عندما نجاهِدُ في الطَّاعة وندرِّبُ أنفسَنا كلَّ يوم

110) Gerald G. Jampolsky, *Love is Letting Go of Fear* (Berkely: Celestial arts, 2003) p. 3.

(أعمال ٢٤: ١٦)، فإنَّنا نستَطيعُ أن نتغيَّرَ ونشابِهَ الطبيعةَ الإلهيَّة، ونكتَشفَ أنَّ الحياةَ الأبديَّة والخليقةَ الجديدةَ التي يَعِدُنا بها السيِّد المسيح ليسَتْ وَعدًا مستقبليًّا، بل هي حياةٌ حاضِرة. في الفصول التالية، سنَتناوَلُ هذه الحياةَ المستمِرَّة من النموّ بالإيمان والجهاد التي يُسمِّيها العهد الجديد "التَّلمَذة" المسيحيَّة.

الفصل ١٥

الولادةُ الجديدة

بدايةُ المسيرة لإماتة الزَّيف ونموِّ الحقيقة

ذكرنا من قبل أنَّ الذاتَ المزيَّفة هي وصفٌ أطلَقَه عالم النفس الإنكليزيُّ دونالد وينكوت[١١١] (Donald Winnicot). وقصدَ أن يَصِفَ به تلك الدِّفاعات التي تتحصَّنُ الذاتُ الحقيقيَّةُ وراءَها خَوفًا من عالمٍ لا يُعطيها الحبَّ والعناية والأمان، وهي أمورٌ لازمةٌ لحياةٍ مُبدِعةٍ وتلقائيَّةٍ وسعيدة. ويقتربُ هذا الوَصفُ للذَّاتِ المزيَّفة كثيرًا من وصفِ "الجسد أو الإنسان العتيق" الذي ذكرَه بولسُ الرسول في رسائله إلى رومية وأفسس وكولوسِّي. ويُقصَدُ به ذلك الكِيانَ المركَّبَ وغير الأصيل الذي نتجَ بسبب سقوطِ الإنسانِ وانفصالِه عن خالقه، الذي هو مَصدرُ الحبِّ والأمان والبهجة الحقيقيَّة.

ويُسمِّي الكتابُ المقدَّسُ هذا السُّقوطَ الخطيَّة[١١٢]، وهي تعني تِقنيًّا "عدم إصابة

---

١١١) عاش في الفترة ما بين عامَي ١٨٩٦ و١٩٧١م.

١١٢) تأتي كلمةُ "الخطيَّة" في اليونانيَّة بصفةِ اسمٍ مُعرَّف هو "هامارتيا" (Hamartia)، وقد وردَتْ نحو ١٦٠ مرَّةً في العهدِ الجديد، أكثر من نِصفِها في كتابات الرسول بولس (بعض الأمثلة: رومية ٥: ١٢، ٦: ١ و١٤، ٨: ٣).

الهدف". ويبتعدُ هذا المعنى عن الشائع في أذهان الكثيرين؛ حيث يختلِط مفهوم "الخطيَّة" و"الخطايا" (مثل الزِّنى والسرقة والكذب) والتي يُسمِّيها الكتابُ المقدَّس أيضًا الآثام أو الذُّنوب أو المعاصي. أمَّا كلمة "الخطيَّة"، على العكس من "الخطايا" فلا تَصِفُ فعلًا معيَّنًا بل حالة. فالخطيَّةُ تجعَلُ الإنسانَ يعيشُ دون أن يحقِّقَ الهدفَ من وُجوده. إنَّها إذًا السببُ الحقيقيُّ من وراء "العَيش بلا معنى" بِلُغة علم النفس، و"العَدَم" بلغة الفلسفة، و"الموت" بلغة الكتاب المقدَّس.

غير أنَّ الرَّسولَ يوحنَّا يُعطيها بُعدًا جديدًا، حيث إنَّه ينفَذُ كعادته إلى طبيعة الأُمور فيَقولُ عن هذه الكلمة نفسها "كلُّ مَن يَفعَلُ الخطيَّة يَفعَلُ التَّعدِّيَ أَيضًا. والخطيَّةُ هي التَّعدِّي" (١يوحنَّا ٣: ٤). وكلمةُ التَّعدِّي التي استعملَها ليَصفَ الخطيَّة هي الكلمة اليونانيَّة أنوميا (Anomia)، وتَعني "رفض القانون أو الاستقلال عنه". لذا يُمكنُنا القَولُ إنَّ الخطيَّةَ هي خُروجُ كائنٍ عاقلٍ وحرٍّ عن منظومةٍ محكومةٍ بقَوانينَ تَضمَنُ لذلك الكائنِ العاقلِ تحقيقَ الهدف من وجوده. وهذه المنظومةُ هي تلك الخليقةُ البديعة التي نحن جزءٌ منها، أمَّا القانون الذي يحكمُها فهو ببساطةٍ أن تكونَ مُتَمَركزةً حول خالقها. وعليه، فكلُّ مَنِ اختارَ الاستقلالَ عن الخالق، وتمركَزَ حول مركزٍ آخر غير الله- وغالبًا ما يكونُ التَّمركُزُ حول ذاته- هو خاطئٌ وعبدٌ للخطيَّة، يَظَلُّ يُنتج، لكنَّه لا يُصيبُ الهدفَ بتاتًا.

تشبهُ الخطيَّة الڤيروس بلغة الكومپيوتر، وهو برمجيَّة (Software) توقِفُ عملَ الجهاز الأصليّ، وتسخِّرُه ليَعمَلَ ما تُريدُه هي. أو الڤيروس في مجال الطبِّ البشريِّ، فهو يدخُلُ الخليَّةَ فيَجعَلَها لا تكُفُّ عن الإنتاج، لكنَّه يجعلُها تُنتجُ لحسابه هو، بل تُنتجُه هو نَفسُه. ووَفقَ تلك الصُّورة نفسها، دخلَتِ الخطيَّة كِيانَ الإنسان وأفسدَتْ برمجتَه الأصيلة (Default) فجَعَلَتْه يستَقلُّ عن الله ويتمركَزُ على ذاته، وأعادَتْ

برمجتَه بحيثُ يَظَلُّ يُنتجُ أشياءَ لا علاقةَ لها بالغَرَض الذي من أجله خُلِق.

عندما دخلَ "فيروس الخطيَّة" هذا في كائنٍ روحيٍّ مَحْضٍ، أي ملاك، أُوجِدَ مَن يُسمِّيه الكتاب المقدَّسُ "الشَّيطان". وعندما دخلَتْ في كائنٍ روحيٍّ جسديٍّ مثل الإنسان، أوجدَتْ ما يُسمِّيه الكتاب المقدَّس "الجسد". ويستخدمُ بولسُ الرسولُ هذا التَّعبيرَ كثيرًا[١١٣] ليُشيرَ به إلى الكِيان البشريِّ العاقل بعد أن دخلَتْه الخطيَّةُ وجعلَتْه في حالةِ استقلالٍ عن الله، أي بعدَ أن خرجَ من المنظومةِ المتَمركزة حولَ الله، فصارَ غيرَ خاضع لله ولا يُنتجُ لحساب الله.

"الإنسانُ العتيق" أيضًا كلمةٌ يتَميَّزُ بها الرَّسولُ بولس، إذ استَعمَلَها في أكثر من مَوضع[١١٤]، وبها يَصِفُ الإنسانَ الذي أنتجَه الجسدُ حتَّى إنَّه سمَّاه: "جسم خطايا البشريَّة"[١١٥] أي "جسم الجسد" (النتيجةُ الناشئة من حياة الإنسان في هذا الجسد). إنَّ هذا الإنسانَ العتيقَ (أو الذات المزيَّفة)، هو الشخصيَّة التي نعيش بها قَبْلَ أن نقبلَ نعمةَ الله المخلِّصة. في تلك الفترة، لم يكفَّ روحُ الله القدُّوس عن الجهاد معنا ليَقتادَنا إلى التَّوبةِ والرُّجوع إلى خالقنا، فكان دائمًا يُنبِّهُنا إلى شرِّ الإنسان العتيق ومَرَضِه، ويخبرنا بأنَّ لدى الله ما هو أفضل. كان يُحفِّزُنا على رَفْضِ العتيق وخلعه، ويجعلُنا نشتاقُ إلى طَلَبِ الجديد. وعندما اكتمَلَتْ فترةُ الجِهادِ هذه؛ وقَبِلنا محبَّةَ الله وخضعْنا لها، قرَّرْنا خَلْعَ العَتيق وارتداءَ الجديد، وهـذا ما يُشيرُ إليه طَقْسُ المَعموديَّة. وعلينا أن نستمرَّ في خَلْعِ هذا العتيقِ كلَّ العُمرِ كما يعلِّمُ بولسُ الرَّسول.[١١٦]

---

١١٣) رومية ٨: ٨-٩؛ غلاطية ٥: ١٧.

١١٤) رومية ٦: ٦؛ أفسس ٤: ٢٢؛ كولوسّي ٣: ٩.

١١٥) كولوسّي ٢: ١١.

١١٦) أفسس ٤: ٢٢؛ كولوسّي ٣: ٨-٩.

الولادةُ الجديدة

تبقى الذاتُ الحقيقيَّةُ راقدةً داخلنا، ميِّتة "إكلينيكيًّا"[١١٧] مُنتَظرةً الأميرَ الذي يأتي ليُقبِّلَها قبلةَ الحياة.[١١٨] يُخبرُنا الإنجيلُ بأنَّ ذلك الأميرَ الآتيَ من خارج الزمان والمكان قد أتى فعلًا ليُقبِّلَنا قبلةَ الحياة، التي يُسمِّيها العهد الجديد "الولادة الجديدة". ولعلَّ تعبيرَ الولادة الجديدة[١١٩] يشيرُ بدقَّةٍ إلى حقيقةِ خروج "ذاتٍ" جديدةٍ إلى النُّور. عندما يُولَد الإنسانُ من فوق، فإنَّه يكتَشفُ ذاتَه الحقيقيَّة التي خلقَه الله ليَكونَها، كما يكتشفُ أنَّ ما عاشَه طَوالَ هذه السِّنين كان ذاتًا مُزيَّفةً، ميِّتةً خائفةً منحصرةً في نفسها، وبعيدةً عن الهدف الذي خُلقَتْ لأجله.

إنَّ ذاتي الحقيقيَّة هي كَينونَتي الروحيَّة التي تحملُ شَبَهَ خالقي، وبها أحملُ صورتَه. وقد ظلَّتْ هذه الذَّاتُ غامضةً غائبةً عنِّي، وكنتُ أنا مغتربًا عنها. أعرفُ أنَّها هناك في أعماقي، لكنِّي لا أعرفُ ملامحَها ولا أجِدُ طريقي إليها حتَّى نعتَني الكلُّ بأنِّي الإنسانُ المغتربُ عن ذاته. وفي لحظةِ إشراقةِ النُّور، وجدْتُ نفسي أنجذبُ نحو مَصدري، ووجدتُ أنِّي في حِضنِ أبي، وهناك تسلَّمتُ بطاقةَ هُوِيَّتي المفقودة عندما سمعتُه يقول: "ابني هذا كان ميِّتًا فعاش، وكان ضالًّا فوُجِد". هناك تعرَّفتُ للمرَّة الأولى ذاتي الحقيقيَّة وبدأتُ أتبيَّن ملامحَها، وبدأتْ رحلتي الجديدة على الأرض، وهو ما أطلَقَ عليه السيِّدُ المسيح اسمَ "الولادة من فوق"، أو "الولادة من جديد". بالولادة بدأتْ معالم ذاتي الحقيقيَّة تتكشَّفُ، وتَظهَرُ

---

١١٧) الموتُ الإكلينيكيُّ (السريريّ) هو توقُّفُ الدَّورةِ الدمويَّة والتنفُّس، ممَّا يجعلُ جسدَ الإنسان غير عامل. في هذه الحال، يمكنُ إعادةُ إحيائه بتَدليكِ القلب.

١١٨) "أَحْيانَا مع المسيح".

١١٩) يوحنَّا ٣: ٣ (أجابَ يسوعُ وقال له: الحقَّ الحقَّ أقولُ لك إنْ كان أَحَدٌ لا يولَدُ من فَوق لا يقدرُ أنْ يرى ملكوتَ الله).

حقيقَتُها في تَفاعُلِها مع الأوضاع والناس، مُنتِجةً شكلًا جديدًا لحياتي، سمَّاه الرسول بولس "الانسان الجديد".[١٢٠]

هذا واستَخدَمَ السيِّدُ المسيحُ مَثَلَ الولادة ليُشيرَ إلى اكتسابِ الإنسان حياةَ الله، والدخول في ملكوته الروحيّ. ولكي نفهَمَ ما يقصدُه السيِّدُ المسيح بالولادة الجديدة، سنُحاولُ أن نغوصَ قليلًا في المثل التالي. ولأنَّ الخَلْقَ الجسديَّ والروحيَّ كليهما من الله، فإنَّ فرصةَ التَّماثُل ما بينهما كبيرةٌ جدًّا.

قرار الولادة

لكي نفهَمَ كيف يكونُ قرارُ الولادة، فَلْنَتأمَّلْ معًا كيف تحدُثُ الولادة الجسديَّة ونقارنْها بالولادة الروحيَّة. عندما يقتربُ مَوعدُ الولادة، يبدأ الرَّحِمُ ينقبضُ، ويبدأ الجنين يشعرُ بأنَّ عالمه المثاليَّ يضيقُ عليه، فَلَمْ يَعُدْ يَشعُرُ فيه بالرَّاحة والحرِّيَّة التي كان يشعرُ بها من قبل.

تخيَّلْ أنَّنا في ذلك الوقت، نقتربُ من ذلك الجنين ونبعثُ إله برسالةٍ من "العالم الآخر" لنُخبرَه بأنَّ هذا "العالم" الذي يعيش فيه ليس سوى عالم زائف مؤقَّت، وبأنَّه محدودٌ جدًّا مقارنةً بالعالم الخارجيِّ الواسع. نحكي له عن البحار والأشجار والسَّماء والسَّحاب والألوان والأصوات والبشر والحيوانات. دون شكّ، هو يحتاج إلى قَدرٍ من "الإيمان" ليُصدِّقَ بوُجودِ أمورٍ كهذه لم يَرَها من قَبل. ربَّما نحاولُ أن نقدِّمَ إليه بعض الأدلَّة والبراهين التي قد يُسمِّيها في "عالمه" آياتٍ وعجائب. بل إنَّ صَوتَنا وحديثَنا الذي يَصِلُ إليه في عالمه الصغير هو في حدِّ ذاتِه معجزة.

---

١٢٠) أفسس ٤: ٢٤؛ كولوسّي ٣: ١٠.

ربَّما "يؤمن" بأنَّ هناك بالفعل عالمًا كهذا "روحيًّا" غيرَ منظورٍ يختلفُ عن العالم المحدود الذي يعيشُ فيه، لكنَّ هذا "الإيمان" لا يصيرُ إيمانًا حقيقيًّا إلَّا إذا وافَقَ على "الولادة". وما المقصود بالولادة؟ إنَّها ببساطةٍ أن يكونَ مستعدًّا لأن يَعيشَ كما لو كان العالم الخارجيُّ أكثرُ دَيمومةً من العالم الذي يَعيشُ فيه. عندئذٍ نقولُ له إنَّنا سنقطعُ هذا الحبلَ ونُخرِجَه من هذا المكان.

نحن نحسبُ خُروجَ الجنين من الرَّحِم ولادةً من منظورنا نحن الذين نحيا في الخارج (خارج الرَّحِم)، أمَّا من منظور الجنين فتُعدُّ الولادةُ مَوتًا. تخيَّلْ أنَّنا نقولُ له إنَّنا سنقطعُ ذلك الحبل الذي يربطُه بأمِّه ويأتيه بالغذاء والأوكسجين. بالتَّأكيد سيرفضُ قائلًا لنا: "أنتم ستَقتُلونني هكذا. هذا الحبلُ هو حياتي ومن دونه سأموت". كلامُه صحيح، ولكنْ من منظور مَن يعيشون داخل الرَّحِم، بينما هي ولادةٌ من منظور مَن يعيشون خارجَه. وإذا بدأ يتشكَّكُ ويخاف، فإنَّنا عندئذٍ نواجهُه بمزيدٍ من الحقيقة فنقول له إنَّ لهذا الحبل عمرًا افتراضيًّا وهو نحو تسعة شهور بعدها سيُصيبُ التصلُّب شرايينَه، ويكفُّ عن إمداده بالدَّم، لذا فإنَّه إنْ لم يولَدِ الآن سيَموت. أي أنَّه إنْ لم يقبَلْ أن "يموتَ" عن الحياة الزائفة ويولَدَ في الحياة الحقيقيَّة الآن، فسيَموتُ مَوتًا نهائيًّا.

كما أنَّ الولادة الجسديَّة هي مَوتٌ عن حياة الرَّحِم، فالولادةُ الروحيَّة هي نَوعٌ من الموت عن الحياة الأرضيَّة. لذا يأتي رمزُ المعموديَّة التي تشير إلى عمليَّة دفنٍ وموت[١٢١] عن هذه الحياة الدُّنيا لكي نحيا الأبديَّة من اللَّحظة التي نؤمن فيها بِوُجود الحياة الأبديَّة وبأولَوِيَّتها ودَيمومَتِها مُقارَنةً بالحياة الأرضيَّة المحدودة.

---

١٢١) رومية ٦: ٤.

الحياةُ الأبديَّة

إذا وافق الجنين (روحيًّا) وتحوَّل إيمانُه من الإيمان العقليِّ إلى الإيمان الاختباريِّ الحقيقيِّ وقَبِلَ كلمة الله التي تَلِدُه[١٢٢] (أي استسلَمَ لها)، وسمح للحبل السُّرِّيِّ الذي يربطُه بالعالم المزيَّف والذات المزيَّفة بأن يُقطع؛ وحين يبدأ يرفضُ الخطيَّة ويطيعُ الوصيَّة والحياة في طاعةِ النَّاموس الروحيِّ بدلًا من الناموس الجسديِّ المحكوم بالخوف والخزي، والذي يبحثُ عن كلِّ ألوانِ الخطيَّةِ وأشكال السيطرة ليُخدِّرَ بها خَوفَه وخِزْيَه- عندئذٍ يدخل الإنسان إلى بُعدٍ آخر من الوجود والحياة، أي تنفتح رئتاه وتدخُلُهما "ريح" جديدة، ونعني بهذا "روحًا" جديدة. من تلك اللحظة، يسكنُه الرُّوح القدس ويبدأ علاقةً جديدةً بالعالم الرُّوحيِّ، فيَستَطيع أن يختبرَ الله بصورةٍ جديدة؛ لأنَّه سمعَ رسالةَ السيِّد المسيح الذي كلَّمَه وهو لا يزال في حياتِه الزائفة، فصدَّقَ هو هذه الرسالة.[١٢٣]

وعلى الرُّغم من اتِّساع هذه الحياة الجديدة ورحابتِها وأصالَتِها وصِدْقِها، فهي ليسَتْ حياةً سهلة. فمع أنَّه صار يرى بعَينَيه الأشياءَ كما هي، ويسمعُ الأصواتَ واضحةً نقيَّة بعد أن كانت مكتومةً في الداخل، فإنَّه يرى أيضًا القُبْحَ والتَّشوُّه. ومع أنَّه صارَ الآن يشعرُ باللذَّة بصورةٍ أقوى وأحدَّ ممَّا كان يستطيعُه داخل الرَّحِم، فإنَّه يشعرُ أيضًا بالألم كما لم يشعُرْ به من قبل. ومع أنَّه صار أيضًا يستطيعُ أن يتحرَّكَ بحرِّيَّة، ويختارَ الذهابَ إلى حيثُ يريدُ وليس إلى حيثُ تريدُ أُمُّه، فإنَّه يبذلُ الجَهدَ لكي يفعَلَ ذلك. صحيح أنَّه يستمتعُ بالهواء والنَّسمات العليلة، لكنَّه أيضًا يُعاني البردَ والحرّ. لقد صار يعرفُ أكثرَ ويستمتعُ بلذَّةِ المعرفة، لكنَّ تلك المعرفةَ تُشقيه

---

١٢٢) ١بطرس ١: ٢٣.

١٢٣) يوحنَّا ٥: ٢٨.

في بعض الأحيان. لذا فعندما يمرُّ بأوقاتِ التَّعب والمعاناة والألم في الحياة الجديدة، تراه يَحنُّ إلى الحياة الزائفة- حياة الرَّحِم.

هذا يذكِّرُني كثيرًا بمشهدٍ من مشاهد فيلم "الشبكة"[١٢٤](Matrix) والذي يَصِفُ رغبةَ سايفر (Cypher) في العودة ثانيةً إلى الشبكة (الحياة الزائفة) بعد أنِ اختبَرَ الحياةَ خارجها، لأنَّه اكتشفَ أنَّ الحياةَ "الحقيقيَّة" صعبةٌ في الخارج. لذلك ابتلَعَ الكبسولةَ الزَّرقاء التي عرضَها مورفيوس (Morpheus) عليه كما عرضَها على نيو (Neo)، وقَبِلَ "الولادة الجديدة" التي صارَ بها يعيشُ وُجودًا آخرَ لا يعيشُه الآخرون ممَّن لا يزالون في الشبكة يعمَلون كبطَّاريَّات. دخل سايفر زمرةَ المتمرِّدين على "الشبكة" والذين يعيشون "ملكوتًا" آخرَ رُغمَ أنَّهم كانوا أحيانًا يدخُلون الشبكةَ لتَنفيذِ مَهامَّ محدَّدة، ثُمَّ يعودون إلى سفينتهم زيون.

وفي إحدى المرَّات، أصابَ الضَّعْفُ سايفر وقابلَ واحدًا من حُرَّاسِ الشَّبكة في أحَدِ المطاعم "المزيَّفة"، وطلبَ منه أن يُعيدوا إدماجه في الشَّبكة ثانيةً، في مقابل أن يُفشِيَ لهم أسرارَ المركَبة زيون التي يستَقلُّها نيو ومورفيوس ورفقاؤهما ممَّن وُلِدوا "ثانيةً"، وخَرجوا من الشبكة. وإليكم وصفًا للمشهد:

سايفر: "أنا أعلَمُ أنَّ شريحةَ اللَّحم هذه ليسَتْ مَوجودة. أعلم أنِّي عندما أضَعُها في فمي، فإنَّ «الشبكة» تقولُ لمخِّي إنَّها لذيذة". عندها يتنهَّد سايفر ويتابعُ قائلًا:

---

١٢٤) أحَدُ أفلام الخيال العلميِّ يَحكي قصَّةَ تعرُّض الأرض إلى غزوِ كائناتٍ فضائيَّة. واستخدمت هذه الكائناتُ أجسادَ البشر لتكونَ نَوعًا من "البطَّاريَّات" لإنتاج الطاقة. ولكي يعيشَ الجسدُ البشريُّ، أوصَلوا كلَّ إنسانٍ ببرنامج حاسوبٍ افتراضيٍّ، يجعَلُه يظنُّ أنَّه يعيش ويعمل ويتزوَّج ويُنتج، بينما هو في الواقع مَوضوعٌ في كبسولةٍ كبطَّاريَّة ليُنتجَ الطاقة. يعني هذا أنَّهم يوهمونَه أنَّه يعيش حقًّا، بينما هو لا يعيشُ حياةً حقيقيَّة.

ويدورُ الفيلم حَولَ قصَّة بعضِ البشر الذين أدركوا حقيقةَ وضعهم، وتمرَّدوا عليه، لذلك خَرَجوا من "الشبكة"، وصاروا في حالة عداءٍ معها.

"بعد تسع سنوات [على خروجه من الشبكة]، هل تعرفُ ماذا اكتشَفْت؟" يطرحُ السؤالَ بينما يَضَعُ قطعةَ لحمٍ أُخرى في فمه ويمضَغُها متنهِّدًا ومغمضًا عينَيه. ثمَّ أجابَ عن سؤاله قائلًا:

"الجهلُ متعة".

لقد تعبَ سايفر من الحياة "الحقيقيَّة" ويوَدُّ العَودةَ إلى حياة الذات المزيَّفة؛ لأنَّه اكتشفَ أنَّ عليه- لكي يَعيشَ حياةَ الذاتِ الحقيقيَّةِ في عالم ساقط يسيطرُ عليه "حرس الشبكة"- أن يعيشَ حياةً من الصِّراع ما بين الذاتِ المزيَّفة المرتَبطةِ بملذَّاتٍ زائفة، والحياة الحقيقيَّة المرتبطة بالحقِّ والحبِّ والحرِّيَّة.

نحن كلُّنا مثل سايفر عندما يُنهِكُنا الصِّراعُ مع الجسدِ والعالم والشيطان. عندها نتوقُ إلى العَودة إلى الرَّحم والحياة الأضيَق، وإلى التعلُّق بالأشياء التي كانت توفِّرُ لنا تخديرًا، ولو مؤقَّتًا، للخَوف والخزي والألم.

أمَّا إذا واصَلْنا وثابَرْنا في عَيشِ الحقيقة الروحيَّة، فإنَّنا نولَدُ بالفعل إلى عالمٍ أبديٍّ أرحَبَ في مداه، وأعمقَ في معناه.

في بعض الأحيان. لذا فعندما يمرُّ بأوقاتِ التَّعب والمعاناة والألم في الحياة الجديدة، تراه يَحنُّ إلى الحياة الزائفة- حياة الرَّحِم.

هذا يذكِّرُني كثيرًا بمشهدٍ من مشاهد فيلم "الشبكة" [١٢٤](Matrix) والذي يَصِفُ رغبةَ سايفر (Cypher) في العودة ثانيةً إلى الشبكة (الحياة الزائفة) بعد أنِ اختبَرَ الحياةَ خارجها، لأنَّه اكتشفَ أنَّ الحياةَ "الحقيقيَّة" صعبةٌ في الخارج. لذلك ابتلَعَ الكبسولةَ الزَّرقاء التي عرضَها مورفيوس (Morpheus) عليه كما عرضَها على نيو (Neo)، وقَبِلَ "الولادة الجديدة" التي صارَ بها يعيشُ وُجودًا آخرَ لا يعيشُه الآخرون ممَّن لا يزالون في الشبكة يعمَلون كبطَّاريَّات. دخل سايفر زمرةَ المتمرِّدين على "الشبكة" والذين يعيشون "ملكوتًا" آخرَ رُغمَ أنَّهم كانوا أحيانًا يدخُلون الشبكةَ لتَنفيذِ مَهامَّ محدَّدة، ثُمَّ يعودون إلى سفينتهم زيون.

وفي إحدى المرَّات، أصابَ الضَّعْفُ سايفر وقابلَ واحدًا من حُرَّاسِ الشَّبكة في أَحَدِ المطاعم "المزيَّفة"، وطلبَ منه أن يُعيدوا إدماجه في الشَّبكة ثانيةً، في مقابل أن يُفشِيَ لهم أسرارَ المركَبة زيون التي يستَقلُّها نيو ومورفيوس ورفقاؤهما ممَّن وُلِدوا "ثانيةً"، وخَرجوا من الشبكة. وإليكم وصفًا للمشهد:

سايفر: "أنا أعلَمُ أنَّ شريحةَ اللَّحم هذه ليسَتْ مَوجودة. أعلم أنِّي عندما أضَعُها في فمي، فإنَّ «الشبكة» تقولُ لمخِّي إنَّها لذيذة". عندها يتنهَّد سايفر ويتابعُ قائلًا:

---

١٢٤) أحَدُ أفلام الخيال العلميّ يَحكي قصَّةَ تعرُّض الأرض إلى غزوِ كائناتٍ فضائيَّة. واستخدمت هذه الكائناتُ أجسادَ البشر لتكونَ نَوعًا من "البطَّاريَّات" لإنتاج الطاقة. ولكي يعيشَ الجسدُ البشريُّ، أوصَلوا كلَّ إنسانٍ ببرنامج حاسوبٍ افتراضيٍّ، يجعَلُه يظنُّ أنَّه يعيش ويعمل ويتزوَّج ويُنتج، بينما هو في الواقع مَوضوعٌ في كبسولةٍ كبطَّاريَّة لِيُنتجَ الطاقة. يعني هذا أنَّهم يوهمونَه أنَّه يعيش حقًّا، بينما هو لا يعيشُ حياةً حقيقيَّة.

ويدورُ الفيلم حَولَ قصَّة بعضِ البشر الذين أدركوا حقيقةَ وضعهم، وتمرَّدوا عليه، لذلك خَرَجوا من "الشبكة"، وصاروا في حالة عداءٍ معها.

"بعد تسع سنوات [على خروجه من الشبكة]، هل تعرفُ ماذا اكتشَفْت؟" يطرحُ السؤالَ بينما يَضَعُ قطعةَ لحمٍ أُخرى في فمه ويمضَغُها متنهِّدًا ومغمضًا عينَيه. ثمَّ أجابَ عن سؤاله قائلًا:

"الجهلُ متعة".

لقد تعبَ سايفر من الحياة "الحقيقيَّة" ويوَدُّ العَودةَ إلى حياة الذات المزيَّفة؛ لأنَّه اكتشفَ أنَّ عليه- لكي يَعيشَ حياةَ الذاتِ الحقيقيَّةِ في عالم ساقط يسيطرُ عليه "حرس الشبكة"- أن يعيشَ حياةً من الصِّراع ما بين الذاتِ المزيَّفة المرتَبطةِ بملذَّاتٍ زائفة، والحياة الحقيقيَّة المرتبطة بالحقِّ والحبِّ والحرِّيَّة.

نحن كلُّنا مثل سايفر عندما يُنهِكُنا الصِّراعُ مع الجسدِ والعالم والشيطان. عندها نتوقُ إلى العَودة إلى الرَّحم والحياة الأضيَقِ، وإلى التعلُّق بالأشياء التي كانت توفِّرُ لنا تخديرًا، ولو مؤقَّتًا، للخَوف والخزيِ والألم.

أمَّا إذا واصَلْنا وثابَرْنا في عَيشِ الحقيقة الروحيَّة، فإنَّنا نولَدُ بالفعل إلى عالمٍ أبديٍّ أرحَبَ في مداه، وأعمقَ في معناه.

الفصل ١٦

التَّلمذة

صراعُ النموِّ الرُّوحيّ

يحرِصُ العهدُ الجديد دائمًا على تأكيد أنَّ الحياةَ الجديدة لا تأتي ولا تُثمرُ وتزدهرُ إلَّا من خلال الإماتة المستمرَّة لما هو قديم. والقديمُ هنا ليس هو ذاتَ الإنسان الحقيقيَّةَ التي خلقَها الله بكلِّ ما فيها من إمكاناتٍ وطاقاتٍ ورغباتٍ واحتياجات، بل هي الذَّاتُ الدفاعيَّةُ المزيَّفة بما فيها من مَيلٍ شرِّيرٍ إلى الكبرياء والأنانيَّة والانحصار في النفس، وبدائلَ مزيَّفةٍ للأمان والقيمة. ويُسمِّي الكتابُ المقدَّسُ تلك البَدائلَ "الخطايا"، كما يُسمِّي الذاتَ المزيَّفةَ "الإنسان العتيق" (كما ذكَرْنا في الفصول السابقة) الذي تسيطرُ عليه فكرةُ الاستقلاليَّة والسيطرة (الجسد). ولكي يستطيعَ الإنسانُ أن يفعلَ ذلك، فهو يحتاجُ بعدَ خطوةِ الإيمان لأن يعيشَ حياةً مستمرَّةً من اكتشاف ذاته الحقيقيَّة وذاته المزيَّفة، ويختارَ بشكلٍ مستمرٍّ ومُثابرٍ أن يعيشَ ذاتَه الحقيقيَّة بقوَّةِ روح الله، ويُميتَ ذاتَه المزيَّفة بالقوَّة الروحيَّة نفسها التي يمنحُها الله. يكتشفُ الإنسانُ ذاتَه الحقيقيَّة عندما يتعرَّضُ لحبٍّ وقبولٍ حقيقيَّين غير مشروطَين

من الله والآخرين، ويدركُ كم أنَّ هذا الحبَّ أكثرُ أصالةً ممَّا كان يحصلُ عليه من خلال دفاعاتِ السَّيطرة وسلوكيَّاتها.

لا تعني الولادةُ الجديدةُ زوالَ الزَّيف من حياة الإنسان، لكنَّها تَعني الخلاصَ من سَطوَته. لا يوجَدُ تعليمٌ من الكتاب المقدَّس يقول إنَّ الخطيَّة لم تَعُدْ ساكنةً فينا، أو إنَّ الجسدَ لم يَعُدْ فينا، لكنَّه يُعلِّمُنا أنَّ الخطيَّة مَوجودةٌ فينا لكنَّها لن تسودَ علينا[١٢٥]، وأنَّ الجسدَ لم يَزَلْ فينا يصارعُ ضدَّ الرُّوح لكنَّنا لم نَعُدْ نعيشُ فيه ولا عادت بيئةُ وُجودنا ضمنه.[١٢٦] وعلى الرُّغم من خَلْع الإنسان العتيق، بل دفنه في مراسم طقس المعموديَّة، في لحظةِ إشراقِ النُّور في القلب، وقبول السيِّد المسيح فيَبقى مَطلوبٌ منَّا أن نعيشَ حالةَ الخَلْع باستمرار، بمعنى رَفْضِ كلِّ ما هو زائف. إنَّ هذا هو ما نتعلَّمُه بمراجعةِ الأفعال اليونانيَّة التي استعمَلَها الرَّسول بولس. فَفعلُ الخلع في أفسس ٤: ٢٢ وكولوسِّي ٣: ٨ يأتي في صيغة المضارع المستمرّ، أي الاستمرار في حالة الخلع. والفعل الذي استعمَلَه في رومية ٦: ٥ ليَصِفَ معموديَّتنا "متَّحِدين معه بِشِبْه مَوته" يعني اتِّحادًا ينمو ويستَمرّ، لا حَدثًا تمَّ مرةً وانتهى.

الإماتةُ والخَلْع

تَكلَّمَ الرُّسُل، بولس وبطرس ويعقوب، كثيرًا بشأن مَهمَّة المسيحيِّ الحقيقيِّ المقدَّسة في الإماتة والخَلْع المستَمرَّين ليَستَطيعَ العَيشَ منتَصِرًا، مختبرًا مشيئة الله الصالحة المرضيَّة الكاملة.[١٢٧] وهذا يجعَلُنا نطرح السؤال: "كيف؟"

---

١٢٥) رومية ٦: ١٤.

١٢٦) رومية ٨: ٨-١٠.

١٢٧) رومية ١٣: ١٢؛ أفسس ٤: ٢٢ و٢٥؛ كولوسّي ٣: ٨؛ عبرانيِّين ١٢: ١؛ يعقوب ١: ٢١؛ ١بطرس ٢: ١.

إذا ذهَبْنا إلى ما هو دون السَّطح لنَفحصَ جُذورَ شجرةِ الذاتِ المزيَّفة ذات الثمر الـمُرَّة، فسنَجدُ أنَّ لها نهرًا يرويها تُمِدُّه روافدُ كثيرة. ولو درَسْنا الـمُناخَ الذي تَنمو فيه، لوَجَدْنا أنَّ هناك مُناخًا واحدًا فقط، لا تَستَطيعُ النموَّ فيه. وبناءً على هذا، يَصيرُ خلعُها وإماتَتُها معتمِدان على تجفيف هذا النَّهر الذي يُغذِّيها، وعلى حِفْظ أنفسنا في هذا الـمُناخ الذي يخنُقُها. أمَّا النَّهرُ الذي يُغذِّيها، فهو المعتقداتُ المحوريَّةُ الخاطئة التي غُرِسَت في أذهاننا على مدى السنين. ويُذكَر هنا أنَّ لهذا النَّهرِ روافدَ كثيرة: الأُسرة، والمجتمع، ووسائل الإعلام، وأحيانًا الكنيسة، بكلٍّ أسَف. وعلى صعيدٍ آخر، يكونُ الـمُناخُ الوَحيدُ الخانقُ لها هو ما يُشيرُ إليه الرَّسول بولس بتعبيرات "في الرُّوح"، و"بالرُّوح"، و"حسب الرُّوح". وتعبِّر هذه الاصطلاحات عن كلِّ مجالٍ يعمَلُ فيه الرُّوح القدس، حيث يكونُ المركَزُ هو السيِّدَ المسيح وليس الأنا. أمَّا كلُّ مُناخٍ يُغذِّي الأنا، وإنْ كان الكنيسةَ أوِ الخِدمة، فهو مُناخٌ خالٍ من عملِ الرُّوح، ومناسبٌ تمامًا لنموِّ شجرة الزَّيف.

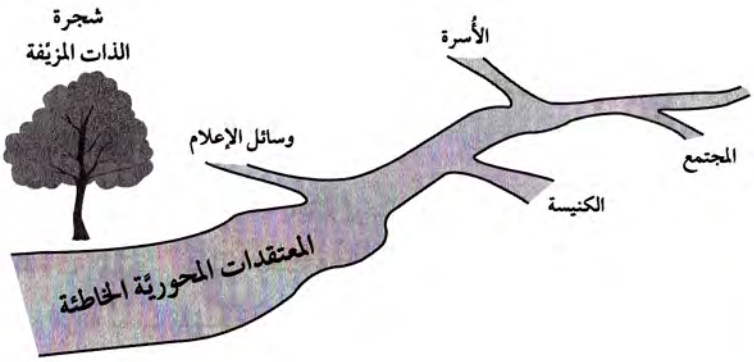

الشكل رقم (٢): المعتقداتُ المحوريَّةُ والذاتُ المزيَّفة

محبَّة النَّفس

حينما نتكلَّم بشأن "إماتة الذات"، فمن المهمّ جدًّا أن نَضَعَ أمامَها مفهومًا آخرَ مُهمًّا من مفاهيم النموّ الرُّوحيّ: "محبَّة النفس". وعند الكلام بشأن محبَّة النفس، فإنَّنا لا نقصدُ البتَّة تعميقَ الأنانيَّة في الإنسان بالمفهوم الذي يتكلَّمُ بشأنه بولس في ٢تيموثاوس ٢: "أنَّه في الأيَّام الأخيرة تأتي أزمنةٌ صعبةٌ يكونُ الناس فيها محبِّين لأنفسهم، محبِّين للذَّات دونَ محبَّةِ الله"؛ لأنَّنا نَظُنُّ أنَّ بولسَ كان يقصدُ محبَّة الذات المزيَّفة المنحصِرة في نفسها، فهو فَسَّرَ محبَّةَ النَّفس هنا بأنَّها محبَّةٌ للذَّات، وبأنَّها مُنفَصِلةٌ عن محبَّة الله. أمَّا محبَّةُ النَّفس التي نريدُ أن نتكلَّمَ بشأنها هنا فهي محبَّةُ الذاتِ الحقيقيَّة المخلوقة على صورة الله، والتي تَجِدُ عُمقَ لذَّتِها في محبَّة الله والآخرين، وفي الخروج من إطار النَّفس.

أمَّا عدمُ محبَّة الذات الحقيقيَّة وكلّ ما فيها من إمكاناتٍ واحتياجاتٍ ومحدودات، مثل الرُّوح والعقل والمشاعر والجسد، فهو مرضٌ روحيٌّ ونفسيٌّ نراه بشكلٍ شِبْه مستمرٍّ في مَن تعرَّضوا للانتهاك والإهمال في الطُّفولة. نراه في الاكتئاب الشَّديد وفي اضطراباتِ الأكل وسلوكيَّاتٍ كراهِيَة الجسد والإساءة له، لا سيَّما في أولئك الذين تعرَّضوا للاعتداءات الجنسيَّة البالغة في الطفولة، أو عانوا القَهْرَ والإهمالَ بكلّ صُورهما.

من المنطلق نفسه أيضًا، يحثُّ بولسُ الرسولُ الرِّجالَ على محبَّة نسائهم بالكلمات التالية: "كَذلكَ يَجبُ عَلَى الرِّجال أَن يُحبُّوا نسَاءَهُم كأَجسادهم. مَن يُحبُّ امرأتَه يُحبُّ نَفسَه. فإنَّه لَم يُبغِضْ أَحَدٌ جَسَدَه قَطُّ، بَل يَقُوتُه وَيُرَبِّيه، كَما

الربُّ أيضًا للكَنيسة".[١٢٨] كما أنَّ "إنكارَ الذات" و"بُغضةَ النَّفس" التي يتكلَّم بها السيِّد المسيح في الإنجيل[١٢٩] لا تَعني البتَّة كَراهِيَة الذَّاتِ الحقيقيَّة، بل الذَّاتِ المزيَّفة التي تحصرُنا على نحوٍ مرَضيٍّ في أنفسنا، لذا ينبغي أن نُميتها قبل أن تُميتَنا. لكنَّ المشكلةَ هي أنَّه نظرًا إلى طول الفترة التي عِشْنا فيها هذه الذَّاتَ المزيَّفة وظَننَّا أنَّها ذواتُنا الحقيقيَّة، فإنَّنا نشعرُ بينما نميتُها كأنَّنا نُميتُ ذواتنا الحقيقيَّة، لكنَّنا إذا صدَّقْنا السيِّدَ المسيح وأمَتْناها بلا شَفَقة، وبشكلٍ مستَمرٍّ ومُثابِر، فسوف نكتَشفُ كلَّ يَوم، أنَّنا لا نُميتُ أنفُسَنا بل نُحييها، وننطلقُ إلى حياةٍ روحيَّةٍ أكثرَ حرِّيَّةً ورَحابة.

الخليقةُ الجديدة

إضافةً إلى أنَّ الخلاصَ والولادةَ الجديدةَ يُعيدانِنا إلى حالةِ السَّلام والانسجام مع الله، مثلما كان آدم قبل السقوط، ففيهما أيضًا يحيا الله نفسُه فينا روحيًّا وهذا ما يُسمِّيه الكتابُ المقدَّس "الخليقة الجديدة". هذا الكِيانُ الجديدُ هو "نقلةٌ تطوُّريَّة" (Upgrade) للوُجود الإنسانيِّ تؤهِّلُه إلى الحياة الأبديَّة في السماء الجديدة والأرض الجديدة، فيَقولُ بولسُ الرَّسول: "إنَّ لحَمًا ودَمًا لا يَقدِران أَنْ يَرِثا مَلَكوتَ الله، وَلا يَرِثُ الفَسادُ عَدَمَ الفَساد"[١٣٠]، ويقولُ أيضًا في الأصحاح ذاته: إنَّنا بالولادة الجديدة لا نرجعُ إلى صورةِ آدم "التُّرابيّ"، بل نرتَقي إلى صورة السيِّد المسيح الرَّبِّ من السماء. "صارَ آدَمُ، الإنْسانُ الأَوَّلُ، نَفسًا حيَّةً، وآدَمُ الأَخيرُ رُوحًا مُحْيِيًا. لكِنْ لَيسَ الرُّوحانيُّ أوَّلًا بَلِ الحيَوانيُّ، وَبَعدَ ذلكَ الرُّوحانيُّ. الإنْسانُ الأَوَّلُ من

---

١٢٨) أفسس ٥: ٢٨-٢٩.

١٢٩) لوقا ١٤: ٢٦.

١٣٠) ١كورنثوس ١٥: ٥٠.

الأَرْضِ تُرابيٌّ. الإِنْسانُ الثَّاني الرَّبُّ من السَّمَاء. كَما هُوَ التُّرابيُّ هكَذا التُّرابيُّون أَيضًا، وكَما هُوَ السَّماوِيُّ هكذَا السَّماوِيُّونَ أَيضًا. وكَما لَبِسْنَا صورَةَ التُّرابيِّ، سَنَلْبَسُ أيضًا صورةَ السَّماويِّ. فَأَقُولُ هذا أَيُّها الإِخوَةُ: إِنَّ لَحمًا ودَمًا لا يَقْدِرانِ أَنْ يَرِثا مَلَكوتَ الله، وَلا يَرِثُ الفَسادُ عَدَمَ الفَساد".

وكما قال بولس الرسول عن الذات المزيفة: "لَستُ بَعدُ أَفعَلُ ذلكَ أَنَا"[١٣١]، فهو يقولُ أيضًا عن الخليقة الجديدة التي تَسكُنُنا عندما نولَدُ من جديد: "فأَحيا لا أَنَا، بَلِ المسيحُ يَحيا فيَّ".[١٣٢] عندما نؤمنُ بأنَّ لنا هذه الخليقةَ الجديدةَ غير القابلة للفساد وندركُها، فإنَّنا سنَتَشجَّعُ لنُميتَ الخطيَّة والموتَ، كما أنَّه لن تكونَ الحياةُ الأرضيَّة- وإنْ كانَتْ بارَّة تَقيَّة- ذاتَ قيمةٍ كبيرةٍ عندنا كالسَّابق. وفي هذه الحال:

- لا نكرَهُ السعادةَ واللذَّة بكلِّ صُوَرِها، لكنَّنا لن نكونَ مَشغولين بهما أكثر من اللَّازم كَمَن لا يُدركُ أنَّ هناك بُعدًا آخرَ أعمَقَ وأبقى للَّذَّة يَكمُنُ في العلاقة الروحيَّة بالله.
- ولا نكرَهُ المالَ والنَّجاحَ في حَدِّ ذاته، بل نُعطيهما قيمةً أقلّ، عندما نعرفُ الكنزَ الحقيقيَّ الذي لنا في السماء. قد يَبدو الأمر من الخارج كأنَّنا نحتَقرُ ممتَلَكاتِنا الأرضيَّة ونَبيعُها، لكنَّ الحقيقةَ هي أنَّنا نَشتَري بها لؤلؤةً أكثر ثمنًا.
- أيضًا لا نتَجاهَلُ حقوقَنا المعنويَّة في الحرِّيَّة والاحترام، بل نكونُ مستَعدِّين للغُفران والتَّضحِيَة بحقوقنا لتَقديم الحبِّ والقبول لنَفْسٍ إنسانيَّةٍ واحِدةٍ ثمينة. ولا نكون مهووسين بالدِّفاع عن أنفسنا هنا على الأرض، تمامًا كَمَن

---

١٣١) رومية ٧: ١٧.

١٣٢) غلاطيَّة ٢: ٢٠.

لا يَهتَمُّ كثيرًا بشقّته المتواضعة عالمًا أنّه سيَنتَقلُ قريبًا إلى قَصرٍ فخم.

يلخّص القدّيس فرنسيس الأسيزيّ[١٣٣] (١١٨١-١٢٢٦م) هذه الحالةَ في عبارته المشهورة: "ارتَدِ العالم كَثَوبٍ فَضفاضٍ يتَلامَسُ مع جسدك بخفّةٍ وفي مناطقَ قليلةٍ فقط". هذه هي حياةُ الملكوت.

الذاتُ المزيّفة والوُجود الزائف

يَنحَصِرُ الزّيفُ في حياتنا ليس فقط في الذّاتِ المزيّفة، فهناك أيضًا ما يمكنُ أن نُسمّيَه "الوُجود الزائف"، وهو وَصْفٌ أطلقَه الفيلسوفُ والمفكّرُ الألمانيُّ الكبير مارتن هايديغر (Martin Heidegger)، الذي عاش ما بين عامَي ١٨٨٩و١٩٧٦م. ويقتربُ هايديغر كثيرًا ممّا يُسمّيه بولسُ الرّسول في أفسس "دهر هذا العالم"، ولا سيّما في شقّه الدّينيّ، الذي يتوحّدُ معه الإنسان فيَفقدُ هُويّتَه ووُجودَه الخاصّ. ولا نجِدُ ما يمنَعُ من استعمال وَصفِ الزّائف لكلّ ما لم يَصنَعْه الله: الخطيّةُ زَيف، والجسدُ زَيف، والإنسانُ العتيقُ زَيف، ودَهرُ هذا العالم أكبر زَيف. وما الأبديّة التي نشتاق إليها إلّا الخلاصُ من كلّ زَيفٍ حيثُ لن يَبقى إلّا ما صنعَه الله، وحيثُ يكونُ الله الكلَّ في الكلّ.

إنّ ذاتي الزائفة هي مَوروثٌ رديء، وُلِدْتُ حاملًا بذرتَه، ثمّ برزَتْ واكتمَلَتْ مع الأيّام معالمه إبّانَ استِقلالي عن الله، في تَفاعُلي المستمرّ مع الله والأحوال والناس. أمّا وُجودي الزائف فهو ارتمائي في حِضْنِ النّاس، وذوباني في جماعةٍ ما، ليُصبحَ وُجودُهم هو وجودي، وهُويّتُهم هي هُويّتي، وقيمتُهم هي قيمتي. فالوُجودُ

133) http://en.wikipedia.org/wiki/Francis_of_Assisi

الزائفُ يجعلُ الإنسان مجرَّدَ شيء، كما يعملُ على إسالته ليصيرَ مائعًا لا شكلَ له ولا لَون، وهكذا لا تكونُ له قيمة إلَّا إذا حُقِنَ في جَسَدِ الجَماعة لتَغذِيَتها وتحقيق أهدافها، أي أنَّ وُجودَ هذه الجماعة صارَ معتَمدًا على عدميَّته! ويبدو أنِّي قَبِلتُ هذه الإسالة لأُريح نفسي الكسلانةَ الجبانةَ من مغامرةِ البَحث عن وجودي الخاصِّ الذي خلقَني الله لأختبرَه، والذي فيه وحدَه تُفعَّلُ ذاتي الأصيلة الحقيقيَّة التي تحوي "شيفرة" تَفرُّدي الشخصيّ، وتعكسُ شيئًا من جمال خالقي. إنَّ غايةَ المنى في الحياة، وقمَّةَ المتع هي أن أحقِّقَ وُجودي الأصيل الذي خلَقَني الله لأُحقِّقَه، والذي به أدخلُ الراحة الباقية- تلك الراحة التي لا أرى عائقًا يمنعُ البشر من تحقيقها سوى الإلحاد والدين: فالأوَّل يُلقي بالإنسان في العدم، بينما يُهلِكُه الثَّاني بوُجودٍ زائفٍ مَقيت. لا نُنكِرُ أنَّ فَضاءَ الحرِّيَّة من الزَّيف مخيف؛ وأنَّ مجدَ الحقيقة مُرهب، وأنَّ الركضَ على صخور الواقع للبَحثِ عن وُجودي الحقيقيِّ الخاصِّ يُصيبُني بالإعياء، لكنَّنا لم نعرَفْ طَعْمَ ما يُسمَّى حياةً إلَّا هناك. هناك فقط لم نعُدْ نرى في الذَّاتِ والوُجودِ المزيَّفَين إلَّا ما قالَه الربُّ الإله: "موتًا تموت".

الوُجودُ الحقيقيُّ والعَلاقةُ بالكِياناتِ الدِّينيَّة

الوُجودُ الحقيقيُّ هو أن يحيا المسيحيُّ في مِلءِ مَشيئةِ الله الخاصَّة به، بكلِّ تَفصيلاتها من جهته، والتي فيها يشعرُ بمعنى الحياة ويستَمتعُ بلذَّةِ الوُجود، حيث يرى نفسَه عاملًا مع الله، شريكًا له في إقامة أعظَم كِيانٍ في الزمان والخُلود، أي ملكوت الله. أمَّا الوُجودُ الزَّائف بالنِّسبة إلى المسيحيِّ فهو الانزلاق نحو الانصهار في كِياناتٍ دينيَّة يتوحَّد فيها، وتَصيرُ هُوِيَّتُها هي هُوِيَّتُه ليُريحَ نفسَه من القَلقِ الوُجوديِّ الباحث عن مشيئة الله الخاصَّة به. وتوحي هذه الكِياناتُ للمسيحيِّ بأنَّ غايَتَها هي مجدُ الله،

لكنَّها تعملُ في معظم الأحوال لحسابِ نفسها أو قادتها، وتجعَلُ أفرادَها في النهاية شُهودًا على قصَّتها وليس قصَّة الله. وهذا القلقُ الوُجوديُّ الذي يَهربون منه هو قلقٌ صحِّيٌّ يعاني بسببه كلُّ إنسانٍ عاقلٍ صحيح، وتكمنُ قيمته في أنَّه يدفعُ الإنسانَ دَفْعًا نحو خالقه. والمأساةُ التي تؤرِّقَنا هي أنَّ قليلين من المسيحيِّين يعيشون هذا الوجودَ الحقيقيَّ الذي صارَ متاحًا للمسيحيِّ بينما يستَعصي على غير المسيحيّ. إنَّها آفةُ الكسل الروحيّ، والاستسهال الفكريِّ الذي يتجنَّبُ العَناء في البحث عن مشيئة الله الخاصَّة بكلِّ إنسان. إنَّه الانزلاق السَّهل على مزلاج الذاتِ المزيَّفة التي نتكاسَلُ في خَلْعِها، وهي تَجِدُ بيئةً خصبةً في تلك الكِيانات الدينيَّة.

كان لا بدَّ من هذا التأسيس النظريِّ قبل أن ننتقلَ إلى التطبيق في ما يخصُّ موضوعَ التلمذة وصراعَ النموِّ الروحيّ، عندما نرى كيف كانت تَعامُلاتُ الله مع بطرسَ الرَّسولِ ليُخلِّصَه من الذات المزيَّفة، ونرى أيضًا أسبابَ الوُجود الزائف وأعراضه في حياة لوط ويونان النبيّ، وتَعامُلاتِ الله مع كلٍّ منهما ليُخلِّصهما من ذاك الوُجود.

الفصل ١٧

التلمذةُ حتميَّةٌ للنُّموِّ الرُّوحيّ

عندما جاءَ أندراوُس بسِمْعانَ إلى السيِّد المسيح، كان سمعانُ "مَولودًا ثانية" بوصفه يهوديًّا تَقيًّا، حالُه حالُ زكريَّا وأليصابات وحَنَّة النبيَّة وسمعانُ البارُّ وكثيرون غيرهم ممَّن كانوا ينتظرون التَّعزِيَة بمجيء المسيَّا. يتَّضحُ هذا، مثلًا، من العبارة التي أتَتْ بسِمْعانَ إلى يسوع، "قد وجَدْنا مَسيَّا" (يوحنَّا ١: ٤١). عندما تُبشِّرُ شخصًا ما بأنَّك وجدْتَ شيئًا أو شخصًا، فهذا يَعني أنَّه كان يبحَثُ عنه ويتمنَّى أن يَجِدَه. لذا تعني العبارةُ أنَّ سمعانَ كان ينتظرُ إتمام الوَعدِ ووُصولَ المخلِّص. وكانت هذه ليسَتْ حالَ سِمعانَ وحدَه، بل أيضًا حالُ معظمُ تلاميذِ السيِّد المسيح، الذين كانوا يَهودًا أتقِياء لهم علاقةٌ حقيقيَّةٌ بالله وبالكُتُبِ المقدَّسة. إذًا، لم تكُنْ علاقةُ بُطرسَ بالسيِّد المسيح هي بدايةَ علاقتِه بالله، لكنَّها كانت، بكلِّ تأكيد، بدايةَ حياةِ التَّلمَذة. لقد اختارَ الربُّ يسوعُ هؤلاء المولودين ثانية ليُتلمِذَهم ثُمَّ يُرسِلَهُم، وهذا ينقلُه إلى مُلاحظَتَين مهمَّتَين:

- **أوَّلًا**، تسمَّى هؤلاءُ الأتباع "تلاميذ" من اللحظة الأولى التي بدأوا فيها علاقتَهم بالسيِّد المسيح (يوحنَّا ٢: ٢)، أي أنَّه لا انفصالَ ما بين بَدءِ

العلاقة بالسيِّد المسيح وبَدءِ التَّلمذة. فمَفهومُ أن يكونَ هناك مؤمنٌ بالسيِّد المسيح وهو ليس تلميذًا، هو مفهومٌ غريبٌ عن تَعليم العهد الجديد.

- **ثانيًا**، الولادةُ من الله. على الرُّغم من أنَّها جعلَتْهُم أتقياء ومحبِّين لله حقًّا، فلم تحوِّلْهم إلى أشخاصٍ كامِلين بلا عيوب. كانت فيهم عيوبٌ كثيرة، هي بقايا الذات الزائفة، وانكشفَتْ بِوُضوحٍ في أثناءِ علاقتهم بالسيِّد المسيح، وبعضِهم ببعضٍ، وبالآخرين. ونحن مدينون لِرَوعة الكتاب المقدَّس وصِدْقِه في تسجيل كلِّ هذه العيوب بهذا القَدرِ من التَّفصيل. وتحتِّمُ هذه البَقايا عمليَّةَ التَّلمَذةِ للتَّخلُّص منها. وهذا يُعطينا رجاءً ويَضعُ علينا مسؤوليَّة: رجاءً عندما نرى عيوبَنا على الرُّغم من ولادتِنا ثانيةً، ومسؤوليَّةً أن نُسرعَ في تَلبيَة نَداءِ المعلِّم إلى التَّلمَذة وهو يقولُ لكلٍّ منَّا: "اتبَعْني".

غرضُ التَّلمذةِ ومَنهَجُها

الغرضُ النهائيُّ في حياةِ كلِّ تلميذٍ هو أن يكونَ مُشابِهًا للسيِّد المسيح[١٣٤]، أو كما قال السيِّد: "يكفي التِّلميذَ أن يكونَ كمعلِّمِه".[١٣٥] وكما اشتَهى بولسُ الرَّسولُ أن يرى في أولادِه الروحيِّين (بحسب غلاطِيَّة ٣). لكنْ ما دُمنا نختَلفُ أحَدُنا عن الآخر من جهة شخصيَّاتِنا وخلفيَّاتِنا، فإنَّ المعلِّمَ يَضَعُ مَنهَجًا خاصًّا بكلِّ تلميذٍ منَّا طبقًا لنَوعِ شخصيَّتِه، وطبيعةِ عُيوبِه، ووَفقًا للغَرضِ الذي خُلِقَ من أجله. وهذا المنهَجُ مُكوَّنٌ من فصلَين رئيسَين:

- منهجٌ لتَفعيلِ الذَّاتِ الحقيقيَّة المخلوقة على صورة الله وشَبَهِه، والتي

---

١٣٤) رومية ٨: ٢٩.

١٣٥) متّى ١٠: ٢٥.

دبَّتِ الحياةُ في أوصالِها بالولادة الجديدة وسُكْنى الرُّوح القدس، ولنموّ هذه الذاتِ الحقيقيَّة واستِثْمارِ مواهبِها في الاشتراك مع الله في عَملِه، ثمَّ لإبراز جمالِ نِعمةِ الله فيها.

- منهجٌ لتَفكيكِ الذَّاتِ الزَّائفة وخَلْعِها لئلَّا تصيرَ زِنزانةً تحبِسُ فيها الذاتَ الحقيقيَّة، وتمنعُ نُموَّها وتجدُّدَها إلى صورةِ خالِقِها (بحسب كولوسّي ٣).

كيفيَّة تفعيل الذات الحقيقيَّة

لا أحَدَ منَّا يعرفُ ذاتَه الحقيقيَّة كما يعرفُها الله؛ فهو خالقُها، وهو مَن لديه التَّصميمُ الأصليُّ لها. تخيَّلْ قَصْرًا يُعدُّ تُحفةً مِعماريَّةً فخمةً بناه أحَدُ الملوك القُدماء، غير أنَّ مَن جاءوا بعدُه لاحقًا كانوا أشخاصًا لا يحترمون الجمالَ ولا قَوانينَ البِناء. وتعاقَبَ على القَصرِ حكَّام عديدون متنوِّعو الأذواق، غيَّرَ كلٌّ منهم مَعالمَ القصرِ حسبَ ذَوقه، ففقدَ القصرُ كلَّ جَمال. جاء أخيرًا حاكمٌ راقٍ أرادَ أن يُعيدَ القصرَ إلى سابِقِ عَهْدِه من الفخامة والجمال. فما أوَّلُ أمرٍ سيُفكِّرُ فيه يا تُرى؟ نظنُّ أنَّ من المحتَّم عليه أن يبحثَ عن التصميم الأصليِّ لهذا القصر، أو ما يُسمَّى في قوانين البناء العالميَّة "النسخة الزرقاء" (Blue Print). والأمرُ ذاتُه ينسحبُ على النَّفسِ البَشَريَّة؛ حيثُ إنَّها أَروَعُ ما خرجَ من يَدِي الخالق، وهو وَحدَه الذي يملكُ تصميمَها الأَصليَّ. لذا ليس هناك رجاءٌ لاستِعادة رَونَقِها وفاعليَّتِها وجمالِها دونَ العَودةِ إليه.

عندما نرجعُ إليه ونُعطيه السيادةَ على حياتنا، سنَكتَشفُ أنَّه يستعملُ سلطانَه لِيَضعَنا في أوضاعٍ خاصَّةٍ تفجِّرُ مَواهِبَنا وتكشفُ لنا ذواتنا، والنتيجةُ أنَّنا سنعرفُها على نحوٍ أفضل. إنَّه يوفِّرُ لها كلمته الحيَّة، فالنَّفس مُصمَّمةٌ أصلًا أنْ لا

تحيا بالخبزِ وَحدَه، كما يوفِّرُ لها العلاقاتِ والضِّيقاتِ والإحساناتِ وكلَّ ما يَلزمُ لتَتَكشَّفَ مَعالمها وتحقِّقَ غايتَها، وهنا يَصِلُ الإنسانُ إلى أقصى متعةٍ وُجوديَّة.

كيفيَّةُ تَفكيك الذات الزائفة

لا يكفي في النُّموِّ الروحيِّ توكيدُ ما هو حقيقيٌّ، وارتداءُ ما هو جديد؛ لأنَّ الأمرَ يحتاجُ بصورةٍ أقوى إلى تفكيك الزائف وخَلْعِه لئلَّا يصيرَ سِجنًا يُحبَسُ فيه ما هو حقيقيٌّ، فلا ينمو ولا يتجدَّدُ إلى صورةِ السيِّدِ المسيح. وهناك طريقان لهذا:

أوَّلًا: تفكيكُ المعتَقَداتِ المحوريَّة الخاطئة.

فإذا تخيَّلنا أنَّ الذاتَ الزائفةَ مثل شجرةٍ نَمَتْ بمرور السنين وتضخَّمَتْ، وراحتْ تطرحُ باستمرارٍ ثمرَها المرَّ الذي يؤذينا ومَن حولَنا. وإذا تصوَّرنا أنَّنا نريدُ إماتَتَها- كما يأمرُ الكتابُ المقدَّس في كولوسِّي ٣: ٥- والتخلُّصَ منها بطرحها (كما في كولوسِّي ٣: ٨)، فإنَّ من الجهل أن نكتَفيَ بنَزْع أغصانِها أو حتَّى كَسْرِ ساقِها؛ إذ لا بدَّ من نَزْع جذورِها وخَلعِها من الأرض. ونرى أنَّ جذورَ الذات الزائفة التي يتحتَّم اقتلاعُها هي المعتَقداتُ المحوريَّةُ الراسخة في الثقافة التي نعيش في كَنفِها، وفيها تتكوَّنُ عقولنا، فهي العقلُ السائد أو المكوَّن بلغة لالاند[١٣٦]، وبها نفكِّرُ ونقرِّرُ ونختار أيضًا. ولكي تُفكَّكَ هذه المعتقدات، فإنَّنا نحتاجُ إلى ثلاثة أُمور:

- استنارةٍ روحيَّة من كلمة الله من خلال علاقتنا الشخصيَّة بالله وكلمتِه، وما نتعلَّمه من بقيَّة إخوتنا في جسد المسيح.
- علاقةٍ شفَّافةٍ وصريحة طابعُها النِّعمةُ والحقُّ مع بقيَّة المؤمنين، لنُساعدَ

---

١٣٦) هناك عقل مكوِّن (بكسر الواو) وهو واحدٌ بالنِّسبة إلى كلِّ البشر، وعقلٌ مكوَّن (بفتح الواو) تكوِّنُه الثَّقافة التي نعيش فيها. وأوَّلُ مَن وَضَعَ هذا المفهومَ هو عالم الاجتماع الفرنسيُّ لالاند (Lalande).

بعضنا بعضًا على اكتشافِ مُعتَقَداتِنا الخاطئة وتَفكيكِها.

- مُعامَلاتٍ إلهيَّةٍ خاصَّة، حيثُ يَستَعملُ اللهُ سلطانَه في استغلال مواقفِ الحياة الطبيعيَّة اليوميَّة ليكشفَ لنا فشلَنا الناجم عن هذه المعتقدات، وليُساعِدَنا على رفضِها والتخلُّصِ منها، وهذا ما فعلَه كثيرًا مع بطرس كما سنرى لاحقًا في هذا الفصل.

ثانيًا: العيشُ في مُناخٍ مُضادٍّ للزَّيف.

من جانبٍ آخَر؛ ولكي نَضْمَنَ عَدَمَ ظُهورِ هذه الشَّجرةِ ثانيةً مِثل زَرعٍ شَيطانيٍّ داخلَنا بسببِ وُجودِ بَعضِ بُذورِه كامنةً فينا، نحتاجُ بشدَّةٍ لأنْ نحفَظَ أنفسَنا في مُناخٍ قاتلٍ لها، ولا يسمحُ البتَّة بنُموِّها. ويُسمّي بولسُ الرَّسولُ هذا المُناخ بعبارات: "في الرُّوح" و"بالرُّوح" و"حسب الرُّوح". وهو ببساطة كلُّ مجالٍ يعمَلُ فيه الرُّوح القدس حيثُ يكونُ السيِّدُ المسيحُ هو المركَزَ وليس الأَنا. أمَّا كلُّ مُناخٍ يغذِّي مَركَزيَّة الأنا، حتَّى لو كان الكنيسةَ أو الخدمة، فهو مُناخٌ خالٍ من عمل الرُّوح، ومناسِبٌ تمامًا لنُموِّ شَجرةِ الزَّيف.

إذًا يُبنى مَنهَجُ تَفكيك الذَّاتِ الزَّائفة وإماتَتِها وخَلْعها في عمليَّة التَّلمذة على اكتشاف المعتقدات المحوريَّة وتفكيكها من جانب، وعلى حِفْظِ ذواتنا الحقيقيَّة في الروح من جانب آخر.

بطرُس ومَنهَجُ تَلمَذتِه

أوَّلًا: تفعيلُ الذات الحقيقيَّة

كانَتِ الذَّاتُ الحقيقيَّة لبُطرُس، كما صدرَتْ في طَبعتِها الأصليَّة، مجبولةً بحيثُ

تكونُ قِياديَّةً. ومن الجميل والمشجِّع لنا أن نرى أنَّ الربَّ وفَّرَ لبُطرُس كلَّ ما يَدعمُ هذه السِّمة ويبرزُها فيه منذ اليوم الأوَّل لتَلمَذته!

بدأ الأمرُ باختِيارِ اسمٍ جديدٍ له، ووصلَ إلى إعطائِه مسؤوليَّةَ مَفاتيح مَلكوتِ السموات! وحتَّى اليوم يلجأُ الكثيرُ من القادةِ العِظام إلى هذا الأسلوبِ في تحفيزِ أحَدِ مرؤوسيهم عندما يَضَعون على عاتقه مَهمَّةً مُعيَّنة، إذ يُعطونَه اسمًا جديدًا يجسِّدُ طبيعةَ هذه المَهمَّة التي أوكلوها إليه. وكم من لاعبٍ، مثلًا، كان للاسم الذي أعطاه إيَّاه المدرِّب فعلَ السِّحر في نفسه؛ إذ عاشَ بمستوى الاسم الذي أخذَه بسببِ ثِقةِ المدرِّب به.

هذا ما فعلَه السيِّدُ المسيحُ عندما أعطى سِمْعانَ اسمَ صفا، والذي تفسيره بطرس أي صخر، أو جزءٌ من صخرة (بحسب يوحنَّا ١). بهذا ملأ ذِهنَه بمعاني القوَّةِ والثَّباتِ والصَّلابةِ التي يوحي بها اسم "صخر"، وهي أمورٌ سيحتاجُ إليها بُطرُس بشدَّةٍ في خدمته المستقبليَّة، كما أعلن له الربُّ في لوقا ٢٢: ٣٢ ليُثَبِّت إخوته، كما أنَّها تَبرهَنَتْ بقوَّةٍ في الأصحاحات الاثنَي عشر الأولى من سفر الأعمال.

كان هذا مجرَّدَ مَثَلٍ على رَوعَةِ المعلِّم وهو يُفعِّلُ ذاتَ بطرس الحقيقيَّة كَونَه قائدًا مِقدامًا، ويمكنُ لنا أن نتجوَّلَ ما بين صفحاتِ الأناجيل الأربعة لكي نرى الكثيرَ والكثيرَ من المواقف التي توضِحُ وتؤكِّدُ حِرْصَ المعلِّم على تَوكيدِ شخصيَّة بطرس بصفته قائدًا.

ثانيًا: تفكيكُ الذات الزَّائفة وخلعُها

في ضَوء ما ذُكرَ سابقًا عن حتميَّة تفكيكِ المعتقداتِ المحوريَّة وكيفيَّة ذلك، نتوقَّفُ عند معتقدٍ محوريٍّ خاطئ كان يشكِّلُ العَمودَ الفِقْريَّ لذاتِ سِمْعانَ الزائفةِ وهو: أنا الأفضل!

لا يخفى على قارئ البشائر الأربع المدقّق أنَّ بُطرُسَ كان يشعرُ بتَفَوُّقه وأفضليَّتِه على بَقيَّةِ التلاميذ، بل إنَّه عبَّرَ عن هذا صراحةً في مرقس ١٤: ٢٩-٣١. فمِن أينَ جاءَ هذا المعتقد؟ مع أنَّه ليسَتْ لدَينا مُعطَياتٌ عن نشأتِه وكيفيَّة تَربيَتِه لنَعرفَ منها كيف تكوَّنَ عندَه هذا المعتقد الخاطئ- والذي ثَبَتَ بالبُرهان القاطع زَيفُه ولا سيَّما عند الصليب- فإنَّه يمكنُنا أن نَستَنتجَ بعضَ الأمورِ من قراءتنا لبَقيَّة جوانبِ شخصيَّته، ومن معرفة الثقافة التي نشأ في ظلِّها.

لقدِ التَقَتْ شخصيَّتُه القياديَّةُ مع ثقافةٍ ترى أنَّ ما جعلَ القائدَ قائدًا هو كَونُه الأفضل! استقرَّت الفكرةُ القائلةُ إنَّ "القيادة تَعني الأفضليَّة" عميقًا في كِيان بُطرُس. بل يَبدو أنَّه مع كلِّ مرَّةٍ كانَتْ ذاتُه الحقيقيَّة تكشِفُ شيئًا عن مَلَكاتها القياديَّة؛ أو مع كلِّ مرَّةٍ فيها يصدِّقُ الربُّ على شخصيَّته القياديَّة، كان يتعمَّقُ لديه الشُّعورُ بأنَّه أفضَلُ من باقي التلاميذ، وإلَّا لما جعلَه الربُّ قائدًا! إنَّ هذا المعتقدَ الخاطئَ هو الضدُّ تمامًا لفِكْرِ الله الذي علَّمَ به السيِّدُ المسيحُ: أنَّ القائدَ قائدٌ لأنَّه "يخدم".

في ١٩٧٠م، أصدرَ روبرت غرينليف (Robert Greenleaf) كتابَه "الخادم بصفته قائدًا"[137]، والذي أحدَثَ ضَجَّةً في عالم الإدارة وقتَها، وفيه وضَعَ تعبير "القيادة بالخدمة" (Servant Leadership). لقد ظلَّ غرينليف على رأس شركة الاتِّصالات العملاقة إيه تي آند تي (AT&T) مدَّةَ ٣٨ سنة عندما كانَتْ من كُبرَيات الشركات في العالم. كانتْ فكرةُ القيادةِ بالخدمةِ جديدةً وصادِمةً للعالم آنذاك، أمَّا الآن فصارَتْ أمرًا شائعًا، ولا سيَّما بعد أنْ أسَّس غرينليف المعهدَ الدوليَّ للقيادة

137) *Servant Leadership: A Journey into the Nature of Legitimate Power and Greatness.*

بالخدمة في وست فيلد إنديانا بالولايات المتحدة، حيث يُدرِّبُ المديرون والرؤساء التنفيذيُّون في كُبرياتِ الشركات على هذا النَّوع من القيادة.

والمفهومُ الأساسيُّ الذي يُبنى عليه هذا الأسلوبُ من القيادة هو أنَّ الخادمَ القائدَ هو خادمٌ أوَّلًا، وهذا يختلفُ تمامًا عن شخصٍ هو قائدٌ أوَّلًا.

لم يكُنِ العالمُ محتاجًا لأنْ ينتظرَ حتَّى عام ١٩٧٠م ليتعلَّمَ هذه الحقيقة، لو قَبِلَ تعليمَ السيِّد المسيح عن القيادة في الإنجيل. لقد وقعَتْ المشاجَرةُ ما بين التلاميذ بسبب نقاشِهم حولَ مَن يكونُ الأعظم، حيث تمحوَرَ النقاشُ حول الأعظم، أي مَن سيكونُ القائدُ بينهم، لرُسوخ هذا المفهوم في أذهانهم. فكان ردُّ المعلِّم بالقَولِ: "إِذَا أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَكُونَ أَوَّلًا، فَيَكُونُ آخِرَ الكلِّ وَخَادِمًا لِلْكُلِّ".[١٣٨] إنَّ هذا المفهوم ليس مَفهومًا مثاليًّا لا يمكنُ تَحقيقُه، كما يظنُّ البعض، بل هو في الحقيقة واقعيٌّ وطبيعيٌّ جدًّا، إذا أمْعَنَّا في النظر فيه، وأخْلَصْنا النيَّة في البحث عن الخير الحقيقيِّ للجميع. ولا يمنعنا من رؤية هذا إلَّا شَهوةُ التسلُّط، بلِ الرغبة المريضة في التألُّه.

إنَّ نظرةً واحدةً بِعُمقٍ إلى الكَون تكفي لتوضحَ مَفهومَ القيادة بالخدمة. انظُرْ مَن يكونُ القائد الأعظم في هذا الكون. هو الخالقُ نفسُه بلا جدال. ولماذا هو القائد؟ لأنَّه ببساطةٍ الخادمُ الأعظم لهذا الكَون وكائناته! لا يكفُّ الخالقُ لحظةً عن خِدمةِ كلِّ مخلوقاتِه، والعناية بكلِّ احتياجاتها، بَدءًا من حِفْظِ الأرض في مدارها[١٣٩]، ونهايةً بتَهيئَة الطَّعام لِفراخ الغربان عندما يصعَدُ نعيبُها إلى الله.[١٤٠] ونقولُ واقعيٌّ جدًّا؛ لأنَّه مَهْما امتلأَ المتسلِّط بِوَهمِ أنَّه القائد، سنجدُ أنَّ الذي يقودُ فعلًا هو الخادم.

---

١٣٨) مرقس ٩: ٣٥.

١٣٩) أيوب ٣٨: ٤-٥.

١٤٠) أيوب ٣٨: ٤١.

أرادَ الأديبُ الألمانيُّ هيرمان هس (Hermann Hess)، أن يوضحَ هذه الحقيقةَ الواقعيَّة، فكتبَ قصَّةً رائعةً بعنوان "رحلةٌ إلى الشرق" (Journey to the East)، ونشرَها عامَ ١٩٣٢م. يكتبُ هس عن مجموعةٍ من الأصدقاء خرجوا مَعًا في رحلةٍ دينيَّةٍ أُسطوريَّة، واللَّافتُ للانتباه أنَّ الشخصيَّةَ المحوريَّةَ في هذه الرحلة هي الخادم ليو! كان ليو مسؤولًا عن أحقرِ الأعمال الخِدْميَّة التي يقومُ بها الخدم، إلَّا أنَّه كان يدعمُهم جميعًا ليس فقط بخدمته، بل أيضًا بروحه وأغانيه الشجيَّة، وكان له حُضورٌ طاغٍ!

سارَتْ أمورُ الرِّحلة على أكمَلِ وجه حتَّى اختفى ليو في أحوالٍ غامضة، فانْهارَ كلُّ شيء، وعمَّتِ الفَوضى، وتبعثرَتِ الجماعة. بعد عدَّة سنوات، وبالصدفة المحضة، عثرَ أحَدُ أعضاء هذه المجموعة على ليو. وبعد حديثٍ قصير، اصطحَبَه ليو إلى مجلس قيادة هذه الدِّيانة التي نظَّمَتِ الرحلة، وعندها اكتشَفَ العُضوُ هناك أنَّ ليو هو حاملُ لقبِ رأسِ هذا النظام، بل هو روحُه النبيلُ المحرِّكُ لكلِّ شيء فيه.

أين نَجِدُ سمعانَ بطرس من هذا المفهوم؟ للأسف، نشأ سمعانُ وترعرَعَ في مُناخ سياسيٍّ واجتماعيٍّ ودينيٍّ لا يعرفُ شيئًا عن معنى القيادة بالخدمة؛ فالقيادة عندهم- كما هي عندنا في الشرق اليوم- زعامةٌ وتسلُّط. قال لهم المعلِّم هذه الكلمات وهو يُبصِّرُهم بهذه الحقيقة، ويفتح عيونهم لكي يروها:

> "أنتُم تَعلَمونَ أنَّ الذين يُحسَبون رؤساءَ الأُمم يسودُونهم، وأنَّ عُظماءَهُم يتسلَّطُونَ عليهم. فلا يكُونُ هكذا فيكُم. بل مَن أرادَ أن يَصيرَ فيكُم عظيمًا يكونُ لكُم خادمًا. ومَن أرادَ أن يَصيرَ فيكُم أوَّلًا يكونُ للجَميع عبدًا. لأنَّ ابنَ الإنسان أيضًا لم يأتِ ليُخدَمَ بل ليَخدِمْ وليَبذِلَ نفسَه فِديَةً عن كثيرين".
>
> (مرقس ١٠: ٤٢-٤٥)

مُناخ سياسيٍّ واجتماعيٍّ ودينيٍّ لا يعرفُ شيئًا عن معنى القيادة بالخدمة؛ فالقيادة عندهم- كما هي عندنا في الشرق اليوم- زعامةٌ وتسلُّط. قال لهم المعلِّم هذه الكلمات وهو يُبصِّرُهم بهذه الحقيقة، ويفتح عيونهم لكي يروها:

"أنتُم تَعلَمونَ أنَّ الذين يُحسَبون رؤساءَ الأُمم يسودُونهم، وأنَّ عُظماءَهُم يتسلَّطُونَ عليهم. فلا يكُونُ هكذا فيكُم. بل مَن أرادَ أن يَصيرَ فيكُم عظيمًا يكونُ لكُم خادمًا. ومَن أرادَ أن يَصيرَ فيكُم أوَّلًا يكونُ للجَميع عبدًا. لأنَّ ابنَ الإنسان أيضًا لم يأتِ ليُخدَمَ بل ليَخدِمْ وليَبذِلَ نفسَه فِديَةً عن كثيرين".

(مرقس ١٠: ٤٢-٤٥)

لقد حاوَلَ الربُّ أن ينزعَ منهم بالتَّعليم، ولا سيَّما بُطرس، مُعتَقَدَ القِيادة المتسلِّطة، كما حاولَ أيضًا أن يغرسَ فيهم مَفهومَ القيادةِ بالخدمة مُقدِّمًا نفسَه مثالًا، لكنَّهم لم يفهَموا، وكان لا بدَّ من الدُّخولِ في خِبراتِ فَشَلٍ تخلقُ كرهًا ورفضًا له.

وإليكُمْ تاليًا سبعةَ حوادِثِ فَشَلٍ من الأناجيل الأربعة مرَّ بها بُطرُس في علاقته بالسيِّد المسيح، قد تَبدو جميعُها لدى البعض مجرَّدَ مواقِفَ عاديَّةٍ قادَه حَظُّه العاثر إليها، وصادَفَه الفشلُ فيها. لكنَّنا نرى فيها يدَ المعلِّم القدير وحكمتَه في التلمذة، وإنْ بدَتْ فعلًا مواقفَ عاديَّة. قد لا يكون يسوعُ هو خالقَ الحالة التي وقعَتْ فيها، لكنَّه دونَ شَكٍّ كان مُسَيطرًا عليها وموجِّهًا لها لتُساعِدَ سمعان على اكتِشافِ أنَّه ليس الأفضل عبرَ فَشَلِه في مَناطِقِ تَفَوُّقِه.

سبعُ خبراتِ فشلٍ لدى بُطرس لتَفكِيكِ مُعتَقَد "أنا الأفضل":

١. خبرةُ فَشَلٍ من جِهةِ مهارته (لوقا ٥)

ربَّما ظنَّ بطرس أنَّ الربَّ اختارَه قائدًا لإخوته لأنَّه كان أمهَرَهم وأكثرَهم حِنكةً في

عندها دخلَ الربُّ سَفينةَ بُطرُس وسألَه أن يَبعدَ قليلًا عن البَرّ. ومن ثمَّة جلسَ في السفينة يعلِّم الجموعَ المحتَشِدةَ على الشاطئ. وبعد أن أنهى الربُّ تعليمَه النظريَّ للجُموع، كانَ عندَه درسٌ تعليميٌّ مهمٌّ يريدُ أن يعلِّمَه لبُطرس، فطلبَ منه أن يبعدَ هذه المرَّة إلى العُمْق، ويُلقِيَ هو وزملاؤه شباكَهم للصَّيد. كان هذا الطَّلَبُ غيرَ مناسبٍ، من وجهة نظر بطرس؛ فخِبرَتُه في الصَّيد تقولُ إنَّ هذا ليس موعِدَ صيد، ويأتي الطلبُ في وضعٍ غير مناسب البتَّة من جهة تعبهم الشَّديد نتيجة السَّهَر طَوالَ الليل، ولأنَّهم جابوا البُحَيرةَ طَوال الليل ولم يجدوا شيئًا، فالبُحَيرة إذًا خالية. والأعجبُ من هذا أنَّ الأمرَ جاء إلى جميع الصيَّادين أن يُلقوا شباكَهم بعدَ ليلةٍ خَلَتْ البُحَيرةُ فيها من السمك!

هنا عوَّلَ بطرسُ كثيرًا على خِبْرَته وراهَنَ بقوَّةٍ عليها، وكاد أن يرفضَ أمرَ المعلِّم، لكنَّه خجلَ أن يَعصى المعلِّم، فقرَّرَ أن يجعلَ الواقعَ يتكلَّمُ نيابةً عنه، فقال للسيِّد المسيح: "يا مُعلِّم، قد تَعِبْنا اللَّيلَ كلَّه ولَم نَأْخُذْ شَيئًا. وَلكِنْ على كَلِمَتِكَ أُلقي الشَّبَكَة". لقد كان واثقًا بأنَّهم لن يَجِدوا شيئًا، لذا أطاعَ طاعةً جُزئِيَّةً وألقى شبكةً واحدةً متيقِّنًا من خروجها فارغة، وسيَكونُ هذا أبلغَ رَدٍّ على المعلِّم الذي قد يعرفُ النِّجارة، لكنَّه لا يفهَمُ في الصَّيدِ مثله.

كانَتِ الصَّدمةُ مُذهلةً عندما بدأتْ الشبكةُ تتخرَّقُ من مقدارِ السمك الهائل الذي يكفي ليملأ عدَّة شباك، لا شبكةً واحدةً فقط، طبقًا لأمر خالقه! هنا خرَّ بُطرُس عند ركبتَيْ يسوعَ قائلًا له: "اخرُجْ من سَفينَتي يا رَبّ، لأَنِّي رَجُلٌ خاطئ". لقد صُدِمَ في نفسِه إذ عوَّلَ على خِبْرَته أكثرَ منه على أمْرِ الرَّبّ! وقد أدرَكَ أنَّه أمامَ الربِّ وليس مجرَّد مُعلِّم كما في عبارته وتوجُّهِه السابقَين.

لم يكُنِ اختيارُ الربِّ لهذه البقعة صِدفةً، ولم يكُنِ الفشلُ في الصَّيد صِدفة

أيضًا، ولم يكُنْ صَيدُ السَّمك الكثير صِدفة كذلك. كان كلُّ الموقفِ مُرتَّبًا بعِنايةٍ فائقة ليَصِلَ بطرسُ إلى معرفةِ حقيقةِ نفسِه وحقيقةِ ربِّه، ولكي يتعلَّمَ أيضًا أن يتَّكلَ على أمرِ الربِّ في قراراته وقيادته لإخوته، بدلَ أن يتَّكلَ على خبرته.

سيَقودُ لا لأنَّه الأفضل خبرةً، بل لأنَّه أطاعَ الرَّبّ. كان ردُّ الربِّ بَديعًا: "لاَتَخَفْ! منَ الآنَ تَكُونُ تَصْطَادُ النَّاسَ!" وهنا أكَّد الربُّ دعوَتَه التي لا يتراجَعُ عنها بسبب نَقْصِنا، بل يكمِّلُنا ليؤهِّلَنا لها. وهنا أيضًا أكَّدَ بطرس محبَّته وتبعيَّتَه للرَّبِّ إذ يقول الكتابُ المقدَّسُ عنه هو وزملاؤه: "ولَمَّا جاءوا بِالسَّفينَتَين إلى الْبرِّ تَركوا كلَّ شَيءٍ وَتَبِعُوه".

٢. خبرةُ فشلٍ من جهةِ معرفته (متَّى ١٦)

كانت الحلقة الثانية في تَدريبِ الربِّ لبطرس وتفكيك معتقده الخاطئ خاصَّةً بإدراكه الروحيّ. وهنا يسمَحُ له الربُّ بخبرةِ فَشَلٍ أُخرى مؤلمةٍ جدًّا من جِهةِ فَهْمِه وإدراكه للأمور الروحيَّة. ونَجِدُ قصَّةَ هذا الفشل في متَّى ١٦: ١٣-٢٣.

كان الربُّ قد سألَ تلاميذَه: "مَن يَقولُ النَّاسُ إنِّي أَنَا ابنُ الإنْسان؟"، وبالتَّأكيد كانت إجاباتُ النَّاسِ جميعُها خاطئةً. فسألَ الربُّ ثانية: "وأَنتُم، مَن تَقولُونَ إنِّي أَنا؟" وهنا برزَ القائدُ بطرسُ وأجاب: "أَنتَ هوَ المسيحُ ابنُ الله الحيّ!" فأَثْنى السيِّدُ المسيح على إجابة بطرس ومدحَه بالقَول: "طُوبَى لَكَ يَا سِمْعانُ بنَ يُونا، إنَّ لَحمًا ودَمًا لَم يُعلِنْ لَكَ، لكنَّ أَبي الَّذي في السَّمَاوَات". هنا نكادُ نشعرُ ببُطرس ملآنًا بالفَخْر، حيثُ وجَدَ مُبَرِّرًا جديدًا لشُعورِه بالأفضليَّة، لا سيَّما أنَّ الربَّ أعطاه بعدَها مباشرةً إعلانًا آخر عن الكنيسة، بل أعطاه مفاتيحَ مَلَكوت السموات.

لكنْ سرعانَ ما فجَّرَ الربُّ مفاجَأةً يبدو للوهلة الأولى أنَّها ليسَتْ في مناسَبَتِها؛

فالحالةُ النفسيَّةُ عاليةٌ عند الجميع، والمشاعرُ متأجّجةٌ بالفَرَح عند بطرس بسبب الإعلانَين اللَّذين أدركَهُما للتَّوّ، والمفاتيح التي تسلَّمَها. والمفاجأةُ هي أنَّ الربَّ نَقَلَهُم إلى مُناخٍ نفسيٍّ مختلفٍ تمامًا إذ يقول إنَّه: "يَنْبَغِي أَنْ يَذهَبَ إِلَى أُورُشَليمَ ويتألَّمَ كثيرًا منَ الشُّيوخِ ورُؤساءِ الكَهَنةِ والكَتَبة، وَيُقْتَلَ، وَفِي اليَوم الثَّالثِ يَقُوم".

هوى الخبرُ عليهم كالصَّاعقة. ارتَبَكوا وصَمَتوا، لكنَّ بطرس، المزهوَّ بإدراكه ومعرفته العميقَين بالأمور الروحيَّة، لم يستطع الصمت، فراحَ يُصحِّحُ للسيِّد المسيح أفكارَه! فيقولُ الإنجيل: "فَأَخَذَهُ بُطْرسُ إِلَيه وَابتدَأَ يَنْتَهرُه قَائلًا: «حاشاكَ يا رَبّ! لا يَكُونُ لَكَ هذَا!»". وهنا كشفَ الربُّ عن قَصْدِه من وراء طَرْحِه لهذا الخبر في ذلك الوقت بالتحديد: أنَّه يريدُ أن يفكَّكَ هذا المعتقد الخاطئ عنده، وذلك بسبب محبَّتِه لتلميذه الغالي. فهنا كشفَ لبُطرسَ أمرًا مهمًّا: أنَّه إذا كان يستقبلُ إعلاناتٍ من الآب والابن، فإنَّه يستَقبلُ أيضًا أفكارًا من إبليس!

يقولُ الكتابُ المقدَّسُ عن يسوع: "فَالْتَفَتَ وَقَالَ لِبُطرُس: «اذهَبْ عنِّي يا شَيطان! أنتَ مَعثَرةٌ لي، لأنَّكَ لا تَهتَمُّ بِما للهِ لكِنْ بما لِلنَّاس»". دون شكّ، كان ذلك صَدمةً كبيرةً لبطرس، بل ضربةً كُبرى لكِبريائه وشعورِه بأنَّه الأفضل. فها هو الربُّ يكشفُ له أنَّه لا يميِّزُ بين ما يُعلنُه الآبُ، وما يتكلَّم به إبليس!

يمكنُنا تصوُّرُ مَنظَرِه أمامَ التَّلاميذ خَجِلًا مُطَأْطِئَ الرأس، ويَسعُنا أيضًا أن نقارِنَ هذا المنظرَ بما كان عليه منذ دقائقَ، فنرى عَظَمةَ المعلِّم وهو يُتلمِذُ محبوبَه.

٣. خبرةُ فشلٍ من جهة رؤيَتِه (مرقس ٩)

كانَتْ خبرةُ الفَشَل الثالثةُ خاصَّةً برؤيته وقراءَتِه للمَواقف المختلفة. لا شكَّ أنَّها صفةٌ لا بدَّ من توافُرِها في كلِّ قائدٍ ناجح، أعني القراءةَ الصَّحيحةَ اللَّازمةَ لاتِّخاذِ

القرار المناسِب لكلِّ مَوقف. لا يُستَبعَدُ من قراءة ما ذكرَه العهدُ الجديد عن بطرسَ أنَّه كان يشعرُ في أعماقِه بأنَّه أفضلُ من بَقيَّةِ إخوَتِه؛ لأنَّه يقرأُ المواقفَ قراءةً صحيحةً تمكِّنُه من اتِّخاذ القرار المناسب. لذا سمحَ الربُّ في بعض المواقف أن يَظهَرَ فشلُه في قراءةِ الموقف ليَتَفكَّكَ معتقدُه الخاطئ. وسنكتَفي بموقفِه على جبل التجلِّي كما سجَّله ابنُه في الإيمان ومترجمُه الخاصُّ مرقس في إنجيله:

"وقالَ لهُمُ: «الحقَّ أقُولُ لكُم: إنَّ من القِيام هَهُنا قَومًا لا يذُوقونَ الموتَ حتَّى يَرَوا مَلكوتَ الله قد أتى بقُوَّة». وبعد ستَّةِ أيَّام، أخَذَ يسوعُ بُطرُسَ ويعقُوبَ ويوحنَّا، وصَعِدَ بهم إلى جبلٍ عالٍ مُنفَرِدين وحدَهُم. وتَغيَّرتْ هَيئتُه قُدَّامهُم، وصارَتْ ثيابُه تلمَعُ بَيضاءَ جدًّا كالثَّلج، لا يقدرُ قصَّارٌ على الأرض أن يُبيِّضَ مثل ذلك. وظهرَ لهم إيليَّا مع مُوسى، وكانا يتَكلَّمان مع يسوع. فجعلَ بُطرسُ يقولُ ليسُوع: «يا سيِّدي، جَيِّدٌ أن نكُونَ هَهُنا. فَلْنَصنعْ ثلاثَ مَظالَّ: لكَ واحدةً، ولموسى واحدةً، ولإيليَّا واحدة». لأنَّه لم يكُن يعلَمُ ما يتكلَّمُ به إذ كانُوا مُرتَعِبين. وكانَتْ سحابةٌ تُظلِّلُهم. فجاءَ صَوتٌ من السَّحابة قائلًا: «هذا هو ابني الحبيب. له اسمعُوا». فنَظَروا حَولَهم بغتةً ولم يَرَوا أحَدًا غيرَ يسُوعَ وحدَه معهُم".

(مرقس ٩: ١-٨)

من هذا النصِّ تتَّضحُ ثلاثةُ أُمور:

- **أوَّلًا**، تقديرُ الربِّ الخاصُّ لهؤلاء الثلاثة لاختيارهم ليَكونوا شهودًا لمجدِه، وإكرامه لهم بأن يَرَوا مسبَّقًا مجدَه في ملكوته المستَقبَلِيّ. بالتَّأكيد، كان المنظرُ مُرهِبًا ومجيدًا، ولا سيَّما بعد حضور موسى وإيليَّا واندماجهما في

حديثٍ خاصٍّ مع الرَّبّ، وهو ما كتبَ عنه بطرسُ بعد نحو ثلاثين سنةً.[١٤١]

- **ثانيًا**، لم يكن من المناسب أبدًا أن يتدخَّلَ بطرسُ في هذا الموقف ليَقترحَ مدَّةَ وُجودِهم على الجبل ويرتِّبها ويقرِّرَها، وما الذي ينبغي أن يُفعل أو لا يُفعل. فالربُّ هنا في وَضعِه الملكيّ، ويوجَدُ ضيوفٌ سماويُّون على أعلى مستوى في حديثٍ خاصٍّ مع الملك فقط، ولم يدعُهم الربُّ للاشتراك في الحديث، كما أنَّ أصلَ الدَّعوة هو لكي يَرَوا فقط ويكونوا في ما بعد شهودَ عِيان (كما يتَّضح من العدد الأوَّل). ومن ثمَّة، لم يكُنْ من اللَّائق أن يتدخَّلَ بطرسُ ليَقرِّرَ ويرتِّبَ أو حتَّى يقترح. لكنَّه فعلَ ذلك، فرأى أنَّ من الجيِّدِ أن يَستَمرُّوا على الجبل ولا ينزلوا إلى الوادي! واقترح أن يصنَعوا ثلاثَ مَظالَّ لكي يستَمرُّوا فوق الجبل أطوَل مدَّةٍ ممكنة. وهذا ما علَّق عليه مرقس بالرُّوح القدس بقَوله: "لأنَّه لم يَكُنْ يَعلَمُ ما يَتَكلَّمُ به".
- **ثالثًا**، من الواضح أنَّ هناكَ علاقةً مُباشِرةً ما بين كلام بطرسَ وتَصرُّفِ السماء الفوريّ؛ إذ أنهَتْ على الفَورِ المشهدَ، وسحبَ الله الآبُ موسى وإيليَّا وأعلنَ عن المجد الملكيِّ ليَسوع بِصَوتٍ مسموع قائلًا: "هذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ. لَهُ اسْمَعُوا". ونستَنتجُ من هذا التصرُّف أنَّ الآبَ اعترضَ على قراءةِ بطرس الخاطئة للموقف، إذِ ارتأى في نفسه أن يُقرِّرَ بينما الملكُ مَوجود! فأجابت السماء بالقَول: "له اسمعوا" وليس له قرِّروا أو اقتَرِحوا. ونكادُ نجزمُ أنَّ الآبَ لم يَكُنْ مَسرورًا بأن يجمَعَ بطرسُ السيِّدَ المسيحَ مع موسى وإيليَّا.

---

١٤١) ٢بطرس ١: ١٦-١٨.

يقينًا أنَّ بطرسَ نزلَ من الجبل شاعرًا بالخَجَلِ من اقتراحِه، وربَّما لم يُفلِتْ من بعض اللَّوم من زميلَيه على قراءَتِه الخاطئةِ للموقف وتصرُّفه غير المناسب. ولا نشكُّ أنَّ هذا الموقفَ تركَ في أعماقِ بطرسَ أثرًا ساهمَ في تفكيكِ هذا المعتقد الزائف.

٤. خبرة فشل من جهة إجاباته (متَّى ١٧)

كانت خبرةُ الفشل الرابعةُ لتَفكيك معتقده الزائف خاصَّةً بسرعةِ إجاباته. لا شكَّ أنَّ القائدَ الناجحَ يحتاجُ إلى سرعةِ البديهة ليُجيبَ بسرعةٍ عمَّا يوجَّهُ إليه من أسئلة. وربَّما كان بطرسُ يستَشعرُ في أعماقه أنَّه الأفضل بسبب هذه الملكة، لذا تطلَّبَ أن يُجيزَه الربُّ في خبرةِ فَشَلٍ مخجِلة من جهة إجاباته؛ فالقضيَّةُ الأهمُّ تتعلَّقُ بصحَّةِ الإجابات لا سرعتها، فما قِيمةُ إجابةٍ سريعةٍ لكنَّها غيرُ صحيحة؟

في متَّى ١٧: ٢٤-٢٧، نقرأ قصَّةً أتى فيها أشخاصٌ يأخذون ضريبةَ الدِّرهمَين، وطرحوا سؤالًا على بطرسَ، وأجابَهم إجابةً خاطئة. ويقولُ متَّى:

"ولَمَّا جاءُوا إلى كَفْرَناحومَ، تَقدَّمَ الذينَ يَأْخُذونَ الدِّرهَمينِ إلى بُطرُسَ وقَالوا: «أَمَا يُوفي مُعلِّمُكُمُ الدِّرْهَمَيْنِ؟» قالَ: «بَلَى»".

كان من الأفضَلِ لبُطرسَ أن يُحيلَ السَّائلينَ إلى المعلِّم ليُجيبَ بالأصالةِ عن نفسه، لكنَّ ثقتَه بأنَّه يستطيعُ الإجابةَ دفعَتْه لأنْ يُجيبَ بسرعةٍ، وكانت إجابتُه غيرَ دقيقة، وترتَّبَ عليها أنَّهم طالَبوه بالدَّفع.

دخلَ بطرسُ البيتَ- ولا نستَبعدُ إحساسَه بالوَرطة التي وضعَ نفسَه فيها- لكي يطلُبَ من يسوع الدَّفع. وهنا برزَتْ بِقوَّةٍ حكمةُ السيِّد المسيح ورِقَّتُه تُجاهَ

تلميذه في التّعامل مع الخطأ، كما برزَتْ أيضًا محبَّتُه للنُّفوس وحِرصُه على عدم إعثارهم. يقول الكتاب المقدَّس:

"فلمَّا دخلَ البَيتَ سبَقَه يسوعُ قائلًا: «ماذا تظُنُّ يا سمعانُ؟ ممَّن يأخُذُ مُلوكُ الأرضِ الجِبايةَ أو الجِزْيَة، أمِنْ بَنيهم أم من الأجانب؟» قال له بُطرُس: «من الأجانب». قال لهُ يسُوعُ: «فإذًا البنُون أحرارٌ. ولكنْ لئلَّا نُعثِرَهُم، اذهبْ إلى البَحرِ وألقِ صنَّارةً، والسَّمكةُ التي تطلُعُ أوَّلًا خُذْها، ومتى فتحْتَ فاها تَجِدُ إستارًا، فخُذه وأعطِهِم عنِّي وعنك»".

نلاحظُ في هذا النصّ أربعةَ أُمور:

- **أوَّلًا**، سبقَه يسوعُ ليُخبرَه بالواقعة التي لم يحضرها ليذكِّرَه بأنَّ معلِّمَه كُلِّيُّ العلم ولا يحتاج إلى مَن يجيبُ بالنيابة عنه.
- **ثانيًا**، اهتمَّ الربُّ بتَصحيح فِكْرِ بطرسَ من جِهةِ حُقوقِ المواطَنة وواجباتِها لكي تكونَ إجاباتُه في ما بعد صحيحةً.
- **ثالثًا**، يمكنُنا أن نستَنتجَ من كلام الربِّ وتعليمِه أنَّه قد يطلبُ منَّا في بعض المواقف أن نُضحِّيَ بحقوقِنا ونخضعَ لقانونٍ ظالم، ليس خُنوعًا ولا جهلًا بحقوقنا، بل من أجل غَرضٍ أسمى: أن نرفعَ أيَّةَ عثرةٍ يمكنُ أن تقفَ حائلًا أمام خلاصِ أيَّةِ نَفس.
- **رابعًا**، كان يمكنُ أن يخلقَ الربُّ إستارًا أو يستَدعيَه بطريقةٍ ما، وهو صاحبُ السلطان، لكنَّه اختارَ تلك الطريقةَ العجيبةَ تحديدًا لأنَّها حافلةٌ بالدُّروس، فلم يحدِّدِ الربُّ لبُطرسَ نقطةً معيَّنةً يذهبُ إليها لكي يُلقي صنَّارتَه؛ ولم يحدِّدْ له زمنًا لهذا الفعل، وفي الوقت نفسه حدَّد له بدقَّةٍ

أنَّها السمكةُ الأولى، وحدَّدَ نَوعَ العُملةِ التي سيَجدُها فيها، كما حدَّدَ مكانَها، حيثُ أخبرَه بأنَّه سيَجِدُ إستارًا في فَمِها!

لم يكنْ بُطرسُ قد أفاقَ بعدُ من دَهشَتِه إذ وجدَ نفسَه في حضرةِ كلِّيِّ العلم الذي يُناقشُه في واقعةٍ لم يحضُرْها، وإذ به يتلقَّى هذا الأمرَ الذي يؤكِّدُ أنَّه يَمْثُلُ في حضرة كلِّيِّ السُّلطان! ويمكنُ تصوُّرُ أنَّه كان يَسيرُ شاردًا في شوارع كفرناحوم سواءٌ في طريقِه إلى البيت ليُحضِرَ الصنَّارة، أم في طريقه إلى البحر ليَلتَقِيَ السمكةَ التي تنتظرُ مجيئَه. ربَّما كان مُستَغرقًا في ما حدث وما سمع وما هو عتيدٌ أن يرى، ثمَّ راحَ يراجعُ نفسَه وهو يجيبُ بالنِّيابة عن كلِّيِّ العِلْم، الذي وافقَ على دَفعِ الجباية وهو كلِّيُّ السلطان!

لا بدَّ أنَّه شعرَ بحماقةِ إجابتِه، وامتلأَ بالغَيظ من نفسِه، وفي أثناء ذلك، كان المعتقدُ الزائفُ أنَّه الأفضل يتخَلْخَلُ بل يتفكَّكُ لديه. إلَّا أنَّه يَهدأ ويطمئنُّ إذ يتذكَّرُ رقَّةَ المعلِّم وحنانَه من نحوه، ويلمسُ نعمتَه الغامِرة من نحو الخطاة الذين يخشى إعثارهم.

٥. خبرةُ فشلٍ من جهةِ حماسَتِه (يوحنَّا ١٣)

كانت الحلقةُ الخامسةُ في سلسلة تَعامُلاتِ الربِّ مع بُطرسَ لتفكيك معتقده الزائف خاصَّةً بحماسته الشديدة التي تَصِلُ إلى حدِّ التطرُّف أحيانًا.

لا شكَّ أنَّ القيادةَ تَستَلزمُ شيئًا من الحماسة، لكنَّ للحماسة مخاطرَها، كما أنَّها ليسَتْ هي ما تجعَلُ القائدَ قائدًا بحسب فكرِ السيِّد المسيح ومَنهَجِه، وهو الذي يؤكِّدُ دائمًا على أنَّ القائدَ قائدٌ لأنَّه يخدم. والحادثة التي برزَتْ فيها حماسةُ بطرس الزائدة، وتطلَّبُ الأمرُ من المعلِّم أن يضبطَها ويصحِّحَها هي حادثةُ غَسْلِ الأرجُل:

"أمَّا يسوعُ قبل عيد الفِصْح، وهو عالمٌ أنَّ ساعتَه قد جاءَتْ ليَنتقلَ من هذا العالم إلى الآب، إذ كانَ قد أحبَّ خاصَّتَه الذين في العالم، أحبَّهم إلى المنتهى. فحين كان العشاءُ، وقد ألقى الشَّيطانُ في قَلْبِ يهُوذا سمعان الإسخريُوطيِّ أن يُسلِّمَه، يسوعُ وهُو عالمٌ أنَّ الآب قد دفعَ كُلَّ شيءٍ إلى يَدَيه، وأنَّه من عند الله خرج، وإلى الله يمضي، قامَ عن العشاء، وخلعَ ثيابَه، وأخذَ مِنشفَةً واتَّزرَ بها، ثُمَّ صبَّ ماءً في مِغْسَل، وابتدأ يغسِلُ أرجُل التّلاميذ ويمسَحُها بالمنشفة التي كان مُتَّزرًا بها".[١٤٢]

كان الموقفُ صادمًا لكلِّ التلاميذ حينما رأَوا مُعلِّمَهم الجليلَ في ليلةِ آلامه يفعلُ هذا. عَقَدَتِ الدَّهشةُ ألسنَتَهم، وربَّما اجتاحَهم شعورٌ بالذَّنبِ لعَدَم تَطوُّع أَحَدِهم للقِيام بهذا العمل، أدَّى إلى تقييدِ حركَتِهم. لم ينبسْ أيٌّ منهم بكلمة، إلَّا أنَّ بُطرسَ لم يَصمِتْ؛ فمعتقدُه أنَّه الأفضل يجعَلُه لا يقبَلُ ما يَقبَلُه الآخرون، ويدفعُه لأنْ يتكلَّمَ حينَ يَصمِتُ الجميع.

أسقطته حماستُه في ثلاثةِ أخطاءٍ متتالية: استنكارٌ جاهل، ورَفْضٌ قاطع، وتَطرُّفٌ زائد. لا نَشُكُّ أنَّه نَدِمَ بعدَها لأنَّه تكلَّم، ولا أنَّه اغْتاظَ من حماسَتِه التي ورَّطَتْه في هذا الموقف. ويَصِفُ الكتابُ المقدَّسُ هذا الموقف بالقَول:

"فَجاءَ إلى سمعان بُطرس. فقالَ له ذاك: «يا سيِّد، أنتَ تغسِلُ رجليَّ!» أجابَ يسوعُ وقال لهُ: «لستَ تعلَمُ أنت الآن ما أنا أصنعُ، ولكنَّكَ ستَفهمُ فيما بعدُ». قال له بُطرُس: «لن تغسلَ رجليَّ أبدًا!» أجابَه يسوعُ: «إنْ كنتُ لا أغسلُك فليس لكَ معي نصيبٌ». قالَ له سمعانُ بُطرُس: «يا

١٤٢) يوحنّا ١٣: ١-٥.

أنها السمكةُ الأولى، وحدَّدَ نَوعَ العُملةِ التي سيَجدُها فيها، كما حدَّدَ مكانَها، حيثُ أخبرَه بأنَّه سيَجِدُ إستارًا في فَمِها!

لم يكنْ بُطرسُ قد أفاقَ بعدُ من دَهشَتِه إذ وجدَ نفسَه في حضرةِ كلِّيِّ العلم الذي يُناقشُه في واقعةٍ لم يحضُرْها، وإذ به يتلقَّى هذا الأمرَ الذي يؤكِّدُ أنَّه يَمثُلُ في حضرة كلِّيِّ السُّلطان! ويمكنُ تصوُّرُ أنَّه كان يَسيرُ شاردًا في شوارع كفرناحوم سواءٌ في طريقِه إلى البيت ليُحضِرَ الصنَّارة، أم في طريقه إلى البحر ليَلتَقِيَ السمكةَ التي تنتظرُ مجيئَه. ربَّما كان مُستَغرقًا في ما حدث وما سمع وما هو عتيدٌ أن يرى، ثمَّ راحَ يراجعُ نفسَه وهو يجيبُ بالنِّيابة عن كلِّيِّ العِلْم، الذي وافقَ على دَفعِ الجباية وهو كلِّيُّ السلطان!

لا بدَّ أنَّه شعرَ بحماقةِ إجابتِه، وامتلأَ بالغَيظ من نفسِه، وفي أثناء ذلك، كان المعتقدُ الزائفُ أنَّه الأفضل يتخَلْخَلُ بل يتفكَّكُ لديه. إلَّا أنَّه يَهدأ ويطمئنُّ إذ يتذكَّرُ رقَّةَ المعلِّم وحنانَه من نحوه، ويلمسُ نعمتَه الغامِرة من نحو الخطاة الذين يخشى إعثارهم.

٥. خبرةُ فشلٍ من جهةِ حماسَتِه (يوحنَّا ١٣)

كانت الحلقةُ الخامسةُ في سلسلة تَعامُلاتِ الربِّ مع بُطرسَ لتفكيك معتقده الزائف خاصَّةٌ بحماسته الشديدة التي تَصِلُ إلى حدِّ التطرُّف أحيانًا.

لا شكَّ أنَّ القيادةَ تَستَلزمُ شيئًا من الحماسة، لكنَّ للحماسة مخاطرَها، كما أنَّها ليسَتْ هي ما تجعَلُ القائدَ قائدًا بحسب فكرِ السيِّد المسيح ومَنهَجِه، وهو الذي يؤكِّدُ دائمًا على أنَّ القائدَ قائدٌ لأنَّه يخدم. والحادثة التي برزَتْ فيها حماسةُ بطرس الزائدة، وتطلَّبُ الأمرُ من المعلِّم أن يضبطَها ويصحِّحَها هي حادثةُ غَسْلِ الأرجُل:

"أمَّا يسوعُ قبل عيد الفِصْح، وهو عالمٌ أنَّ ساعتَه قد جاءَتْ ليَنتقلَ من هذا العالم إلى الآب، إذ كانَ قد أحبَّ خاصَّتَه الذين في العالم، أحبَّهم إلى المنتهى. فحين كان العشاءُ، وقد ألقى الشَّيطانُ في قَلْبِ يهُوذا سمعان الإسخريُوطيِّ أن يُسلِّمَه، يسوعُ وهُو عالمٌ أنَّ الآب قد دفعَ كُلَّ شيءٍ إلى يَدَيه، وأنَّه من عند الله خرج، وإلى الله يمضي، قامَ عن العشاء، وخلعَ ثيابَه، وأخذَ مِنشفَةً واتَّزرَ بها، ثُمَّ صبَّ ماءً في مِغْسَل، وابتدأ يغسِلُ أرجُل التّلاميذ ويمسَحُها بالمنشفة التي كان مُتَّزرًا بها".[١٤٢]

كان الموقفُ صادمًا لكلِّ التلاميذ حينما رأَوا مُعلِّمَهم الجليلَ في ليلةِ آلامه يفعلُ هذا. عَقَدَتِ الدَّهشةُ ألسنَتَهم، وربَّما اجتاحَهم شعورٌ بالذَّنبِ لعَدَم تَطوُّع أَحَدِهم للقِيام بهذا العمل، أدَّى إلى تقييدِ حركَتِهم. لم ينبسْ أيٌّ منهم بكلمة، إلَّا أنَّ بُطرسَ لم يَصمِتْ؛ فمعتقدُه أنَّه الأفضل يجعَلُه لا يقبَلُ ما يَقبَلُه الآخرون، ويدفعُه لأنْ يتكلَّمَ حينَ يَصمِتُ الجميع.

أسقطته حماستُه في ثلاثةِ أخطاءٍ متتالية: استنكارٌ جاهل، ورَفْضٌ قاطع، وتَطرُّفٌ زائد. لا نَشُكُّ أنَّه نَدِمَ بعدَها لأنَّه تكلَّم، ولا أنَّه اغْتاظَ من حماسَتِه التي ورَّطَتْه في هذا الموقف. ويَصِفُ الكتابُ المقدَّسُ هذا الموقف بالقَول:

"فَجاءَ إلى سمعان بُطرس. فقالَ له ذاك: «يا سيِّد، أنتَ تغسِلُ رجليَّ!» أجابَ يسوعُ وقال لهُ: «لستَ تعلَمُ أنت الآن ما أنا أصنعُ، ولكنَّكَ ستَفهمُ فيما بعدُ». قال له بُطرُس: «لن تغسلَ رجليَّ أبدًا!» أجابَه يسوعُ: «إنْ كنتُ لا أغسلُك فليس لكَ معي نصيبٌ». قالَ له سمعانُ بُطرُس: «يا

١٤٢) يوحنّا ١٣: ١-٥.

سيِّد، ليس رجليَّ فقط بل أيضًا يديَّ ورأسي». قالَ له يسوعُ: «الذي قدِ اغتَسَلَ ليس له حاجةٌ إلَّا إلى غَسْلِ رِجلَيه، بل هو طاهرٌ كُلُّه".[١٤٣]

استِنكارٌ جاهل. كان ينبغي بمرور الأيَّام أن يكونَ بطرسُ قد تدرَّبَ على عَدَمِ تَصحيح مَسارِ المعلِّم. كان يُفتَرضُ أن يكونَ قدِ استَقرَّ عميقًا في داخله يَقينٌ أنَّ مُعلِّمَه لا يخطئُ أبدًا، بل يَعمَلُ كلَّ شيءٍ حسنًا، ويَفهَمُ ما يَعمَل. كان ينبغي أن يُراقبَ الموقفَ في خُشوع وإجلال، ويستَسلمَ له في ذُهولِ العابِد، وانبهارِ الطفل، وشكرِ المنعَم عليه. غير أنَّه انبَرى مستَنكِرًا أن يغسلَ المعلِّمُ رجلَيه قائلًا له: "يا سيِّد، أنتَ تغسِلُ رجليَّ!"، عندَها عاجَلَه الربُّ بعبارةٍ حاسمةٍ كافيةٍ أن تُبكِمَ أيَّ شخصٍ يشعرُ بأنَّه الأفضل إذ قال له: "لستَ تعلَمُ أنت الآن ما أنا أصنعُ، ولكنَّكَ ستَفهمُ فيما بعدُ". لكنَّ عبارةً كهذه تستثيرُ شخصًا مثلَ بُطرس يشعرُ بأفضليَّته ليتكلَّم أكثر، ويُخطئَ أكثر!

رَفْضٌ قاطع. تحوَّلَ بطرسُ من الاستنكار الجاهل إلى الرَّفض القاطع قائلًا: "لن تغسلَ رجليَّ أبدًا!" لا بدَّ أن يكونَ مَصدرُ هذا الحماس الزَّائد هو المعتقدَ الزائفَ أنَّه الأفضل؛ فبَينما يقبلُ الجميعُ دون نقاش، يرفضُ هو بإصرار.

من أين أَتَتْه هذه الجرأة ليَنهَى المعلِّم عن فعلٍ رآه يسوعُ ضروريًّا؟ لذا صدمَه السيِّدُ المسيحُ بعبارةٍ لا تقلُّ حَسْمًا إذ قالَ له: "إنْ كنتُ لا أغسلُك فليس لكَ معي نصيبٌ".

تطرُّفٌ زائد. أفاقَتْه هذه العبارة من "غَفْوَته"، وانتبَه بقُوَّةٍ إلى مدى خُطورَتِها. وبدلَ أن يَستَسلمَ خاشعًا للمُعلِّم ليَغسِلَ له رجلَيه، طوَّح به حماسُه مثل بندولِ الساعة إلى الاتِّجاه المعاكِس ليَطلُبَ من الربِّ ما لا يحتاجُ إليه، وما لم يتطوَّع الربُّ

---

١٤٣) يوحنّا ١٣: ٦-١٠.

بِعمَله، إذ يقول: "يا سيِّد، ليس رجليَّ فقط بل أيضًا يديَّ ورأسي".

وهنا يتكشَّفُ ترجُّحٌ خطيرٌ من النَّقيضِ إلى النَّقيض- من الرَّفض القاطع لِغَسْل الرِّجلَين فقط إلى طلبِ غَسْلِ الرجلَين واليدَين والرأس! وهذا الترجُّحُ لا يَليقُ بالقائد بتاتًا، ولا يَنتُجُ إلَّا من حماسةٍ ضارَّة، لذا كان لا بدَّ من كشفها ليَرسخَ عميقًا في نفسِ بُطرسَ من جديدٍ أنَّه ليس الأفضل.

وعندها صحَّحَ له المعلِّم بهدوءٍ خطأَه قائلًا: "الذي قدِ اغتَسَلَ ليس له حاجةٌ إلَّا إلى غَسْلِ رِجلَيه، بل هو طاهرٌ كُلُّه".

٦. خبرةُ فشلٍ من جهةِ قراراته (يوحنَّا ١٨)

كانَتِ الحلقةُ السادسةُ من حلقات تدريب بطرس وتفكيك معتقده الزائف هي من جِهة قراراته. لا يختلفُ اثنان على أنَّ القيادةَ قرارات؛ فالقائدُ الذي لا يَقوى على اتِّخاذِ القرار، لا يصلحُ لأن يكونَ قائدًا البتَّة.

وربَّما أرجَعَ بطرسُ شعورَه بالأفضليَّة على إخوته إلى قُدرَتِه على اتِّخاذ القرارات. غير أنَّنا سنَرى قصَّةَ فَشَلٍ جديدةً سمحَ الربُّ لبُطرسَ أن يجتازَ فيها ليَتعلَّمَ من خلالها أنَّ قراراتِه المتَّخذة بعيدًا عن الربِّ مُدمِّرةٌ لخدمته، وهادمةٌ لقيادته بدلَ أن تكونَ مَصدرًا لها.

ونرى هذا في حادثةِ قَطْع أُذنِ مَلخُس:

"ثُمَّ إنَّ سمعانَ بُطرس كان معه سَيفٌ، فاستَلَّه وضَربَ عَبْدَ رئيس الكهنة، فقطعَ أُذنَه اليُمنى. وكان اسمُ العبد مَلْخُس. فقال يسُوعُ لبُطرُس: «اجعل سيفك في الغمد! الكأسُ التي أعطاني الآبُ ألا أشربُها؟»".[١٤٤]

---

١٤٤) يوحنَّا ١٨: ١٠، ١١.

سيِّد، ليس رجليَّ فقط بل أيضًا يديَّ ورأسي». قالَ له يسوعُ: «الذي قدِ اغتَسَلَ ليس له حاجةٌ إلَّا إلى غَسْلِ رِجلَيه، بل هو طاهرٌ كُلُّه".[١٤٣]

استِنكارٌ جاهل. كان ينبغي بمرور الأيَّام أن يكونَ بطرسُ قد تدرَّبَ على عَدَمِ تَصحيح مَسارِ المعلِّم. كان يُفتَرضُ أن يكونَ قدِ استَقرَّ عميقًا في داخله يَقينٌ أنَّ مُعلِّمَه لا يخطئُ أبدًا، بل يَعمَلُ كلَّ شيءٍ حسنًا، ويَفهَمُ ما يَعمَل. كان ينبغي أن يُراقبَ الموقفَ في خُشوع وإجلال، ويستَسلمَ له في ذُهولِ العابِد، وانبهارِ الطفل، وشكرِ المنعَم عليه. غير أنَّه انبَرى مستَنكِرًا أن يغسلَ المعلِّمُ رجلَيه قائلًا له: "يا سيِّد، أنتَ تغسِلُ رجليَّ!"، عندَها عاجَلَه الربُّ بعبارةٍ حاسمةٍ كافيةٍ أن تُبكِمَ أيَّ شخصٍ يشعرُ بأنَّه الأفضل إذ قال له: "لستَ تعلَمُ أنت الآن ما أنا أصنعُ، ولكنَّكَ ستَفهمُ فيما بعدُ". لكنَّ عبارةً كهذه تستثيرُ شخصًا مثلَ بُطرس يشعرُ بأفضليَّته ليتكلَّم أكثر، ويُخطئَ أكثر!

رَفْضٌ قاطع. تحوَّلَ بطرسُ من الاستنكار الجاهل إلى الرَّفض القاطع قائلًا: "لن تغسلَ رجليَّ أبدًا!" لا بدَّ أن يكونَ مَصدرُ هذا الحماس الزَّائد هو المعتقدَ الزائفَ أنَّه الأفضل؛ فبَينما يقبلُ الجميعُ دون نقاش، يرفضُ هو بإصرار.

من أين أَتَتْه هذه الجرأة ليَنهَى المعلِّم عن فعلٍ رآه يسوعُ ضروريًّا؟ لذا صدمَه السيِّدُ المسيحُ بعبارةٍ لا تقلُّ حَسْمًا إذ قالَ له: "إنْ كنتُ لا أغسلُك فليس لكَ معي نصيبٌ".

تطرُّفٌ زائد. أفاقَتْه هذه العبارة من "غَفْوَته"، وانتبَه بِقُوَّةٍ إلى مدى خُطورَتِها. وبدلَ أن يَستَسلمَ خاشعًا للمُعلِّم ليَغسِلَ له رجلَيه، طوَّح به حماسُه مثل بندولِ الساعة إلى الاتِّجاه المعاكِس ليَطلُبَ من الربِّ ما لا يحتاجُ إليه، وما لم يتطوَّع الربُّ

---

١٤٣) يوحنّا ١٣: ٦-١٠.

بِعمَله، إذ يقول: "يا سيِّد، ليس رجليَّ فقط بل أيضًا يديَّ ورأسي".

وهنا يتكشَّفُ ترجُّحٌ خطيرٌ من النَّقيضِ إلى النَّقيض- من الرَّفض القاطع لِغَسْل الرِّجلَين فقط إلى طلبِ غَسْلِ الرجلَين واليدَين والرأس! وهذا الترجُّحُ لا يَليقُ بالقائد بتاتًا، ولا يَنتُجُ إلَّا من حماسةٍ ضارَّة، لذا كان لا بدَّ من كشفها ليَرسخَ عميقًا في نفسِ بُطرسَ من جديدٍ أنَّه ليس الأفضل.

وعندها صحَّحَ له المعلِّم بهدوءٍ خطأَه قائلًا: "الذي قدِ اغتَسَلَ ليس له حاجةٌ إلَّا إلى غَسْلِ رِجلَيه، بل هو طاهرٌ كُلُّه".

٦. خبرةُ فشلٍ من جهةِ قراراته (يوحنَّا ١٨)

كانَتِ الحلقةُ السادسةُ من حلقات تدريب بطرس وتفكيك معتقده الزائف هي من جهة قراراته. لا يختلفُ اثنان على أنَّ القيادةَ قرارات؛ فالقائدُ الذي لا يَقوى على اتِّخاذِ القرار، لا يصلحُ لأن يكونَ قائدًا البتَّة.

وربَّما أرجَعَ بطرسُ شعورَه بالأفضليَّة على إخوته إلى قُدرَتِه على اتِّخاذ القرارات. غير أنَّنا سنَرى قصَّةَ فَشَلٍ جديدةً سمحَ الربُّ لبُطرسَ أن يجتازَ فيها ليَتعلَّمَ من خلالها أنَّ قراراتِه المتَّخذة بعيدًا عن الربِّ مُدمِّرةٌ لخدمته، وهادمةٌ لقيادته بدلَ أن تكونَ مَصدرًا لها.

ونرى هذا في حادثةِ قَطْع أُذنِ مَلخُس:

> "ثُمَّ إنَّ سمعانَ بُطرس كان معه سَيفٌ، فاستَلَّه وضَربَ عَبْدَ رئيس الكهنة، فقطعَ أُذنَه اليُمنى. وكان اسمُ العبد مَلْخُس. فقال يسُوعُ لبُطرُس: «اجعل سيفك في الغمد! الكأسُ التي أعطاني الآبُ ألا أشربُها؟»".[١٤٤]

---

١٤٤) يوحنَّا ١٨: ١٠، ١١.

من المفيد هنا أن نذكرَ شيئًا عن تَفاصيل الواقعة لنرى حجمَ الخطأ الذي ارتكبَه بطرس، وكيف كان مناقضًا تمامًا لما فعلَه يسوع وقالَه.

كان الليلُ قدِ انتصَفَ عندما وصلَتْ كتيبةُ عَسْكَرِ رؤساء الكهنة، يتقدَّمُهم يهوذا الخائن للقَبْض على السيِّد. كان يسوع قد فرغَ لتوِّه من صلاته وجهاده في جَثسيماني، بينما نهضَ بطرسُ لتَوِّه من نَومه! كان الربُّ قد سبقَ وأيقظَه قبل ذلك ليَسهَرَ ويُصلِّي لئلَّا يدخُلَ في تجربة، كما أنَّه عاتَبَه على عدم سهره معه ساعةً واحدة. غير أنَّ بُطرسَ لم يتأثَّر بالعتاب، ولم يخشَ التَّحذيرَ ونام!

خرجَ الربُّ لملاقاةِ المقبلين عليه قائلًا لهم: "كأنَّه عَلى لصٍّ خَرَجتُم بِسُيوفٍ وَعِصيٍّ! إذْ كُنتُ مَعَكُم كلَّ يَومٍ في الهيكَلِ لَم تَمُدُّوا عَليَّ الأَيَاديَ. ولكنَّ هذِه سَاعَتُكُم وَسُلطانُ الظُّلمَة".[١٤٥]

خرج إليهم يسوعُ قبلَ أن يَصِلوا هم إليه، وهو عالمٌ بكلِّ ما يأتي عليه! خرجَ وهو عالم أنَّه من أجل هذه الساعة أتى.

بادرَهم بالسؤال: "مَن تطلُبون؟ أجابوه: يسوع الناصريّ".[١٤٦] على الفور أظهَرَ الربُّ لمحةً من مجده الإلهيِّ فأجاب قائلًا: "أنا هو".[١٤٧] وعندَها، كأنَّ مَوجةً من جلالِه الإلهيِّ اجتاحَتْهم فرَجَعوا إلى الوراء وسَقَطوا على ظهورهم! وعلى الرُّغم من هذا، لم يكُنْ عند الربِّ أدنى تردُّدٍ أن يُسلِّمَ نفسَه إليهم- لا ضَعْفًا، بل ليُتمِّمَ مشيئةَ أبيه.

---

١٤٥) لوقا ٢٢: ٥٢-٥٣.

١٤٦) يوحنّا ١٨: ٤-٥.

١٤٧) يوحنّا ١٨: ٥.

كان من الواضح جدًّا في كلّ هذا أنَّ الربَّ هنا هو سيِّدُ الموقف الوحيد، وأنَّه هو الذي يُديرُ تفاصيلَ الموقف وليس هم! كان حريٌّ ببطرس أن يراقبَ الموقفَ في خُشوعِ العابد منتظرًا تعليماتِ سيِّدِ الموقف. كان منظرُ العسكر السَّاقِطين على ظهورهم يؤكِّدُ عدمَ حاجةِ الربِّ إلى سَيفِ بُطرُس. بعد أن قاموا من سَقطَتِهم، أعادَ عليهم يسوعُ السؤال، فقالوا ثانيةً يسوع الناصريّ. فلم يُسقِطْهُم هذه المرَّة، لكنَّه أرادَ أن يوفِّرَ خُروجًا آمِنا لتَلاميذِه، فقال للعَسْكَر: "إنْ كنتُم تَطلُبونَني فدَعوا هؤلاء يَذهَبون".[١٤٨] من جهة، كان السيِّدُ حَريصًا على سلامةِ تَلاميذِه، لكنَّه كان يُدركُ من جهةٍ أُخرى أنَّ الساعةَ أكبرُ من طاقَتِهم الروحيَّة، فأرادَ لهم الانصرافَ الآمن من الموقف.

رأى بطرس كلَّ هذا، وسمعَ حوارَ السيِّد معهم. وكان حَرِيٌّ به أن يستَوعبَ ما قالَه يسوعُ وفعله، لكنَّه قرَّرَ أن يقومَ بفعلٍ غريبٍ جدًّا لا يتماشى قَطُّ مع رَوعةِ أفعالِ يسوع، فكان كَمَنْ يُلقي حَفنةَ تُرابٍ على لَوحةٍ بديعةِ الإتقان لم تجفَّ ألوانُها بعد. كما أنَّه يكشفُ عن الهوَّةِ السَّحيقةِ بين فِكْرِ الربِّ وفكره. استَلَّ سَيفَه وضربَ عبدَ رئيسِ الكهنة مَلخُس فقطعَ أُذنَه! يا للمأساة! هل لرسالة السيِّد المسيح أيَّةُ علاقةٍ بالسَّيف من قريب أو بعيد؟ أليس هذا تشويهًا لرِسالةِ الوَديع متواضع القلب؟ ألا يُناقِضُ هذا تعليمَ السيِّد المسيح عن محبَّة الأعداء؟

كان بُطرسُ يشعر بأنَّه الأفضل، وأنَّه إنْ عَجزَ الجميعُ عن فِعْل أيِّ شيء، فعَلَيه هو أن يفعل! إنَّه لا يَقِفُ كالباقين مكتوفَ الأيدي، كما أنَّه لا يَليقُ به، وهو الأفضل، أن يمضيَ إلى حال سبيله كما أمرَ الرَّبّ.

---

١٤٨) يوحنّا ١٨: ٨.

لقد قرَّرَ أن يفعَل، وبِئْسَ ما فعل! تدخَّلَ الربُّ على الفَور مُصلِحًا خطأ بُطرسَ بأنْ أعادَ أذنَ الرجل إلى مكانها، ثمَّ التفتَ إلى بُطرسَ موبِّخًا ومُعلِّمًا إيَّاه بالقَول: "اجعل سيفك في الغمد! الكأسُ التي أعطاني الآبُ ألا أشربُها؟". وفي إنجيل متَّى، نقرأ أنَّ السيِّدَ المسيحَ أضافَ قائلًا له: "رُدَّ سَيْفَكَ إِلَى مَكَانِه. لأَنَّ كلَّ الَّذينَ يأخُذونَ السَّيفَ بِالسَّيْفِ يَهلِكونَ!".

لا أعتَقدُ أنَّ بُطرسَ كان يريدُ القَتْلَ، وإلَّا لماذا ضربَ الأذنَ وليس العنق مثلًا؟ هل كان يُهدِّدُ فحسب؟ لكنْ ما قيمةُ تهديدِ فَردٍ أمام عشراتِ العسكر؟ أعتقد أنَّ المسألةَ لا تخرجُ عن كَونها منطقًا أَهْوَجَ لدى شخصٍ لا يَقبَلُ أن يكونَ مثل باقي زُمَلائه لأنَّه يشعرُ بأنَّه الأفضل.

نتصوَّرُ أنَّه يقفُ مرتَبكًا بعدَ تدخُّل الربِّ لإصلاح ما أفسَدَه بتهوُّره، وتتسارعُ دقَّاتُ قلبِه الممزَّق ما بين رغبتِه في الهرب، ورغبتِه في أن يبرهنَ أنَّه الأفضل. ولا أستَبعِدُ استِماعَه لهمْسٍ يأتي من أعماقه يقولُ: "أردتَ أن تكونَ الأفضل، ففعلْتَ الأسوأ".

٧. خبرةُ فَشَلٍ من جهة محبَّته (لوقا ٢٢)

كانت الحلقة الأخيرة في مَنهَج السيِّد المسيح لتفكيك معتقد بطرس الزائف خاصَّةً بمحبَّتِه وولائه للسيِّد المسيح.

كانت هذه أقوى الحلقاتِ وأكثرَها أثرًا في حياته، ونظنُّ أنَّ بها جرى تفكيكُ هذا المعتَقدِ الزَّائف بالكامل. إنَّها الحلقةُ الوحيدةُ التي بِسببِها بكى بطرسُ بكاءً مرًّا، إذ كان حبُّه وولاؤه للمعلِّم هو أكثرُ ما يعتزُّ به. لقد أنكرَ بطرسُ ثلاثَ مرَّاتٍ أنَّه يعرفُ السيِّد المسيح! أنكر أمامَ أُناسٍ بُسَطاء لا أمامَ حُكَّام! أنكر وسبَّ وحلفَ ولَعَن!

تبدأ وقائع حادثة الإنكار قبل حدوثها ببضع ساعات. كانوا قد انتهوا من العشاء الأخير، وقبل خروجهم إلى جَثسَيماني للصَّلاة، أدهشَهم يسوعُ بهذا الخبر الخطير: "كُلُّكُمْ تَشُكُّونَ فِيَّ هذِهِ اللَّيْلَةَ، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: أَنِّي أَضْرِبُ الرَّاعِيَ فَتَتَبَدَّدُ خِرَافُ الرَّعِيَّةِ. وَلكِنْ بَعْدَ قِيَامِي أَسْبِقُكُمْ إِلَى الْجَلِيلِ".[١٤٩]

كشفَ الربُّ في هذه العباراتِ القصيرة عدَّة حقائق: ١- كلُّهم، وليس بطرس فقط، سيَشكُّون فيه! ٢- سيَحدُثُ هذا بعد ساعاتٍ قليلة (هذه الليلة)! ٣- سبقَ الكتابُ المقدَّس وتنبَّأ بفِعْلِهم هذا! ٤- لن يؤثِّرَ هذا في علاقته بهم، فهو سيَقومُ من الأموات ويلتَقيهم ثانيةً كما اعتاد!

كانت هذه الحقائقُ الأربعُ كافيةً أن تَعقِدَ أيَّ لسان، وتملأ القلبَ بالأحزان، وبالشُّكر الجزيل في الوقت نفسه. وربَّما فعلَتْ هكذا في كلِّ التلاميذ، لكنَّ من الواضح أنَّها لم تفعَلْ ذلك في بطرس؛ فمُعتَقدُه الدَّفين أنَّه أفضلُ من بَقيَّة التَّلاميذ جعَلَه يَنبَري على الفَور قائلًا للسيِّد المسيح في العدد التالي من الأصحاح نفسه: "وإِنْ شَكَّ فِيكَ الجميعُ فأنا لا أَشُكُّ أَبَدًا". لم يكُنْ هناك بُدٌّ من أن يكشفَ له السيِّدُ المسيح ما سيَفعلُه هو تحديدًا في تلك الليلة، فهو ليس فقط سيَشُكّ، بل سينكرُ أيضًا! ويكشفُ كذلك عن حوارٍ دارَ في العالم غير المنظور، ولا يعلَمُ عنه التَّلاميذُ شيئًا. وكشفَ الربُّ عن هذا الحوار ليس فقط بسبب ردِّ بطرس الخاطئ، بل أيضًا لسببٍ يذكرُه لوقا فيَقول:

"وكانَتْ بَينَهُم أيضًا مُشاجَرةٌ مَن منهُم يُظنُّ أنَّه يكونُ أكبر. فقال لهُم: «مُلوكُ الأُمم يسُودُونَهم، والمتَسلِّطون عليهم يُدعَون مُحسِنين. وأمَّا أنتُم

١٤٩) متّى ٢٦: ٣١-٣٢.

فلَيس هكذا، بل الكبيرُ فيكُم ليكُنْ كالأصغر، والمتقدِّمُ كالخادم. لأنَّ مَن هو أكبرُ: ألَّذي يتَّكئُ أم الذي يخدُمُ؟ أليس الذي يتَّكئُ؟ ولكنِّي أنا بينكُم كالَّذي يخدُمُ. ثمَّ التفَتَ الربُّ بعدَها مباشرةً وقال: «سمعانُ، سمعانُ، هُوذا الشَّيطانُ طلبَكُم لكي يُغربلكُم كالحنطة! ولكنِّي طلبتُ من أجلك لكي لا يَفنَى إيمانُك. وأنت متى رجعْتَ ثبِّتْ إخوَتَك». فقالَ له: «يا ربّ، إنِّي مُستعدٌّ أن أمضيَ معك حتَّى إلى السِّجن وإلى الموت!». فقال: «أقُولُ لك يابُطرُس: لا يصيحُ الدِّيكُ اليومَ قبل أن تُنكرَ ثلاثَ مرّاتٍ أنَّك تعرفُني»".[١٥٠]

يتَّضحُ من كلام الربِّ هنا أنَّ الحوارَ ما بين الربِّ يسوعَ والشَّيطانِ جرى قبل هذه المشاجَرة مباشرةً. لقد طلبَهم إبليسُ من السيِّد المسيح لكي يغربلَهم، ولا سيَّما بطرس! والمقصود بالغربلة هنا هي تَنقِيَة الغثِّ من السَّمين (القمح من التِّبن). وبالتَّأكيد لم يكُنْ هذا قَصْدَ الشَّيطان؛ فهو لا يطلبُ ليُنقِّيَ بل ليُهلِك. لقد طلبَهم من السيِّد المسيح متحدِّيًا إيَّاه أنَّه لو سَلَّمَهم إليه، سيُقدِّمُ الدليلَ القاطعَ على أنَّهم لا يحبُّونه، ولا يفكِّرون إلَّا في مصالحهم ومراكزهم.

قَبِلَ الربُّ التحدِّيَ، لأنَّه من جهةٍ يعرفُ جَوهرَهم أنَّهم يحبُّونه فعلًا، ومن جهةٍ أُخرى لأنَّه سيُسيطرُ على الموقف ليَحفَظَهم في أثناء التَّجرِبة. لقد رأى الربُّ أنَّ تَسليمَهم لإبليس ليُجرِّبَهم سيُسهمُ إلى حدٍّ كبيرٍ في تفكيكِ معتَقداتٍ خاطئةٍ في أذهانهم، وهكذا يُنَقُّون من الزَّيف كما يُخلِّصُ المغَربِلُ القمحَ من التِّبن، أي سيَجعَلُها غَربَلةً بينَما كان إبليسُ يريدُها مذبحة!

---

١٥٠) لوقا ٢٢: ٢٤-٣٤.

بدأ إبليسُ على الفَور نشاطَه بمجرَّدِ أن تسلَّمَهم، لذا نقرأ: "وكانَتْ بَينَهُم أيضًا مُشاجَرةٌ مَن منهُم يُظنُّ أنَّه يكونُ أكبر". لا نستبعدُ في الواقع أن يكونَ الشَّيطانُ قد تسلَّلَ إليهم من خلال بطرسَ ومُعتَقدِه الدَّفين وإحساسه بنفسه أنَّه الأفضل.

يُلاحظُ أحيانًا من خبرات بعضنا أنَّ الجسدَ إذا تحرَّك في أحَدِنا وتنشَّط، فإنَّه يستَثيرُ نشاطَ الجسد في الإخوة من حَولنا ليتحرَّكَ بعد أن كان كامنًا. فيَصيرُ ذنبُ هذا الشخص مزدَوَجًا: فهو أخطأ، وجعلَ إخوَتَه يُخطِئون. ومن الأمور التي نتعلَّمُها أيضًا أنَّ نقاطَ الضَّعف في أسوارِ حياتِنا الروحيَّة- التي يَسهُلُ على إبليس أن ينفَذَ منها لإفساد حياتِنا وحياة من حولنا- هي المعتقداتُ الزائفةُ في حياتِنا.

يتَّضحُ أيضًا من كلامِ الربِّ أنَّ الشيطانَ عندما طلبَ التلاميذَ منه، كان مُهتمًّا بشكلٍ خاصٍّ ببطرس. عالجَ الربُّ بحكمَتِه ومحبَّته المشكلةَ بينهم، وأبطَلَ مَشورةَ إبليسَ بهذا التَّعليم، والذي اعتمَدَ فيه على ما سبقَ وعَمِلَه معهم منذ قليلٍ عندما غسلَ أرجُلَهم مُقدِّمًا إليهم نفسَه قُدوةً. فقال لهم: "مُلوكُ الأُمم يسُودُونَهم، والمتَسلِّطون عليهم يُدعَون مُحسِنين. وأمَّا أنتُم فلَيس هكذا، بل الكبيرُ فيكُم ليكُنْ كالأصغر، والمتقدِّمُ كالخادم. لأنَّ مَن هو أكبرُ: ألَّذي يتَّكئُ أم الذي يخدُمُ؟ أليس الذي يتَّكئُ؟ ولكنِّي أنا بينكُم كالَّذي يخدُم". وهكذا انتَهى الفَصلُ الأوَّلُ والسَّهلُ من التَّجربة، لكنْ بَقِيَ الدَّورُ الأصعب.

كان الربُّ يعرفُ ثقلَ الدَّورِ الآتي من تجربة إبليسَ لهم، ولا سيَّما لبُطرُس، لذا طلبَ منهم أن يصلُّوا لئلَّا يدخُلوا فيها، لكنَّهم ناموا ولم يسهَروا للصَّلاة. ويكشفُ لنا هذا من جانبٍ آخرَ حقيقةً مُهمَّة: أنَّ سهرَنا وصلاتَنا يمنعان سقوطَنا في التَّجربة، حتَّى لو سبقَ الربُّ وسمحَ للشَّيطانِ بأن يجرِّبَنا!

جاءَ المجرِّبُ ثانيةً على بابِ البُستان وعملَ عملَه فيهم بإلقاء الرُّعبِ في قلوبهم، فيكتبُ متَّى- وهو واحِدٌ منهم- قائلًا: "حينَئذٍ تركَه التَّلاميذُ كُلُّهم وَهَرَبوا".[١٥١] كان الدور اللَّاحقُ على بُطرسَ بمفرده، والذي سارَ متردِّدًا بين رغبَتِه في الهرب مثل بَقيَّة التَّلاميذ نتيجةَ حالةِ الرعب التي أصابَهم بها إبليس، وما يُمليه عليه معتقدُه الزَّائفُ أنَّه الأفضل، لذا يجبُ ألَّا يفعلَ مثلَهم ويهرُبَ كما هربوا هم.

وصلَ بطرسُ إلى أسوأ الحلول: فلا هو تَبعَ المعلِّم، ولا هربَ مع التَّلاميذ، لكنَّه تبعَ من بَعيدٍ كما يقولُ عنه مرقس: "وكانَ بُطرُس قد تَبِعَه من بَعيد".[١٥٢] هناك في دارِ رئيس الكهنة، جلسَ بطرسُ بين الخدَّام يَستَدفئ، وهناك أتاه المجرِّبُ في لحظاتِ الخوف والتردُّد ليَسقُطَ بطرسُ سقوطًا مدويًّا، وينكرَ ثلاثَ مرَّاتٍ أنَّه يعرفُ السيِّدَ المسيح. في هذه اللحظة المرعِبة، يلتفتُ بطرسُ ليَرى عينَي يسوعَ الحنونتَين ترقُبانه وتنظران إليه بحنانٍ عميق، وقلبٍ مَرفوعٍ بالصَّلاة لأجله لئلَّا يَفنَى إيمانُه الهزيل، فخرجَ من الدَّار وبكى بكاءً مرًّا.

ربَّما كان يتذكَّرُ كلماتِه هو، والدَّمعُ ينهمر من عينَيه: "ولوِ اضطُرِرْتُ أن أَموتَ مَعَكَ لا أُنْكِرُكَ!" ثمَّ يسترجعُ ما حدثَ منه للتَّوّ، فيشعر بسكاكينَ تمزِّقُه، ويبحثُ عن بقيَّةِ التلاميذ فيَجدُهم جميعًا قد هَرَبوا، لكنْ لم ينكرْه أحَدٌ منهم، فيَسمع صوتًا آتٍ من أعماقه، سبقَ وسمعَه كثيرًا من قبل، يصرخُ فيه قائلًا: "ألم أَقُلْ لك إنَّكَ لستَ الأفضل؟" في تلك البقعة المظلمة، كانت تتهاوى آخر لَبِناتِ هذا المعتقد الزائف ليَجرفَها إلى الزَّوالِ سَيلُ دَمعِه المنهَمِر من عَينَيه ويُسوِّي أرضيَّةَ ذِهنِه بلدوزَرُ المرارةِ لئلَّا يَبقى لهذا المعتقد الزائف

---

١٥١) متَّى ٢٦: ٥٦.

١٥٢) مرقس ١٤: ٥٤.

أصلٌ ولا فرع. وهكذا تحقَّقَ كلامُ السيِّدِ المسيح أنَّها صارَتْ غربلةً للتَّنقِيَة، لا مذبحةً للإهلاك.

حفلُ التخرُّج على ضِفافِ بُحَيرةِ طبريَّة

كعادة الإنسان الذي يترجَّحُ كالبندول من النَّقيض إلى النَّقيض، لم يكتَفِ بُطرُس بالاقتناع أنَّه ليس الأفضل من بقيَّة التلاميذ، بل أنَّه أيضًا لا يصلُحُ بتاتًا لأن يكونَ تلميذًا للسيِّد المسيح. لذا قرَّرَ أن يعودَ إلى مِهنة الصَّيدِ من جديد!

كان الربُّ يعلَمُ هذا، لذا بعثَ برسالةٍ من خلال المريَمَاتِ إلى التَّلاميذ وإلى بُطرس! واضحٌ هنا أنَّ الربَّ يؤكِّدُ لبُطرسَ وللتَّلاميذ أنَّ بطرسَ لم يزَلْ تلميذًا، بل يذكرُ بولس في ١كورنثوس ١٥: ٥ أنَّ الربَّ ظهرَ لبطرسَ على انفرادٍ ظهورًا خاصًّا- لا نعلَمُ تَفاصيلَه- ليؤكِّدَ له أنَّه لم يَزَلْ تلميذَه المحبوب.

لكنْ كان بُطرُس، على الرُّغم من هذا، يشعرُ عميقًا بأنَّه لا يستَحقُّ الخدمةَ لأنَّه ليس الأفضل! لقد تخلَّصَ من معتقدِ أنَّه الأفضل، لكنْ لم يَزَلْ عنده معتقدٌ آخر: أنَّ الخدمةَ للأفضل. وهذا ما نفعلُه أحيانًا. فإذا لم نكُنِ الأفضلَ في مجالِنا، فإنَّنا لا نخدم. لذا جاءَ الفصلُ الأخيرَ ليَعلِّمَه الربُّ على ضِفافِ البُحَيرة أنَّ مؤهِّلَ الخدمةِ هو الحبُّ وليس الكفاءةَ.

الفصل ١٨

الوُجودُ الحقيقيُّ والزائف

حياة لوط ويونان

تزدادُ بمرور الأيَّام قَناعَتنا أنَّ غايةَ المنى وقمَّةَ المتع في هذه الحياة هي أن يحقِّقَ الإنسانُ وجودَه الأصيل. وكما ذُكِرَ في الفصل السابق، فإنَّ أكبرَ عائقَين يحولان دون تحقيقه هما الإلحادُ والدِّين! فبينما يقود الأوَّل إلى العدم، يقودُ الثَّاني إلى وُجودٍ زائفٍ هو أسوأ من العَدم. لكنَّ هناك أيضًا بعضَ العوائق الأُخرى التي تمنعُ المؤمنين الحقيقيِّين من تحقيق هذا الوجود الحقيقيّ. وهذا هو ما يَشغَلُ البالَ أكثرَ الكلِّ في هذا الفصل. ولا بدَّ في البداية من توضيح المقصود بالوُجود الأصيل (Authentic Existence).

يعني الوجودُ الأصيل من منظورٍ مسيحيٍّ، وبحسب التعريف الشخصيِّ وليس التعريف الفلسفيِّ ما يلي:

"أن يعيشَ الإنسانُ في علاقةٍ حيَّةٍ بخالقه تُمكِّنُه من اكتشاف ذاته

باستمرار وتَفعيل طاقاتها، كما تمكِّنه أيضًا من النجاح في علاقاته بِمَن حولَه صانعًا الخيرَ لهم".

إنَّها حالةٌ واقعيَّةٌ رائعة، أيْ ليسَتْ وَهمًا فكريًّا، أو حالةً شعوريَّةً ناتجةً عن عيشةِ صاحبها تحت إشراف الله في أحوالٍ وتحدِّياتٍ وعلاقاتٍ مختلفة. في هذا الوضع يتمكَّنُ من اكتشاف ذاته ليتعرَّفَها، فتُفعِّلُ نقاطُ قوَّتِها ومواهبُها ليَزداد ثراؤه، كما تتعرَّى أيضًا نقاطُ ضَعْفِه وعيوبُه فيَسهُلُ علاجُها لتَقوى صحَّتُه الروحيَّة والنفسيَّة.

لكنَّ الأهمَّ هو أنَّه في هذه الحالة الأصيلة للوُجود، يجري تمكين الاتِّصال الصحيح بالله وتثبيته من طرف، وبأخيه الإنسان من الطرف الآخر، فيَصيرُ الله من طرفٍ هو نبعُ الوُجود الذي يتدفَّقُ ويجري في كِيان هذا الشَّخص ليَصطَبِغَ بصِبغةِ حامله. ويصيرُ البشر من الطرف الآخر هم مُصبَّ هذا الوُجود ومجالَ تحقيقه، في صورةِ حضورٍ قويٍّ مؤثِّرٍ بالنَّفع والبركة لهم.

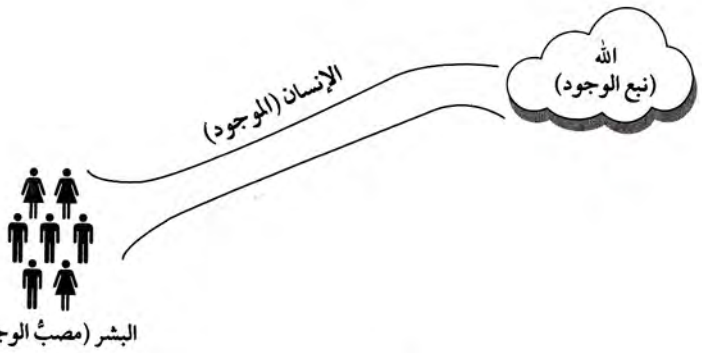

الشكل رقم (٣): الوجود الحقيقيّ

وتجعلُ هذه الحالُ محبَّة الله والناس متَجَذِّرةً عميقًا في القلب، وهكذا تصيرُ طاعةُ وصيَّةِ أن تحبَّ الربَّ إلهك من كلِّ قلبك وفكرك ونفسك وقدرتك، وتحبَّ قريبَك كنفسك- متعةً وُجوديَّةً لا مجرَّدَ وصيَّة.

في هذا الوضع، تكتملُ الصحَّة النفسيَّةُ والروحيَّة؛ إذ فيه يكونُ الإنسانُ متَّزنًا في علاقته بالله وبنفسه وبالناس وبأحواله المحيطة كالآتي:

- ليس الله بالنِّسبة إلى الشخص مجرَّدَ عقيدةٍ أو نظريَّة، بل هو نَبعُ الوُجود.
- ليسَتِ النفسُ بالنِّسبة إلى صاحبها هي العدوَّ الذي ينبغي قَهرُه والسيطرةُ عليه كما في الكثير من الديانات الشرقيَّة، بل هي خليقةُ الله الأسمى المعمولة على صورته وشَبهه، لذا ينبغي تعرُّفها أكثر وحبُّها والحنوُّ عليها وعلاجُها من كلِّ ما أصابَها من تشوُّه بسبب الخطيَّة، كما ينبغي تهذيبُها وتفعيلُ قدراتها.
- ليسَ النَّاسُ الجحيمَ الذي يَحُدُّ من حرِّيَّته كما في الفلسفة الوُجودية، ولا هم أغراضٌ يجري "تشييئهم" واستغلالهم كما في الفلسفات الشموليَّة الدينيَّة أو السياسيَّة، بل هم حاملو صورة خالقهم بخدمته ورسالته، الذين يتحقَّقُ فيهم وبهم وجودُه، وفي الوقت نفسه، يقطفون هم ثمرَ هذا الوُجود المبارك.
- ليسَتِ الأحوالُ المحيطةُ القدرَ الذي يتحكَّمُ فيه بَدءًا من مزاجه ونهايةً بمصيره، كما في القدريَّة وبعض الفلسفات المادِّيَّة والوجوديَّة التي أسمَتْه "رهينة الكون" (Cosmos Pawn)، بل الأحوال بحُلوِها ومرِّها، هي العوامل اللازمة والبيئة الضروريَّة لتَحقيق وجوده. وهو يجاهِدُ معها، بمساعدة الله

ومعونة المحيطين به، ليُغيِّرَ فيها ما يمكنُه تغييره، ويتصالح مع ما لا يمكنُ تغييره، ويتدرَّب للارتقاء إلى درجات أعلى في تحقيق الوُجود الأصيل.

- في هذه الحال، ليس هناك استقلالٌ عن الله كما في الإلحاد أو المادِّيَّة، ولا انعزال عن الناس كما في الجماعات الدينيَّة، ولا انحصار في النفس أو هروب منها كما في الحركات الصوفيَّة وبعض الحركات الكاريزماتيَّة، ولا حربٌ مع الواقع والأحوال كما في كثيرٍ من حركاتِ الإيمان الزائف وإنجيل الصحَّة والغنى (لاهوت الازدهار).

من هذا يتَّضحُ جليًّا أنَّ معرفةَ القدوس، بل الدخول في علاقةٍ صحيحةٍ به، هي حجرُ الأساس في بناء هذا الوُجود الأصيل، لذا قلتُ من البداية إنَّه يستَحيلُ تحقيقُه في حالتَي الإلحاد والتديُّن؛ إذ ينكرُ الإلحادُ وُجودَ القدُّوس، بينما يُقرُّ الدِّين بوُجوده، إلَّا أنَّه يدفعُ المتديِّنين في معظم الحالات إلى العلاقة بالمقدَّسات بدلًا من العلاقة بالقدُّوس نفسه، كما أنَّه يدفعُ الشخص للارتماء في حضن المجموع، والذوبان في الجماعة الدينيَّة التي ينتمي إليها، فيفشَلُ في تحقيق وُجوده الأصيل، بل يعيشُ أيضًا في حالةٍ من الوُجود الزائف الذي وَصفَه بدقَّة مارتن هايديغر، ممَّا يوجِدُه في وَضْع وجوديٍّ أسوأ من الملحد إذ يمنعُه من البحث عن الوُجود الأصيل. وسنرى في هذا الفصل من خلال دراسة حالة يونان النبيِّ ما يوضح مظاهر هذا الوضع السيِّئ وعواقبه.

إنَّ ما كتبَه كثيرٌ من الفلاسفة الملحِدين والوُجوديِّين مثل "برتراند رَسل" (Bertrand Russell) وسارتر (Sartre) وغيرهما عن عَبَثيَّة الحياة والوُجود- يَكفينا عناءَ إثباتِ استِحالةِ تحقيقِ وُجودٍ رائع كهذا الذي وصفتُه مع إنكار وجود الله.

وإليك عيِّنةً ممَّا كتبَه رَسِل:

"الإنسانُ هو نِتاجُ أسبابٍ لم تكُنْ لديها رؤيةٌ مسبَّقة للغايةِ التي تَبغي تحقيقَها. وهكذا يصيرُ منشأُه، ونموُّه، وآمالُه ومخاوفُه، وما يحبُّ وما يعتقدُ ليس إلَّا محصلةَ تجمُّعاتٍ عشوائيَّةٍ من الذرَّات، حتَّى إنَّه ما من قوَّةٍ ولا بطولةٍ ولا فكرٍ عميق أو شعورٍ جيَّاشٍ يمكنُه أن يحفَظَ حياةَ الإنسانِ في ما وراء القبر. فكلُّ ما أُنجزَ من أعمالٍ على مرِّ العصور؛ وكلُّ مشاعرِ الحبِّ والتكريس، وكلُّ إلهام، وكلُّ عبقريَّةِ البشريَّة بكلِّ ألَقِها- كلُّ هذا محكومٌ عليه بالانقراض في مَوتِ المجموعة الشمسيَّة، وصَرْحُ الإنجازاتِ البشريَّة كلُّه لا بدَّ حتمًا أن يُدفنَ تحت حُطام بقايا الكَون. إنَّ كلَّ هذه الأمور، حتَّى إنْ كان عليها خلاف، تكادُ أن تكونَ مؤكَّدةً حتَّى إنَّ أيَّة فلسفةٍ ترفضُها يجب أن تفقدَ كلَّ أملٍ في البقاء. ولا يمكن لمسكَن النَّفس أن يُبنى على أساسٍ آمنٍ إلا بالاستناد إلى هذه الحقائق، على أساس اليأس الراسخ الذي لا يلين".[١٥٣]

وما هذه سوى عيِّنةٍ مختصَرةٍ لكنَّها كافيةٌ لتَوضيح رؤية سارتر للوُجود كما وصفه في كتابه الذي نُشر في عام ١٩٣٨م بعنوان "غثيان" (Nausea) حيث قال: "أنا موجود! هذا كلُّ ما في الأمر، وهو شيءٌ يُثيرُ غَثَياني" (I exist, that is all, and I find it nauseating.)

أمَّا عن الدِّين بوَصفه عائقًا لتَحقيق هذا الوجود كما وصفْتُه، فما نراه ونقرأه كلَّ يَوم عن المتديِّنين من التَّدهوُر الأخلاقيّ، والانعزال عن الناس، والتَّعالي عنهم،

---

١٥٣) برتراند رسل، "عبادةُ رجلٍ حرّ" (*A Free Man's Worship*).

بل ربَّما تكفيرُهم وممارسة العنف تُجاهَهم على الرُّغم من مغالاتِهم في طاعة فرائضهم الدينيَّة وممارستها- كلُّ هذا يكفي للبُرهان، ويؤكِّد التَّناقُضَ الحادَّ ما بين التديُّن وتحقيق الوُجود الأصيل. لذا نكتَفي بالتَّحذير من الإلحاد والدِّين ونقولُ إنَّه لا أحَدَ يعرفُ مَن أنتَ بالتَّدقيق سوى الله، ولا أحَدَ يملكُ الحكمةَ والسلطانَ ليَخلقَ لكَ الأوضاعَ الملائمة لاكتشاف ذاتك وتحقيق وُجودك سوى الله، لذا لا يمكنُك تحقيقُ وُجودك الأصيل دون الإيمان بوُجوده وإقامةِ علاقةٍ واعيةٍ به يتمُّ فيها تَسليمُ الحياة له بصفةٍ مستمرَّة، والخضوع لقيادته وليس مجرَّد الاندماج في تديُّنٍ شكليٍّ عقيم.

لن نتوقَّفَ أكثر من هذا عند هذين العائقَين؛ لأنَّنا أكثرُ مشغوليَّةً بعَوائقَ أُخرى تمنعُ المؤمنين الحقيقيِّين من تحقيق هذا الوُجود الأصيل.

لوط ويونان: تشابُهٌ واختلاف

إن كنتَ من هُواة سَماع العظات، فلا بدَّ أنَّك سمعْتَ هذَين الاسمَين مئات المرَّات. وربَّما لم تسمَعْ أيَّ شيءٍ إيجابيٍّ عنهما. لقد عاشا كلاهما تَعِسَين، وماتا مجهولَين. لكلَيهما قصَّةٌ مؤلمةٌ لم تُكتَبْ نهايتُها؛ حيث صمتَ الكتابُ المقدَّس عن تسجيل نهايةِ كلٍّ منهما! كان آخرَ مشهدٍ لحياة الأوَّل هو فضيحةٌ في مغارةٍ نتيجةَ السَّلبيَّة الشديدة والوُقوع تحت سيطرة ابنتَيه اللَّتَين فعلَتا الشرَّ مع أبيهما! أمَّا الثاني فكانَ آخرَ مشهدٍ نقرأه عنه هو الجلوسُ وحيدًا كئيبًا تحت يَقطينةٍ ذابلة يطلُبُ الموتَ لنفسه، تبعه حَديثٌ لم يكتَملْ مع الله. ولسنا هنا بصَدَدِ إدانَتِهما أو تَبريرهما، لكنَّنا نحاولُ فَهْمَ أسبابِ فشلهما وبيان علاقةِ فشلهما بمسألةِ الوُجود الأصيل الذي نتحدَّثُ بشأنه.

بدايةً نقولُ إنَّ كلَيهما فَشِلا فشلًا ذَريعًا في تحقيق وُجودٍ ناجحٍ على الرُّغم من

كَونِ الأوَّل بارًّا والثاني نبيًّا. لقد شَهِدَ إبراهيمُ عن لوط بأنَّه بارٌّ ولم يعترض الربُّ على هذا، بل أكَّدَه في حديثه مع إبراهيم في تكوين ١٨، كما أنَّ الرُّوحَ القدسَ نفسَه أسماه "لوطًا البارّ" بقلم الرسول بطرس بعد ألفَي عام تقريبًا! وشَهِدَ الروحُ القدسُ أيضًا عن يونان بأنَّه نبيٌّ للرَّبّ (انظُر ٢ملوك ١٤: ٢٣-٢٦)، وصدَّقَ السيِّدُ المسيحُ نفسُه على هذا عدَّةَ مرَّات في الأناجيل. هذا من جهةِ مَقامِهما الرُّوحيّ، أمَّا من جهة اختباراتهما الروحيَّة، فكلاهما تمتَّعَ بقصَّةِ إنقاذٍ معجزيٍّ لم تتكرَّرْ في كلِّ التاريخ البشريّ: فالأوَّلُ أتاه ملاكان من السماء بشكلٍ خاصّ، وباتا لديه ليلةً وأنقذاه هو وعائلته من مدينةٍ احترقَتْ بأكملها بنارٍ من السماء بكلِّ ما فيها من بشر ومتاع! ونجا الثاني بمعجزةِ إنقاذه من الموت غرقًا وذلك بحِفْظه حيًّا في بطن حوتٍ مدَّة ثلاثة أيَّام! وبينما يسجِّلُ الكتابُ المقدَّسُ أخطاءَهما الوجوديَّةَ القاتلة، لا يسجِّلُ لهما أخطاءً أخلاقيَّة! لكنَّنا نقرأ أنَّ الكتابَ المقدَّس سجَّلَ أنَّ إبراهيمَ كذبَ مرَّتَين، ولم يسجِّل أيَّ كذبٍ للُوط! وفيما نقرأ عن سقطاتٍ أخلاقيَّة بَشِعةٍ لآباء وأنبياء وقضاةٍ مثل يعقوبَ وداوُدَ وسُلَيمان وشمشون وغَيرهم، لم نقرأ ليونان أيَّةَ سقطةٍ أخلاقيَّة! وعلى الرُّغم من هذا المقام الرفيع، والاختبارات المعجزيَّة، وغياب السقطات الأدبيَّة، فقد عاشا كلاهما عيشةً تَعِسةً، وماتا مجهولَين، ولم يستَمتِعا قَطُّ بتَحقيق ما نتكلَّم بشأنه من وُجودٍ أصيل. إنَّنا على يَقينٍ أنَّ كلَّيهما الآن في السماء ولم يذهبا إلى الجحيم، لكنَّ لدينا يقينًا أيضًا أنَّهما عاشا الجحيم هنا على الأرض قبل رقودهما، بسبب غيابِ الوُجود الأصيل. فما ملامحُ فَشَلِهما؟ وما أسبابه؟ وإلى أيِّ حدٍّ تقودُ الأسبابُ نفسُها مؤمنين كثيرين في أيَّامنا هذه إلى هذا الفَشَل الوُجوديِّ ذاته؟ هذا ما سنحاولُ الإجابةَ عنه.

وقبل أن نتناولُهما بالتَّفصيل، نودُّ الإشارةَ إلى الرسم السابق حيثُ يعتَمدُ تحقيقُ

الوُجود الأصيل على تمكين العلاقة بالله من طرف، والعلاقة بالنَّاس من الطَّرف الآخر، ويمكنُنا القولُ إجمالًا إنَّ فَشَلَ لوطٍ الوجوديَّ كان واضحًا في الطرف الأيمن حيثُ العلاقةُ بالله، بينما كان فَشَلُ يونان أوضَحَ في الطرف الأيسر، أي في علاقته بالنَّاس. كان الفشلُ الوُجوديُّ بالنِّسبة إلى لوطٍ ناتجًا عن عدم اهتمامه أصلًا بالوُجود الأصيل، لذا لم يُحقِّقه. فيما كان فشلُ يونانَ ناتجًا عن انزلاقه إلى حالةٍ من الوجود الزَّائفِ منعَتْه من تحقيق الوُجود الأصيل. فَشِلَ لوطٌ لأنَّه كان بلا خِدمة، بينما فشلَ يونانُ لأنَّه نجحَ في الخدمة! يمكنُنا أن نرى بشكلٍ أوضح أسبابَ عدم تحقيق الوجود الأصيل في حياة لوط، بينما نرى في يونان سماتِ الوُجود الزَّائف وأعراضه.

لوطٌ وأخطاؤه السبعة

يمكنُنا أن نرى هذه الأخطاء السبعة، التي أدَّتْ بلوطٍ إلى هذا الفشل الوُجوديّ، في حياة كثيرٍ من المؤمنين من حَولنا الآن، بل ربَّما رأيناها في أنفسنا في يَوم من الأيَّام، لذا نرجو التفكيرَ فيها بِعُمقٍ مع فَحْصِ النَّفس بإخلاص، لئلَّا يكونُ أيٌّ منَّا مُصابًا بأحَدِها دون أن يَدري.

١. الانقياد بالاحتياجات النفسيَّة والأعراف الاجتماعيَّة:

أوَّل ما يُطالعُنا به الكتاب المقدَّس عن لوط هو هذه العبارات: "وهذه مَواليدُ تارَحَ: وَلَدَ تارَحُ أَبرَامَ وناحورَ وهاران. وولَدَ هارانُ لُوطًا. وَمَاتَ هارانُ قَبْلَ تارَحَ أَبيه في أَرضِ مِيلادِه في أُورِ الْكَلْدانيِّين".[١٥٤] فقدَ لوطٌ أباه الأرضيَّ هاران باكرًا، وصار في حاجةٍ شديدة إلى حِضْن الأب. ونرى في التحليل النفسيِّ أنَّ هذا خلقَ لديه حالةً اعتماديَّةً على الجدِّ تارَح، ثمَّ على العمِّ إبراهيمَ بعدَ مَوتِ الجدّ. عرفَ لوطٌ الربَّ ودخلَ في علاقةٍ به مثل

١٥٤) تكوين ١١: ٢٧-٢٨.

عمِّه إبراهيم، وربَّما كان ذلك من خلال عمِّه. تلقَّى أبرامُ دعوةً واضحةً من الله بالخروج من أرضه ومن بيت أبيه، لكنَّ تارَحَ قرَّرَ الخروجَ مع ابنه لدَوافعَ لا نعلَمُها، ولم يعتَرِضْ إبراهيم على ذلك؛ إذ لا يليق أن يفعلَ طبقًا لتَقاليد الشَّرق، مع أنَّ الدَّعوةَ الإلهيَّةَ كانت موجَّهةً إلى أبرام فقط، وكانت تستلزمُ ليس فقط الخروجَ من أرضه ومن عشيرته، بل أيضًا من بيت أبيه.[١٥٥] وبسبب العاداتِ الشرقيَّة أيضًا، تزعَّمَ تارَحُ قيادةَ القافلة. ومن باب الشَّفَقة والحِرص على حفيده اليَتيم لوط، قرَّر أن يأخذَه معه، واستَقرَّ في حاران، وليس في كَنعان حيثُ دعا الربُّ أبرام، ولم يعتَرِضْ أبرامُ أيضًا.

هنا نرى لوطًا المؤمنَ يتَّخذُ قرارًا خطيرًا بالخروج مع جدِّه وعمِّه، مدفوعًا باحتياجاته النفسيَّة إلى أبوَّتهما، وبالعادات الاجتماعيَّة السائدة، دون أن يسألَ الرَّبّ، أو ينتظرَ دعوةَ الله الشخصيَّةَ لحياته. وهذا ما يسقطُ فيه كثيرٌ من المؤمنين الآن؛ حيث إنَّ اندفاعَهم وراءَ احتياجاتهم النفسيَّة، وانقيادهم بالأعراف الاجتماعيَّة طبقًا لثقافة المجتمعات يعطِّلُ اكتشافَهم لمشيئة الله المحدَّدة لكلِّ فردٍ فيهم، والمصمَّمةِ بدقَّةٍ لتَحقيق وُجودهم الأصيل. هذا لا يعني البتَّة أنَّ مشيئةَ الله تتجاهَلُ احتياجاتنا النفسيَّة أو أنَّها تتصادَمُ دائمًا مع الأعراف الاجتماعيَّة؛ ولا يعني أيضًا أنَّنا في طريقِ اكتشافنا لمشيئة الله لا نسترشدُ بهذه وتلك، لكنَّ المقصودَ أنَّنا نخطئ خطأً فادحًا حين نجعلُهما المحدِّدَ الوحيدَ أو الرئيسَ لقراراتنا المصيريَّة في الحياة. هنا نصيرُ معرَّضين بشدَّةٍ لخسارةِ دَعوةِ الله الخاصَّة بنا التي بها يتحقَّقُ وُجودُنا الأصيل.

٢. التبعيَّةُ العمياءُ للقيادة الروحيَّة:

أوصانا الكتابُ المقدَّسُ أن نطيعَ المرشدين الروحيِّين ونخضعَ لهم[١٥٦]، لكنَّنا

---

١٥٥) تكوين١٢: ١؛ أعمال ٧: ٣-٤.

١٥٦) عبرانيِّين ١٣: ١٧.

نحسبُها واحدةً من المآسي الروحيَّة أن يستَبدلَ المؤمنون بسؤال الربِّ وطلبِ مشيئته الخاصَّة بهم التَّبعيَّةَ العمياءَ للقادة الروحيِّين مهما كانت تَقواهم وأمانتهم. فبدلًا من السَّير مع الرَّبّ، يسيرون مع مَن يسيرُ مع الرَّبّ، أو يستبدلُ المؤمن بطلَبِ دَعوةِ الربِّ الخاصَّة له وانتظارها تقليدَ خادمٍ أو قائدٍ مشهور أو ناجح. وفي بعض الحالات الشاذَّة، التي لها آثارٌ مدمِّرة، يختلسُ بعضُ القادة غير الأُمَناء حقَّ الرَّبّ، ويجتَذِبون التلاميذَ وراءَهم، ويحدِّدون لهم دَعوَتَهم، ممَّا يؤدِّي إلى هلاك التلاميذ.

في تكوين ١٢: ٤، نقرأ ما يلي: "وذهبَ أبرامُ كما قالَ له الرَّبّ"، ثمَّ يُضيفُ عبارةً ذاتَ مغزًى مهمّ: "وذهبَ معه لوط". لو سألْنا لوطًا: "لماذا أنت ذاهبٌ إلى كَنعان؟" سيقول: "ذاهبٌ مع أبرام!" وهنا يكمنُ سرُّ الفَشَل، فأبرامُ ذهبَ لأنَّه تلقَّى دعوةً من الله للذَّهاب إلى كَنعان وله رسالةٌ يتمِّمُها هناك، فلماذا يحشُرُ لوطٌ نفسَه في دعوةِ عمِّه؟ لماذا يتبعُ أبرامَ حتَّى إنَّ الكتابَ المقدَّس لقَّبَه بالقول: "لوط السَّائر مع أبرام"؟[١٥٧] لماذا يتبعُه حتَّى في الانحدار إلى مصر؟ ليس هناك شكٌّ في أنَّه كانت للرَّبِّ دعوةٌ خاصَّةٌ لِلُوط، وكان حتمًا سيَدعوه إلى تتميمها، لكنَّه لم ينتَظِرْ دعوَتَه وحشَرَ نفسَه في دعوة أبرام، فخسرَ دَعوتَه وأمسى عبئًا على أبرام، حتَّى صارَ من المحتَّم على أبرام أن يتخلَّصَ منه!

٣. الانقيادُ بالرَّغبات الجسديَّة والنظرة البشريَّة المادِّيَّة:

لا بدَّ للبَداية الخاطئةِ أن تؤدِّي إلى مزيدٍ من الخطأ. وكانت الغلطةُ الكبرى في حياةِ لوطٍ عندما حانَتِ اللحظةُ الحاسمةُ التي قرَّر فيها أبرامُ التخلُّصَ من رفقةِ لوطٍ

---

١٥٧) تكوين ١٣: ٥.

المعطِّلة، حيث قالَ له صراحةً: "اعتَزِلْ عنِّي".[١٥٨] كانت لحظةً حاسمةً كان في وُسع لوطٍ أن يستَغلَّها أفضلَ استغلال، فيتخلَّصَ من اعتماديَّته، ويخرجَ من عباءةِ عمِّه، ويسألَ الربَّ عن دعوَته الخاصَّة. كان يُتوقَّع من لوطٍ في مَوقفٍ عصيبٍ كهذا أن يقولُ لعمِّه: "أعطني مُهلةً حتَّى أسألَ الربَّ عن المكان الذي ينبغي أن أذهبَ إليه". ويقينًا لو طلبَ من الرَّبِّ، لكانَ أخذَ طلبتَه، لكنَّه لم يسألْ بل يقول عنه الكتابُ المقدَّس: "فَرفعَ لوطٌ عَينَيه ورَأى كلَّ دَائِرَة الأُردُنِّ أَنَّ جَمِيعَهَا سَقْيٌ... فَاختارَ لوطٌ لِنَفسِه كلَّ دائرةِ الأُردُنِّ...".[١٥٩] لقد رفع عينَيه بدلًا من انتظار الربِّ ليَقولَ له ارفَعْ عَينَيك كما فعلَ مع أبرام. واختارَ لنفسه بدلًا من انتظار أن يختارَ الربُّ له. هذا ما يحدُثُ مع المؤمنين الذين يعيشون في عباءة الآخرين، ولم يتمتَّعوا بتجديد الذهن الذي يمكِّنهم من التفكير الرُّوحيِّ السَّليم، واتِّخاذ القرار الصحيح عند مفترقِ الطُّرُق. لقد فَكَّرَ مثل البشر، ورأى كما يرى الناس، وحكمَ وقرَّر كما يفعلُ أيُّ شخصٍ ليسَتْ له أيَّة علاقةٍ بالله.

٤. إهمالُ "عدم الراحةِ" الروحيَّة:

مهما كان المؤمنُ الحقيقيُّ ضعيفًا، تظلُّ لديه الحسَّاسيَّة الروحيَّة. ولوطٌ لم يفقِدْ قطُّ حسَّاسيَّته الروحيَّة، إذ يقولُ عنه الرسول بطرس: "إِذْ كانَ البارُّ، بِالنَّظَر والسَّمْع وهُوَ سَاكِنٌ بَينَهم، يُعذِّبُ يَومًا فَيَومًا نَفْسَه البارَّةَ بالأَفعالِ الأَثيمة".[١٦٠] لم يخلِقْنا الله لنتعذَّب، ولم يخلِّصْنا لنَظلَّ نعذِّبُ أنفسَنا. إنَّ واحدةً من أروَع نتائج تحقيق الوُجود الأصيل هي البهجةُ والمتعةُ الوُجوديَّة الفائقة، التي يَصِفُها داوُد في مزمور

---

١٥٨) تكوين ١٣: ٩.

١٥٩) تكوين ١٣: ١٠-١١.

١٦٠) ٢بطرس ٢: ٨.

١٦ بالقول: "تُعرِّفُني سَبيلَ الحياة. أَمامَكَ شِبَعُ سُرور. في يَمينِكَ نِعَمٌ إلى الأَبَد. وأَحَدُ أقوى الأدلَّة على الابتعاد عن مشيئةِ الله هو غيابُ الفَرحة والراحة الروحيَّة، حتَّى لو توافرَتْ كلُّ دواعي الراحة والبهجة المادِّيَّة والنفسيَّة، إذ يَصِفُها داوُد أيضًا في مزمور ٣٢ بالقول: "لـمَّا سَكَتُّ بَلِيَتْ عِظامي من زَفيري اليَومَ كلَّه، لأنَّ يَدَكَ ثَقُلَتْ عليَّ نَهارًا ولَيلًا. تَحوَّلَتْ رُطوبَتي إلى يُبوسَةِ القَيْظ". كان كلُّ ما يفعلُه المسكينُ في سَدومَ أنَّه يعذِّبُ نفسَه البارَّةَ كلَّ يَوم! فلماذا لم ينتَفِضْ ليَخرُجَ ويبحثَ عن المكان الصحيح؟ من الخطر الشديد على المؤمن ألَّا يحترمَ عدمَ الراحة الروحيَّة في أمرٍ ما أو من جهةِ وضعٍ ما.

٥. عدم الاستجابة لأعمال العناية الإلهيَّة:

ما تزالُ أعمالُ العناية الإلهيَّة وتدخُّلات الله المعجزيَّة للتَّحذير أو الإنقاذ- إحدى أفضَلِ الوسائل التي يتكلَّم بها الله إلى أولاده، وربَّما كانَتْ أكثرَ الطُّرُق أمانًا. لقد تكلَّمَ الله بِوُضوحٍ إلى لوط محذِّرًا إيَّاه بخطورةِ البَقاء في سَدوم. لقد ضاع هو وكلُّ مالُه، بل كلُّ المدينة، وأُخِذَ لوطٌ وعائلتُه مسبيِّين. توقَّعْنا أن يستغلَّ الأيَّام التي أمضاها في السبي في أن يختليَ مع الله، ويسألَه عن سبب حدوث ما وقع، وعن المخرَج منه، وعن مشيئته من جهته للمرحلة المقبِلة. لكنْ يبدو أنَّه لم يحدُثْ شيءٌ من هذا. غير أنَّ الله تحنَّنَ وأرسلَ أبرامَ وعضَّدَه بمعجزةٍ ليُنقِذَ لوطًا. والأمرُ الهائلُ هو أن يختارَ لوطًا العودةَ ثانيةً إلى المدينة نفسها ليَسكُنَ فيها وكأنَّ شيئًا لم يكُنْ! لا يستَمعُ لصَوتِ أعمال العناية الإلهيَّة سواءٌ المحذِّرة أم المخلِّصة! وقد رأيتُ في حياتي كثيرًا من المؤمنين يجتازون لحظاتٍ حاسمةً يمكنُها أن تُخرجَهم من حالة العدم التي يعيشونها، إنْ أحسَنوا استغلالها، كما يمكنُها أن تضعَ أقدامَهم على

طريقِ تَحقيقِ دَعوة الله لهم واختبار متعة الوُجود الأصيل. لكنَّ بعضَهم لم يَفهَمْها، وبعضَهم الآخر فَهِمَها وتجاهَلَها، فيما قرَّر آخرون التَّغيير، لكنْ ما لبثوا أن رجعوا إلى طريقهم القديم بمجرَّدِ تحسُّن الأحوال. ولا يحقِّقُ مثل هؤلاء الوُجودَ الأصيلَ بتاتًا.

٦. ضعفُ الإيمان والخَوفُ من المغامرة:

لماذا ذهبَ مع عمِّه من حاران ولم ينتَظِرْ دعوةً شخصيَّةً له؟

لماذا اختارَ أرضَ السَّقي المضمونة ولم ينتَظرْ اختيارَ الله له؟

لماذا عادَ مرَّةً أُخرى إلى سدوم بعدما رأى الموتَ بعَينَيه؟

لماذا التردُّدُ المخزي والجاهلُ بعدما أنقذَه الملاكان بين صوغر والجبل؟

إنَّه ضَعْفُ الإيمان الذي يقتُلُ روحَ المغامرة. إنَّ قبولَ المغامَرة الناشئَ لا عن التهوُّر والاندفاع بل عن ثقةٍ شديدةٍ بالله، كانَ العُنصرَ المشتَركَ في كلِّ قصص أولاد الله الناجحين المذكورة في الكتاب المقدَّس. لذا أقولُ إنَّ مَن يخشى المغامرة، عليه ألَّا يشكوَ خَواء العَدم.

٧. قبولُ حياةٍ بلا دَعوة ولا رسالة ولا خدمة:

عاشَ لوطٌ في حاران، ثمَّ في كَنعان، وبعدها في سَدوم دون أن يسجِّلَ له الكتابُ المقدَّس خدمةً واحدةً لله أو للنَّاس! لم يسجِّلْ له الكتابُ المقَدَّس اختبارًا روحيًّا واحدًا! لم يَظهَرْ له الربُّ ولا مرَّة! لم يَبنِ للرَّبِّ مذبحًا قَطّ! ولم يذكُرْ له الكتابُ المقدَّس ولا حتَّى صلاةً واحدة. فأيُّ حياةٍ هذه؟ وكيف يقبلُ مؤمنٍ على نفسِه مثل هذه النَّوعيَّة من الحياة؟ يمكننا الجزم أنَّه كان يستَشعرُ في أعماقه حنينًا قويًّا لأنْ يكونَ نافعًا، لكنْ لم يُستَجَبْ له. يُستنتجُ هذا لأنَّ الكتابَ المقدَّس يقولُ عنه

إنَّه بارّ، ولا نتخيَّلُ بارًّا لا يرغبُ في أن يكونَ نافعًا. غير أنَّ هذه هي حالُ كثيرٍ من المؤمنين: يرغبون أن يكونوا نافعين، ويرفضون عيشةً بلا ثمر، لكنَّهم يتوقَّفون عند هذا الحدّ، ولا يفعَلون أكثرَ من إبداءِ الأشواق دون استعدادٍ لبَذْلِ كلِّ اجتهادٍ كما يوصي الكتابُ المقدَّس في ٢بطرس ١: ٥.

إنَّ هذه الأخطاء السبعةَ التي تُرى في بعضنا كلَّ يَومٍ هي- من وجهة نظرنا- عوائقُ المؤمنين الحقيقيّين لتَحقيق الوُجود الأصيل.

يونانُ وعلاماتُ الوُجود الزائف:

هناك مُقطعٌ مهمٌّ في سفر الملوك الثاني لا نفهَمُ من دونه قصَّة يونان:

"في السَّنة الخامسةَ عشرةَ لأمصيا بن يُوآش ملكِ يهُوذا، ملكَ يَرُبْعامُ بنُ يُوآش ملك إسرائيل في السَّامرة إحدى وأربعين سنةً. وعمل الشرَّ في عَينَيِ الرَّبّ. لم يَحِدْ عن شيءٍ من خطايا يَرُبْعام بن نَباط الذي جعلَ إسرائيلَ يُخطئُ. **هوَ ردَّ تُخُمَ إسرائيل من مَدخَلِ حماة إلى بحر العربة، حسبَ كلام الرَّبِّ إله إسرائيل الذي تكلَّم به عن يد عبدِه يُونانَ بن أمتَّاي النَّبيِّ الذي من جتّ حافر.** لأنَّ الربَّ رأى ضيقَ إسرائيلَ مرًّا جدًّا، لأنَّه لم يكُن محجُوزٌ ولا مُطلقٌ وليس مُعينٌ لإسرائيل. ولم يتكلَّم الربُّ بمَحْوِ اسم إسرائيلَ من تحت السماء، فخلَّصَهم بيَد يَرُبْعام ابن يُوآش".

(٢ملوك ١٤: ٢٣-٢٧)

يسجِّلُ هذا المقطَعُ بدايةً رائعةً ليونان لا تتَّفقُ مع نهايته، كما أنَّه يَضَعُ الأساسَ لفَهْمِ ما حدَثَ في ما بعد. فنُلاحِظ الأمورَ الآتية:

ظهرَ يونانُ في أيَّام أحَد أشرِّ ملوك إسرائيل، يَرُبْعام الثاني. وعلى الرُّغم من شرِّه، فقد طالَتْ سنواتُ مُلكِه أكثرَ من كلِّ سابِقيه ولاحقيه! في أيَّام هذا الملك الشرِّير وسنواته السوداء، كان ضيقُ الشعب- كما يقولُ الكتابُ المقدَّس- مرًّا جدًّا، فتألَّم الربُّ لألمهم، وقرَّرَ عدم محوهم! وليس ذلك فقط، بل قرَّرَ أيضًا أن يُباركَهم ويُظهِرَ نعمتَه نحوَهم لعلَّها تقودُهم إلى التَّوبة. فأعطى ملكَهم الشرِّيرَ أن يستردَّ كلَّ البلادِ التي فَقَدوها على مرِّ السنين! المهمُّ هنا هو أنَّ النبيَّ الذي استخدمَه الربُّ ليَنقُلَ مشاعرَ نعمتِه من نحو شعبه، ويُبلِغَهم الأخبارَ السارَّةَ بِعَدم محوِهم، وأيضًا بردِّ المسلوب هو يونان النَّبيّ! وقد تمَّمَ يونانُ الـمَهَمَّةَ بسعادةٍ ونشاط، حيثُ يقولُ الكتابُ المقدَّس عن كلام نعمة الله: "**الَّذي تَكلَّمَ بِه عَن يَدِ عَبْدِه يُونانَ**". كان يونانُ هنا عبدَ الربِّ الأمين! لكنَّ الأمرَ اختلفَ تمامًا في حادثة نينوى كما سجَّلَها سفرُ يونان.

لقد رفضَ وصولَ النعمة ذاتها إلى الأمم، وأرادَ أن يتكلَّمَ الله بمَحْو أهل نينوى وليس بخلاصهم كما فعل مع إسرائيل! كان هو أكثرَ النَّاس فَهْمًا لنَعمة الله، إذ رآها مع إسرائيل رغمَ شرِّهم وشرِّ مَلكهم، لكنَّه استكثرَ وُصولَ هذه النِّعمة إلى أشور![١٦١] فما سرُّ هذا التحوُّل؟ لماذا هذا التعصُّب المقيت؟ إنَّه، كما نرى، نتيجةُ التسمُّم بأخبَثِ المتع- متعةِ الانتماء إلى الجماعة الدينيَّة، وتحقيق وُجودٍ زائف بَينهم! كيف؟

لا شكَّ أنَّنا نحتاجُ إلى شعب الله، ولا يمكنُ أن ننموَ روحيًّا دونهم، أو بعيدًا

---

١٦١) يونان ٤: ١-٣.

عنهم. لكنَّ المشكلةَ الكُبرى هي حين يحلُّ انتماؤنا إليهم محلَّ انتمائنا إلى الله، فيَصيرَ الوَلاءُ لشَعبِ الربِّ وليس لربِّ الشعب. هنا يصيرُ شعبُ الربِّ بالنسبة إلى الشخص المؤمن جماعةً دينيَّةً يرتبطُ بها، ويجدُ نفسَه بينها، ويحقِّقُ وُجودَه داخلَها، فتَصيرُ قيمتُها هي قيمتَه، ووُجودُها هو وجودُه، ونجاحُها هو نجاحُه، وفشلُها هو فشلُه، وذلك ليس انطلاقًا من حِرصٍ روحيٍّ على مصلحتها كما كان يفعلُ بولس، بل لحاجاتٍ نفسيَّةٍ شخصيَّةٍ بحتة، وكثيرًا ما تكونُ حاجاتٍ مَرَضيَّةً. لا شكَّ أنَّ تحقيقَ الوُجودِ الأصيل يستلزمُ إيمانًا واجتهادًا- إيمانًا بأنَّ لدى الله قصدًا من وجودي، وخُطَّةً لتَحقيقه، ثمَّ اجتهادًا في معرفة هذا القَصْد، وفي السُّلوك في الخُطَّة الموضوعة. إلَّا أنَّ الكسلَ وعدمَ الإيمان يستَسْهِلان تحقيقَ وجودٍ مرئيٍّ ملموسٍ سريعٍ عبر الذَّوبان في الجماعة وتبنِّي قِيَمِها وقَضيَّتِها حتَّى لو كان على حساب وُجودي الأصيل الذي خلَقَني الله من أجله. وهكذا يصيرُ الشخصُ خادمًا لجماعة معيَّنة بدلَ كَونه خادمًا لله، وناقلًا لفكر جماعته بدل نَقْلِ كلام الله وأفكاره، وتصيرُ قضيَّةُ جماعته، وليست قضيَّة الله، هي قضيَّتَه. عندئذٍ تظهرُ على الشَّخص هذه الأعراض السبعة السيِّئة التي سنَراها في يونان.

١. الانفصالُ عن عمل الله:

امتلأ قلبُ الربِّ بالشَّفقة على نينوى، ولم يرغب في التَّعامُل مع أهلها باعتباره الديَّانَ العادل قبل أن يُعطيَهم فرصةً للتَّوبة، ولم يكُنْ عندَه أفضلُ من عبدِه يونان المتدرِّب على هذه المَهمَّة تحديدًا. غير أنَّ الإناء كان قد فَسدَ ولم يَعُدْ مستعدًّا لكلِّ عملٍ صالح. لقد تسمَّمَ بخمرِ الانتماء والارتقاء داخل جماعته ونشوتِهما،

فلَم يَعُدْ على استعداد لأن يعمَلَ مع الله حيثُ يريدُ الله أن يعملَ، بل يريدُ أن يعملَ الله معَه حيثُ يريدُ هو أن يعمل، أي داخلَ جماعتِه فقط. وإمعانًا في الابتعاد عن مشيئة الله، قرَّرَ الهربَ إلى ترشيش. فبَينَما أرادَ الله منه أن يذهبَ إلى الشرق نحو٨٠٠كم، قرَّرَ هو الذَّهاب غربًا ٣٢٠٠كم تقريبًا! وكأنَّه، بجهل، يريدُ أن يصلَ إلى حيثُ لا تصلُ إليه يدُ الله! بل إنَّ الأعجبَ من هذا هو عندما اكتشفَ أن يدَ الله طالَتْه وهو في السفينة، فقرَّرَ أن يهربَ ثانيةً بالنُّزول إلى عمق البحر، بل بالموتِ أيضًا. ونسيَ ما قالَه داوُد في مزمور ١٣٩: "أينَ أَذهَبُ من رُوحِكَ؟ ومِن وَجْهِكَ أينَ أَهرُبُ؟ إنْ صَعِدْتُ إلَى السَّماواتِ فَأَنْتَ هناكَ، وإنْ فَرَشتُ في الهاوِيَةِ فَها أَنتَ. إنْ أَخَذْتُ جَناحَيِ الصُّبح، وَسَكَنتُ في أَقاصِي البَحر، فهُناكَ أيضًا تَهْديني يَدُكَ وَتُمسِكُني يَمينُكَ". ويُسجِّلُ الكتابُ المقدَّسُ مرَّتَين في سفر يونان ١: ٣، ١٠، أنَّه قامَ ليهرُبَ من وجهِ الرَّبّ، بدلًا من الاستمتاع بمحضرِ الربِّ وطاعةِ كلامه.

٢. الانفصالُ عن الواقع:

كانَتِ العاصفةُ في الخارج تضربُ بعُنفٍ شديد لم يَرَ له البحَّارةُ مثيلًا، بينما كان يونانُ في جَوفِ السفينة نائمًا نَومًا ثقيلًا! وهذا مَصيرُ المتسمِّمين بخَمر الانتماء إلى الجماعة الدينيَّة: الانفصالُ التامُّ عن الواقع، والاهتمامُ به فقط من جهة استغلاله لمصلحة الجماعة. فهو على استعدادٍ أن يركبَ السفينةَ ليَستَعمِلَها لمصلحة جماعته، لكنَّه منفصلٌ تمامًا عمَّا يحدُثُ فيها ومن حولها! في داخل الجماعة الدينيَّة، لا وقتَ لما هو خارجها ولا احتياج إليه. المأساة الكبرى هنا هي هذه: مع أنَّ لله عملًا عظيمًا كالعاصفة في الواقع المحيط بهم، فإنَّهم لا يَرَون العاصفةَ ولا يسمعون صوتَها بينما تدوي.

٣. الانفصالُ عن صراخ المُتعَبين:

كان كلُّ ركَّاب السفينة يَصرُخون ويُصلُّون، والوحيد الذي لا يصرخ أو يصلِّي هو نبيُّ الله! هذا ما تفعلُه الجماعةُ الدينية بمشاعر أعضائها المؤمنين! فبينما يبالِغون في التعاطُف مع مَن هم في الداخل، هم قُساةٌ جامِدون تُجاهَ من لا ينتمي إليهم. هُم منفصِلون عن احتياجاتِ الناس وآلامهم.

٤. الانفصالُ عمَّا يعرف:

كان جوابُ يونانَ إلى البحَّارة حينَ سألوه عن هُويَّته جوابًا يثيرُ الضَّحِكَ والبكاء في آن معًا، إذ قال: "أنا عبرانيٌّ، وأنَا خائفٌ من الربِّ إلهِ السَّماءِ الذي صَنَعَ البحْرَ والبَرّ". كان يعلَمُ عِلْمَ اليقين أنَّ الربَّ هو الذي صنعَ البحرَ وذكرَه قبل البرّ، لكنَّه عندما قرَّرَ أن يهرُبَ من الربِّ ذهب إلى البحر! في الجماعة الدينيَّة المسيحيَّة قد يكونُ هناك تعليمٌ صحيح، لكنَّه لا يُستعمَلُ في القرارات اليوميَّة، لا سيَّما في التَّعامُل مع الآخرين.

٥. الانفصالُ عن مسؤوليَّاته الشخصيَّة والفرديَّة:

يلفتُ النظرَ بشدَّةٍ طلبُه من البحَّارة قائلًا: "خُذوني وَاطْرَحوني في البَحرِ فَيَسْكُنَ البَحرُ عنكُم، لأنَّني عَالمٌ أنَّه بِسَبَبي هذا النَّوءُ العَظيمُ عَلَيكُم". والسؤال هنا هو: "ما دُمتَ تعلمُ أنَّه بسببك هذا النَّوء العظيم؛ وأنَّك سبَّبتَ هذه الكارثةَ للنَّاس المساكين، لماذا تريدُ أن تُحمِّلَهم ذنبَ طرحِكَ في البحر الهائج؟ لماذا لا تقفزُ أنت بنفسك في المياه؟ مَن يمنعُك؟ لماذا لا تتحمَّلُ برجولةٍ نتيجةَ قرارك الخاطئ؟ لماذا تنتظرُ من الآخرين أن يقرِّروا عنك؟".

في داخل الجماعة الدينيَّة، حيثُ الذَّوبانُ في المجموع وضَياعُ الهُوِيَّة الفرديَّة،

ينفصلُ الشخصُ عن مسؤوليَّته الشخصيَّة حيثُ المسؤوليَّة الجماعيَّة، لا الفرديَّة، هي السائدة.

٦. الانفصالُ عن فكر الله ومشاعره:

بعدَ تعامُلاتِ نعمةِ الله معه لإجباره على إتمام الـمَهمَّة، خرجَ من بطن الحوت ليتمِّمَ الكرازةَ دون قلبٍ، ولا حماس، فيَسيرُ مسيرةَ يَوم بدلًا من ثلاثة أيَّام ثمَّ يجلسُ تُجاه المدينة منتظرًا هلاكَها، ويعاتبُ الله بشدَّةٍ على غفرانه لأهلها بدلًا من أن يفرحَ بالتَّوبة الرائعة لأهلها، ويبتهجَ برحمةِ الله لهم.

٧. الاتِّصالُ بشدَّة باحتياجاته الشخصيَّة:

الاتِّصالُ الوحيدُ الملحوظُ هنا هو اتِّصالُه الشديدُ باحتياجاته الشخصيَّة في أبسط صُوَرها، وانفصاله الشديد عن احتياجات الآخرين في أعظم صُوَرها. فنبتةٌ تَقي رأسَه من الحرِّ هي كلُّ ما يفرحُه! بينما هلاكُ أكثرِ من مئةٍ وعشرين ألفَ نفسٍ لا يمثِّل له أيَّ شيء! لقد فرحَ باليَقطينةِ فرحًا عظيمًا، واغتمَّ لذُبولها غمًّا شديدًا، لكنه لم يعبَأ بهلاكِ الناس والبهائم الكثيرة.

إنْ وُجدَتْ هذه التَّشوُّهاتُ في أحَدِنا، فهي علامةُ غيابِ الوُجودِ الحقيقيِّ الذي جوهرُه، هو الاتِّصالُ العميقُ بالله من طرف- فكرُه ومشاعرُه وعملُه- والاتِّصالُ الحميمُ بالإنسان من الطرف الآخر- آلامُه واحتياجاتُه وأفراحُه لكَونه إنسانًا.

الخاتمة

كلَّما نَمونَا في معرفة الله عرفنا أنفسنا بطريقةٍ أفضل. وهذا بِدَوره يدفعُنا نحو خالِقِنا إمَّا حامدين وإمَّا طالبين شفاءَه، وهكذا فإنَّنا ننمو أكثر فأكثر في معرفته. على أنَّ معرفةَ الله التي تناوَلْناها في هذا الكتاب ليسَتْ هي الثَّراءَ المعلوماتيَّ عنه، بل هي الوَعيُ الاختباريُّ به، والإدراكُ الوجوديُّ له. وهذه المعرفة هي النورُ الهادي الوحيد لنا في ارتحالِنا الحتميِّ نحو ما هو أبديّ.

تتشابه رحلتنا هذه مع رحلة خروجَ الشَّعبِ القديم من أرض العبوديَّة وضَياع الهُوِيَّةِ إلى أرضٍ تفيضُ بالخَيرِ والحرِّيَّة، حيث كان لا بدَّ لهم من عبور البرِّيَّة، وهي المكان الذي نتوقَّعُ فيه من الله تدخُّلاتٍ فائقةً تفتَحُ بصائِرنا، فنعرفه ونعرف أنفسنا. لكنْ علينا أيضًا أن نكونَ نَشِطين وفَعَّالين حتَّى "نجرِيَ وراءَه" كلَّما جَذَبنا.[١٦٢]

لم يكُنْ هذا الكتابُ سوى محاوَلةٍ متواضعةٍ لتَحريكِ وَعْينا، وتشويقِ قلوبِنا إلى هذه الغاية الأبديَّة، فهذه هي الحياة الأبديَّة: أن نعرفَ الإلهَ الحقيقيَّ وَحدَه، ويسوع المسيح الذي أرسلَه[١٦٣] ليَكونَ الطريقَ الواصلَ ما بين الله والناس.

نُهدي هذا الكتاب إلى قُرَّاء العربيَّة الذين يشاركوننا مسيرةَ معرفةِ الله والنَّفس في كلِّ مكان.

المؤلِّفان

---

١٦٢) نشيد الأنشاد ١: ٤.

١٦٣) يوحنَّا ١٧: ٣.

د. أوسم وصفي

يحمل درجة البكالوريوس في الطبِّ والجراحة، ودرجة الماجستير في الأمراض النفسيَّة والعصبيَّة. يعمل منذ عام ١٩٩٢م في مجالات العلاج النفسيّ والإرشاد وإعادة تأهيل المدمنين، ويحاضرُ في بعض البلدان العربيَّة في هذه المجالات.

بدأ تأليف الكتب منذ عام ٢٠٠٤م، وله ما يزيدُ على عشرين كتابًا. كما أسَّس عددًا من الخدمات والبرامج التي تُعنى بقضايا التعافي والتوعية والمساندة النفسيَّة، وقد شاركَ في العديد من البرامج التلفزيونيَّة. كما يدرِّس مادَّة "التكامل بين علم النفس واللاهوت".

د. ماهر صموئيل

يحمل درجة البكالوريوس في الطبِّ والجراحة، والدبلوم في أمراض المخِّ والأعصاب والطبِّ النفسيّ. عمل طبيبًا نفسيًّا حتَّى عام ١٩٩٤م، حيث تفرَّغَ لخدمة الكلمة والمشورة النفسيَّة والطبِّيَّة في مِصر وبعض البلدان العربيَّة حتَّى عام ٢٠٠٧م، حيث عادَ إلى ممارسة الطبِّ النفسيّ.

يقدِّم د. ماهر عدَّة برامج تلفزيونيَّة، وله من المؤلَّفات سبعة كتب. يدرسُ حاليًّا في جامعة ترينيتي الدوليَّة لنَيل درجة الماجستير في الفلسفة والدين.

د. أوسم وصفي

يحمل درجة البكالوريوس في الطبِّ والجراحة، ودرجة الماجستير في الأمراض النفسيَّة والعصبيَّة. يعمل منذ عام ١٩٩٢م في مجالات العلاج النفسيِّ والإرشاد وإعادة تأهيل المدمنين، ويحاضرُ في بعض البلدان العربيَّة في هذه المجالات.

بدأ تأليف الكتب منذ عام ٢٠٠٤م، وله ما يزيدُ على عشرين كتابًا. كما أسَّس عددًا من الخدمات والبرامج التي تُعنى بقضايا التعافي والتوعية والمساندة النفسيَّة، وقد شاركَ في العديد من البرامج التلفزيونيَّة. كما يدرِّس مادَّة "التكامل بين علم النفس واللاهوت".

د. ماهر صموئيل

يحمل درجة البكالوريوس في الطبِّ والجراحة، والدبلوم في أمراض المخِّ والأعصاب والطبِّ النفسيّ. عمل طبيبًا نفسيًّا حتَّى عام ١٩٩٤م، حيث تفرَّغَ لخدمة الكلمة والمشورة النفسيَّة والطبِّيَّة في مِصر وبعض البلدان العربيَّة حتَّى عام ٢٠٠٧م، حيث عادَ إلى ممارسة الطبِّ النفسيّ.

يقدِّم د. ماهر عدَّة برامج تلفزيونيَّة، وله من المؤلَّفات سبعة كتب. يدرسُ حاليًّا في جامعة ترينيتي الدوليَّة لنَيل درجة الماجستير في الفلسفة والدين.

معرفة
الله و النفس

في عالمٍ تكثُرُ فيه "المرايا الخادعة"، لم نعُدْ قادرين على رؤية أنفسنا بشكلٍ صحيح، وصرنا لا ندركُ مدى التشوُّه الذي لَحِق بنا بالمقارنة بالصورة التي خلقَنا الله عليها.

كما أنَّنا نعيشُ في زمنٍ يتَّسمُ بالمادِّيَّة التي همَّشَتْ دَورَ الله في عالمنا، فتشوَّهتْ صورةُ الله في أعيُننا. وعلى النقيضِ من الإغراق في المادِّيَّة، اعتقد بعضُنا أنَّ التَّديُّنَ هو السبيلُ إلى معرفة الله، غير أنَّ التديُّن في أحيانٍ كثيرة لم يزدْ صورةَ الله إلَّا قتامًا وتشويهًا، وما يزالُ هناك إصرارٌ عجيبٌ على المُضيِّ في تشويه صورة الله وإقصائه.

وفي خضمِّ هذا الواقع المرتَبِك، يطلُّ علينا كتاب **معرفة الله و النفس**، الذي يُبيِّن حقيقة نفوسنا المشوَّهة، ويضعنا على طريقِ المصالحة مع الصورة الأصليَّة، وذلك بالتَّزامن مع معرفة خالق تلك الصورة.

وهذا الكتابُ هو أحَدَ الكُتُبِ القليلة في المكتبة المسيحيَّة العربيَّة الذي يشتركُ في وضعِه مؤلِّفان، حيث كانت تلك تجرِبةً فريدةً ومُثرِيةً لم تخلُ من التحدِّيات. لكنَّ إصرارَ الجميع على إنجاحها- ناشرٍ ومؤلِّفَين- جعلَنا ننظرُ إلى التحدِّياتِ على أنَّها فرصٌ، فأبصرَ الكتابُ النُّورَ بعد جَهدٍ وصبرٍ داما شهورًا في الكتابة والمراجَعة والاستشارات، مع الحِرْص على تقديم مستوًى يليقُ بقرَّائنا.

ISBN 978-90-5950-193-5

9 789059 501935

أوفير
ophir

www.ophir.com.jo

معرفة الله والنفس

في عالمٍ تكثُرُ فيه "المرايا الخادعة"، لم نعُدْ قادرين على رؤية أنفسنا بشكلٍ صحيح، وصرنا لا ندركُ مدى التشوُّه الذي لَحِق بنا بالمقارنة بالصورة التي خلقَنا الله عليها.

كما أنَّنا نعيشُ في زمنٍ يتَّسمُ بالماديَّة التي همَّشَتْ دَورَ الله في عالمنا، فتشوَّهتْ صورةُ الله في أعيُننا. وعلى النقيضِ من الإغراق في الماديَّة، اعتقد بعضُنا أنَّ التَّديُّنَ هو السبيلُ إلى معرفة الله، غير أنَّ التديُّن في أحيانٍ كثيرة لم يزدْ صورةَ الله إلَّا قتامًا وتشويهًا، وما يزالُ هناك إصرارٌ عجيبٌ على المُضيِّ في تشويه صورة الله وإقصائه.

وفي خضمِّ هذا الواقع المرتَبِك، يطلُّ علينا كتاب **معرفة الله والنفس**، الذي يُبيِّن حقيقة نفوسنا المشوَّهة، ويضعنا على طريقِ المصالحة مع الصورة الأصليَّة، وذلك بالتَّزامن مع معرفة خالق تلك الصورة.

وهذا الكتابُ هو أحَدَ الكُتُبِ القليلة في المكتبة المسيحيَّة العربيَّة الذي يشتركُ في وضعِه مؤلِّفان، حيث كانت تلك تجربةً فريدةً ومُثيرةً لم تخلُ من التحدِّيات. لكنَّ إصرارَ الجميع على إنجاحها- ناشرٍ ومؤلِّفَين- جعلَنا ننظرُ إلى التحدِّياتِ على أنَّها فرصٌ، فأبصرَ الكتابُ النُّورَ بعد جَهدٍ وصبرٍ داما شهورًا في الكتابة والمراجَعة والاستشارات، مع الحِرْص على تقديم مستوًى يليقُ بقرَّائنا.

ISBN 978-90-5950-193-5
9 789059 501935
ophir
www.ophir.com.jo